في
بلاد الحضارات الأولى

أ.د. فاليري غولايف

ترجمة: د. سليمان إلياس

اصدارات مركز الفرات للدراسات

IN THE LAND OF FIRST CIVILIZATIONS

VALERI I GULIAEV

В.И.ГУЛЯЕВ

В СТРАНЕ ПЕРВЫХ ЦИВИЛИЗАЦИЙ

كلمة شكر لا بد منها

جزيل الشكر والامتنان لجميع الزملاء الذين كانوا عوناً لي في تحضير هذا الكتاب، وأخص بالذكر:

- المهندسة حليمة العلي، والآثاري ياسر العلي (تنضيد).

- الأستاذ حسن جنكو، والدكتور عبد الإله المصطفى، والأستاذ ماهر جمو (المراجعة والتدقيق اللغوي).

- الأستاذ غسان محمد على تصميم الغلاف، والأستاذ ريفان محمود (التصميم والإخراج الفني)، والصديق وليد جولي على جهوده في متابعة عمليات الطباعة.

كما أتقدم بالشكر لمركز الفرات للدراسات على انجازه هذا العمل.

د. سليمان إلياس

تمثال الغلاف:

أورنمو - مؤسس سلاسة أور الثالثة ٢١١٢ - ١٠٩٥ ق.م

تقديم

لا تخلو مهمة الباحث في ما خلفه الانسان في العصور القديمة من صعوبات مختلفة، تتصدر قائمتها قلة المصادر التي تعنيه. وتسهّل مهمته في البحث ومعرفة تاريخ القدماء واستقصاء آثارهم. لذلك؛ تظل مسيرة عمل الباحثين والعلماء المختصين الذين اختاروا السير في هذا الطريق الصعب، وتتطلب منهم تحمل المشقات والأثمان للعثور على بعض الآثار التي تفيدهم في تقديم معلومات عن نمط حياة الأقوام والشعوب التي ساهمت في بناء وإثراء الحضارة الانسانية؛ لا سيما حين تجري أعمال التنقيب بموطن الحضارة القديمة في أرض الرافدين، وتحت الشمس اللاهبة، على حد تعبير عالم الآثار السوفييتي.. مؤلف هذا الكتاب.

هذه المهمة المحفوفة بالصعاب والمخاطر أحياناً، لا تخلو كذلك من المتعة والاستئناس لدى علماء الآثار الذين يتركز جلّ اهمامهم في العثور على نقوش كتابية أو بعض الأواني الفخارية، وتمنحهم الطاقة – مهما كانت طبيعتها وحجمها لمواصلة مهمتهم بثقة، لأنهم يدركون أنها تمهد لهم الطريق للوصول إلى المزيد من اللقى التي تساعدهم في استكشاف العديد من الأوابد التي تطمح إليها أنفسهم ، وتوحي لهم بالكثير من التعابير والدلالات التي تخص جوهر تحرياتهم لتحقيق بعض أهدافهم، واستخلاص النتائج التي توحي بقدرة الإنسان في كل مراحل التاريخ البشري على الإبداع، ويتحدى قسوة الحياة؛ وغضب الطبيعة ليعيش نمط الحياة الذي يختاره للبقاء والاستمرار.

رحلة عالم الآثار السوفيتي توصيف مفصّل ودقيق لمساحة غير قليلة للمواقع الأثرية التي نقَّب فيها في العراق، أرض الرافدين ،بلد الحضارات الأولى، و تقصّي المعلومات التي تسهم في معرفة المزيد من المعلومات عن

طبيعة أبناء الرافدين، وقدرتهم على إنشاء امبراطوريات ذات شأن عظيم ،أغنت بإضافاتها التراث الإنساني الذي تراكم على مِّر السنين.

التماثيل والأثريات التي عثر عليها فريق المؤلف تحكي قصة الصراعات والتحالفات لمختلف الأقوام التي عاشت وتناوبت على أرض الرافدين من السومريين والبابليين والآشوريين والميديين وغيرهم.

وكذلك الحروب التي خاضوها ضد بعضهم، ناهيك عن غضب ونقمة نهري دجلة والفرات اللذان ما انفكا عن الزحف على مستوطناتهم وتدميرها بين الحين والآخر، كما ورد في وصف البابليين قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد حين يفيض نهر دجلة يبتلع كل ما في طريقه.

الزميل الدكتور سليمان إلياس أراد من خلال هذا الجهد الذي أنفق فيه الكثير من وقته أن يُشركَ قارئ العربية رحلة المؤلِّف الممتعة والغنية للاطلاع على معلومات قيّمة عن تاريخ وحضارة شعوب الشرق القديمة، ومرجعاً مهماً يضاف إلى مكتبة الدراسات الشرق القديمة، من حيث احتوائه على جوانب من خصوصية الشعوب التي عاشت في هذه البقعة من الأرض. ولم يبق من إرثها سوى تلك الهياكل الحجرية وغيرها من المخلفات التي تعطينا صورة عن طبيعة حياتهم، وأسلوب تدبيرهم لشؤون حياتهم، وبتعبير آخر البناء الاجتماعي والاقتصادي لديهم.

اتمنى أن أكون قد وفقت في تقديم إطار اللوحة التي تسهم في الإضافة التي تليق بجهد كلّ من المؤلِّف والمترجم ممن تطوعوا لتقديم أخبار ومعلومات جداً مفيدة عن أولئك الذين تفصلنا عنهم آلاف السنين، ولا تزال أعمالهم موضع إعجاب وذهول الزائرين.

حسن جنكو

مقدمة المترجم

تعدّ منطقة بلاد الرافدين من أهم المناطق والجغرافيات الموجودة في العالم من الناحية الأثرية، وكذلك هي الأكثر تعقيداً من الناحية الاثنوغرافية؛ كون بلاد الرافدين كانت مسرحاً لأحداث تاريخية، وضعت الحضارة البشرية على سكّتها التي نراها اليوم، وأدت دوراً رئيسياً في وضع حجر الأساس لجميع مجالات الحياة من دينية، وثقافية، واقتصادية، وسياسية، وكذلك في مجالي الفلك والرياضيات.

لذا نرى بأن جميع المؤسسات العلمية في العالم والتي تعنى بعلم الآثار والتاريخ تحاول العمل في المنطقة لعلى وعسى أن تدخل تاريخ البحث الأثري العالمي من أوسع أبوابها. وقد بدأت الأعمال الأولى للبحث والتنقيب الأثري في بلاد الرافدين منذ بداية القرن التاسع عشر تقريباً، ولكن الأعمال على الأغلب كانت غير منهجية، والغاية الرئيسية منها كان جمع أكثر كمية ممكنة من اللقى والتحف الأثرية، وأخذها إلى بلدانهم – وأغلب من قاموا بأعمال التنقيب كانوا أشخاصاً غير مختصين، وكانوا عبارة عن ضباط أو دبلوماسيين أوربيين، وكانت السلطنة العثمانية تريد كسب ودهم، ونتيجة لذلك نرى بأن أكثر اللقى والمكتشفات الهامة موجودة في متاحف تلك البلدان مثل فرنسا، وبريطانيا، وألمانيا.

ولكن بدءاً من النصف الثاني من القرن العشرين بدأت البعثات الأثرية بأعمال تنقيب منهجية، ومع ظهور الدول الوطنية المستقلة أصبحت أعمال البعثات الأثرية الأجنبية ترضخ لقوانين وأنظمة، ولا تستطيع البعثات الأثرية أخذ أي شيء من اللقى الأثرية، ولها فقط الحق العلمي لطبع والنشر.

البعثة السوفيتية مقارنة مع البعثات الأوربية أتت متأخرة إلى منطقة وادي الرافدين، وكان ذلك في نهاية ستينيات القرن المنصرم، بعد استطلاع أثري لعدد من المواقع والتلال الأثرية.

أخيراً وقع اختيارهم على ثلاثة من التلال القريبة إلى بعضها البعض على جانبي وادي العبرة في منطقة سنجار، ليس بعيداً عن بلدة تل أعفر(حوالي ١٠ كم)، وبدأت البعثة أعمالها الأثرية عام ١٩٦٩م، برئاسة الأستاذ الدكتور رؤوف منجانييف، ومجموعة من علماء الآثار السوفييت، مثل نيكولاي ميربيرت، والمستشرق بلشكوف، ونيكولاي **بدر**، وكوزا، وباشيلوف، ومؤلف الكتاب فاليري غولاييف، والسائق موسى يونسوف، وتابعت البعثة أعمالها حتى عام ١٩٨٤م، وقد توقف العمل بسبب حرب الخليج التي بدأت سنة ١٩٨٠م بين العراق وإيران. وهذا الكتاب هو عبارة عن انطباعات المؤلف عن العراق، وعن أعمال التنقيب، وعلاقات البعثة مع السكان المحليين، والسلطات الأثرية، وكذلك البعثات الأجنبية الآخرى العاملة في العراق آنذاك. والمؤلف يتحدث هنا عن جميع المواقع الأثرية المشهورة في العراق، والتي قام بزيارتها مع أعضاء البعثة، بطرية شيقة وممتعة، بحث يستفيد منها القارئ العادي، وكذلك طلاب الآثار والمختصون، وهذه كانت من إحدى الأسباب التي دفعتني إلى القيام بترجمتها.

لقائي الأول مع المؤلف كان عام ١٩٩٩م في معهد الآثار الذي بدأت دراسة الدكتوراه فيه، وقد أهداني المؤلف نسخة من الكتاب" في بلاد الحضارات الأولى "، عندها عرضت على الدكتور فاليري غولاييف فكرة القيام بترجمته، وقد أبدى بدوره عن سعادته بالفكرة.

ولكن انشغالي بدراستي وإعداد رسالة الدكتوراه حتى تخرجي عام ٢٠٠٣م، وبعدها عملي في المديرية العامة للآثار والمتاحف بصفة خبير آثاري في شعبة آثار القامشلي، وكذلك تأسيسي للبعثة الوطنية للتنقيب عن الآثار في موقع تل شعير الآثري، كل هذا أدى إلى تأخري في ترجمة الكتاب من عام ١٩٩٩ إلى ٢٠١٨م.

الكتاب غني بالمعلومات، وبأسلوب سردي جميل، وكما ذكرت آنفاً هو موجه للقارئ العادي والمختص والطلاب في الوقت نفسه، وأرجو أن أكون قد وفقت في ترجمتي هذه.

القامشلي ٢٠١٨/٤/٢

د. سليمان إلياس

في بلاد الحضارات الأولى

المقدمة:

كانت زيارتي الأولى للعراق في نيسان ١٩٧٠م، في الوقت الذي كان قد مضى على وجود رفاقي من أعضاء البعثة أكثر من شهر، وهم يعملون في أحد المواقع الأثرية العائدة إلى فترة الثقافات الزراعية البدائية في سهول سنجار شمال العراق.

ولكي استطيع اللحاق بهم كان عليّ قطع نصف مساحة العراق تقريباً؛ من العاصمة بغداد إلى الحدود السورية. وها هي إحدى صباحات نيسان الصافية على أبواب الفندق البغدادي الهادئ (أوبرا) الذي مضى على وجودي فيه يومان، وأنا أنتظر أنباء عن زملائي. توقفت الشاحنة، وكان صندوقها الخلفي مملوءاً، وفي مقدمة الشاحنة، وراء المقود، استقر سائق البعثة «ميشا يونوسوف» معتمراً قبّعةً مائلة بخفة، إلى جانبه رئيس البعثة السوفيتية رؤوف محمّد و»فيج منجاييف» الحيوي، الذي كانت أشعة شمس العراق اللاهبة قد لوّحت بشرته.

وضعوني بسرعة مع حقائبي في صندوق الشاحنة نوع (غاز ٥٣)، عندها بدأت رحلتي في قطع نصف مساحة العراق. بإمكاني القول إنّ هذا الوضع الذي هُيّء لي في صندوق الشاحنة كان ملكيّاً؛ كانت الشاحنة مليئة بالأثاث القديم الذي استغنت عنه إحدى المؤسسات السوفيتية في بغداد، حيث قدموها بكل سخاء، لاستخدامه في مقر البعثة (كراسٍ وطاولات وكنبات...).

أخذت مكاني في كرسيٍّ مريحٍ ذي نوابض ناعمة، وعلى صخب عاصمة العراق التي بدأت الاستيقاظ، كنت أحاول أثناء المسير أن أشاهد أي أثرٍ متبقٍّ من زمن هارون الرشيد، أو أي بطلٍ من حكايات ألف لية وليلة، لكن بغداد بضجيج شوارعها الحديثة، والسيارات العصرية، وحدائقها، قليلاً ما كانت تذكّرني بمدينة الخلفاء.

لكن هذه الصورة تغيرت فقط عندما أصبحنا خارج المدينة، حيث السلطة هنا لإله التاريخ (كليو). كان الشريط الإسفلتي الواسع يمتدُّ تحت عجلات السيارة، ومن بعيد تبدو خضرة النخيل القاسية، ومكعبات طينية صفراء؛ هي قرى متفرقة على جانبي الطريق، والدخان الكثيف يخرج من الأنابيب المربعة لمعامل القرميد الصغيرة.

وعلى طول المسافة لا يسود سوى اللون الأصفر الصحراوي؛ لا نبات ولا أشجار، ولكن المنظر العام على طرفي الطريق تغيّر فيما بعد؛ إذ بدت تظهر أضرحة أولياء المسلمين، وأطلال المدن والقلاع والمستوطنات القديمة، حتى بالنسبة لعلماء الآثار، فهكذا رحلة ليست حالة اعتيادية. بعد أن قطعتُ الخمسمائة كيلو متر، التي تفصل بغداد عن تل أعفر، ولجتُ، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، عمق آلاف السنين من تاريخ البلاد؛ كانت كسر الفخار الزرقاء الفاتحة العائدة إلى القرون الوسطى (القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) تنتشر على سطح الأرض والمنعطفات الصغيرة، التي تعتبر هامةً بالنسبة لنا نحن الأوربيين، ولكنها في سياق التاريخ العراقي تعتبر فترة قصيرة من المراحل الحضارية التي مرت بها البلاد. وتحت سويات العصور الإسلامية تتوضع عدد من السويات التي تعود إلى فترات موغلة في القدم، والتي تعاقبت على أرض العراق، وللعلم، فقط في العراق توجد اثنتان من عجائب الدنيا السبع، وهي حدائق سميرأميس المعلقة وبرج

بابل، كما تلاطمت هنا على هذه الأرض في يوم من الأيام أمواج الطوفان العظيم.

أطلق الإغريق اسم «ميزوبوتاميا» على هذه البلاد، التي تعني نفس معنى اسمها الحالي (الأرض التي تقع على الضفتين)، ومنذ القدم كانت الحياة ممكنة فقط بالقرب من النهرين الآسيويين العظيمين دجلة والفرات؛ بسبب أشعة الشمس اللاهبة، حيث أننا نجد بعد الشريط الأخضر المحاط بالنهرين مئات الكيلومترات من الصحراء، وبعض الهضاب الصخرية التي أصفرّت من الحرارة المرتفعة، كما أن السهول المحيطة والمكوَّنة من طمي النهرين ستعطي إنتاجاً وفيراً من القمح والشعير إذا ما تم الاعتناء بها كما يجب، وهو ما أدى إلى ظهور إحدى أعظم الحضارات في بلاد الرافدين، في نهاية الألف الرابع (سومر)، التي لم تكن أقل عظمةً وقدرةً من الحضارة المصرية في عصر الفراعنة، ومنذ ذلك الوقت أصبحت بلاد الرافدين مسرحاً لأكثر أحداث التاريخ دراماتيكيّةً.

يقول المؤرخ الألماني تسيرون: «نحن نعرف اليوم بأن هذه الأرض تخفي بين ثناياها أقدم الحضارات التي أسسها الإنسان، وهنا يقع مهد حضاراتنا؛ مهد الابتكارات والمعتقدات الدينية».

كانت بلاد الرافدين، على مدى قرون عديدة، مركزاً للحضارة القديمة، وكان ملوكها يُملون إرادتهم على الشعوب المجاورة، وترك حكماؤها الأعمال الأدبية الخالدة عن الإنسان ومعتقداته، وهم أنفسهم من وضعوا الأساس الذي ارتكز عليه العهد القديم.

وبنى بنّاؤوها وفنانوها المبدعون المعابد العظيمة و القلاع المحصنة، ودرس الكهنة والمنجمون المجموعة الشمسية والقبة الفلكية الجنوبية، وتعرفوا على أسرار الكون. إلى أن جاء الإسكندرالمقدوني وقضى على

عظمة وقوة مستبدي الشرق، مبرهناً بذلك على القوة الصاعدة في أوربا القديمة.

وهكذا رأينا ظهور واندثار الإمبراطوريات، وتعاقب السلالات الحاكمة من الملوك، وإبادة سكان مدن وممالك، من الوجود تحت سيوف الغزاة بالكامل.

ولكن المكتسبات الحضارية الراقية لشعوب بلاد الرافدين لم تندثر؛ حيث تناقلتها الأجيال من عصر إلى آخر. ومن سخرية القدر أن الإغريق في آسيا الصغرى دمروا وقضوا على من ساندهم في الماضي (ورثة الحضارة السومرية العظيمة)، فالسومريون ورّثوا بابل وأكاد، ومن بعدهم الأشوريون المحاربون والبارثيون والفرس واليونان والرومان والعرب، كل هؤلاء، بشكل أو بآخر، هم ورثة حضارة بلاد الرافدين. يقول عالم الآثار الإنكليزي ليونارد وولي: «ازدهرت حضارة بلاد الرافدين عندما كان العالم في الحالة الهمجية، مضى ذلك الوقت الذي كان فيه كان العلماء يبحثون عن بداية كل أنواع وأشكال الفنون في اليونان، وكانوا يظنون أن اليونان ظهرت كما هي عليه بشكلٍ مباشر، ولكن الآن أصبحنا نعرف من أيّ نبعٍ ارتوت هذه الزهرة الرائعة، ومن أين استمدت بهاءها؛ إنها من رحيق الميديين والحثيين والفينيقيين والكريتيين والبابليين والآشوريين، ولكن جذورهم تذهب بعيداً حيث تقف وراءهم جميعاً (سومر).

نعود إلى القرن العشرين، الشمس ارتفعت في السماء، وأصبحت تلهب الرأس والأكتاف، حسب الوقت كان من المفترض أن نكون قد قطعنا مسافة لا تقل عن مئة كيلو متر، والمكان هو كما كان عليه في السابق؛ مستوٍ ومملّ، وفجأة لاح لنا بشكلٍ أشبه بالسراب شريطٌ نباتي وبيوت ذات لونٍ رصاصيٍّ فاتح، وقبة صفراء ضخمة؛ «سامراء الحلم الذهبي»، صرخ باتجاهي السائق «ميشا» مخرجاً كامل جذعه تقريباً من نافذة الشاحنة.

نعم إنها سامراء عاصمة الخلفاء العباسيين المشهورة على مدى ستة وخمسين عاماً، عندما نقلوا مركز ملكهم إليها، هرباً من بغداد المزدحمة، وغير المستقرة . لم نمر من مركز المدينة، حيث التفّت الشاحنة يساراً باتجاه السد البيتوني على نهر دجلة، ومن موقعي المرتفع كنت أستطيع أن أرى بشكل واضح الزخارف الزرقاء والقبة الذهبية لجامع الرياض العسكرية (حيث أضرحة أئمة الشيعة)، والمنارة الملوية، التي يبلغ ارتفاعها خمسين متراً. عبرنا السد، ومن حولي من جديد الشمس الحارقة، وهدير الشاحنة، والمنظر السابق ذاته، قليلاً ما تمر بنا سيارات، وإن مرت فهي عبارة عن حافلات مزركشة، وشاحنات عسكرية، و»تكاسي» أجرة.

على يسار الطريق كانت تمتدّ الأطلال المهيبة لقلعة (قصر العشاق)، وهي قلعة تم بناؤها من قبل الخليفة العباسي المعتمد، نهاية القرن التاسع الميلادي، حيث لم يُقِم فيها سوى عامين فقط، عاد بعدها إلى بغداد.

على جانبي الطريق، بدأت التضاريس تتغير بشكل تدريجي، وبدأنا نشاهد المرتفعات والهضاب. توقفنا في قرية كبيرة اسمها «بيجي»، وكان المسافرون والسائقون عادة ما يتوقفون للاستراحة والأكل في المطاعم الصغيرة المنتشرة فيها، وعلى ما يبدو أنّه ثمة تقاطع منطقتين مناخيّتين في «بيجي»، لأنّ ذلك واضحٌ من الطقس السائد فيها.

بدأت التلال الأثرية تزداد عدداً، وأصبحنا نرى الخضرة على سفوح المناطق المرتفعة والأراضي المزروعة بالقمح والشعير، وهذا يدل على أن الهطولات المطرية تكفي لممارسة الزراعة البعلية، وعلى اليمين يظهر من بعيد خط أخضر متعرج، وهو الجزء المرتفع من نهر دجلة.

أشاهدُ على طريقٍ فرعيةٍ لوحة مكتوبٌ عليها بالإنكليزية والعربية (شركة) ١٢٠كم، شركة هي بلدة عربية معاصرة تقع مباشرة عند سفح أطلال أسوار آشور المرتفعة، العاصمة الأولى للدولة الآشورية العظيمة، ثم

على بعد عشرة كيلو مترات على يسار الطريق أرى طريقاً فرعياً يؤدي إلى مدينة الحضر، التي كانت، في يوم من الأيام، المركز التجاري والثقافي في شمال بلاد الرافدين، وملتقى التأثيرات الحضارية من الشرق والغرب والشمال والجنوب؛ المكان الذي كان يؤمه التجار القادمون من الهند البعيدة وإيران، ومن سواحل المتوسط والخليج العربي، لبيع سلعهم في أسواقها المزدهرة.

في المساء، قبل غروب الشمس، عندما أصبحت شاحنتنا تصعدُ بصعوبة هضبة صخرية، شاهدت منظراً لا يُمكن نسيانه؛ خلالَ أشعة الشمس المائلة إلى الغرب والدخان المتصاعد، لاح عددٌ لا يُحصى من المنازل ذات الطابق الواحد والطابقين، وفوقها ترتفع قبب المساجد ذات اللون الأزرق الفاتح، وذرى المآذن التي تعانق السماء، والخضرة الناصعة للحدائق والبساتين التي تفوح منها رائحة الجوري، والصخب الشرقي في الشوارع، وصفوف بلا حدود من المطاعم الصغيرة والمحلات التجارية، ويمنحك هذا المشهد شعوراً احتفالياً لا نهائياً أو كرنفالياً. كانت هذه هي الموصل (العاصمة الثانية للعراق)، وأم الربيعين، كما يسميها سكانها بسبب مناخها الجيد؛ ولا سيما في الربيع والخريف، و ذكّرتنا الرائحة الشهية للحم المشوي (تقّي) والشرحات والحساء، بأنّنا لم نتناول الطعام في بيجي منذ وقتٍ بعيد، لذلك كان علينا أن نتوقف لتناول العشاء.

أوقفنا شاحنتنا بالقرب من بناء جميل، هو متحف الموصل، الذي كان محاطاً بحديقة جميلة مليئة بالورود، وخاصة الجوري، ثم توجهنا إلى أحد المطاعم الصغيرة، وكنا قد تأخرنا في العودة، فقد غربت الشمس، حيث أضيئت الأنوار وأصبحت حركة الناس أكثر كثافة في الشوارع. وعند العودة، رجعنا من أحد موصل الضيقة والمتسخة بعض الشيء، فقال رؤوف منجاييف رئيس البعثة: «ليس لدينا متسعٌ من الوقت اليوم للوصول إلى

المخيم، يجب أن نقضي الليل في نينوى»، أجاب «ميشا» من دون اكتراث: «في نينوى في نينوى». في البداية لم أفهم ما يعنون، فنحن الآثاريون أناس عمليون، قضينا كثيراً من الوقت في البعثات الأثرية، وتعودنا على كل شيء، ولكن لماذا علينا أن نترك المدينة الحية والمرحة والمنارة، والذهاب إلى خرائب عاصمة آشور، حيث تهب الرياح، والنوم بين أطلالها ومدافنها القديمة.

«نينوى التي نقّب فيها الإنكليزي «ليارد» في القرن التاسع عشر»؟ سألت بتردد مديرنا الصموت، وكنت آمل في أعماق نفسي، بأن يكون الاسم لمدينة أخرى معاصرة، غير أختها المشهورة في التاريخ، فأجاب «رؤوف محمّدو فيج» دون تردد «بأنها هي نفسها»، وفتح باب الشاحنة، حيث أخذتُ مكاني بين الأثاث القديم، والأفكار القاتمة تراودني، مهيئاً نفسي للرحلة الطويلة.

عرّج «ميشا» بخفة بالساحة المركزية في المدينة، قاطعاً الجسر الذي تزينه الأضواء على نهر دجلة الواسع والغزير.

دخلنا إلى عالم آخر بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ أمامنا وعلى يمين الطريق العريض تنتشر القرى على التلة العالية، وبالكاد يمكن مشاهدتها، بسبب الظلمة المسائية المتسارعة، ثمة أيضاً عدد من الأبنية القديمة التي تعلوها المنارة الرفيعة لمسجد النبي يونس، وعلى يسارها يلوحُ جدارٌ يبدو وكأنه شريط طيني مائل للحمرة، وكانت الأضواء توضح معالم الجدار الرائعة؛ كان ارتفاعه يتراوح ما بين عشرة و خمسة عشر متراً، وكان مطلياً بملاطٍ طيني يخفي في الظلمة الداكنة شيئا سرياً، «إنه سور نينوى، المكان الذي سوف نقضي فيه ليلتنا»، خمّنت ذلك ولكن بعد شيء من التأخير.

لكننا أكملنا المسير إلى الأمام. السور الطيني القديم لا ينتهي، وعلى اليسار أضواء نوافذ البيوت الفخمة لصفوة الموصليين، التي تحيط بها الحدائق والبساتين من كل الجوانب، ويميناً لم ينته بعد سور نينوى على الرغم من أننا قطعنا مسافة كبيرة.

أخيراً، التفّت الشاحنة إلى اليمين، وصعدت بصعوبةٍ مرتفعاً صغيراً، ودخلتُ المستوطنة القديمة، حيث ظهرت حديقة رائعة محاطة بأعمدة حجرية، وفي العمق رأيت بناءً مربعاً من الطين، وباحة مرصوفة بالحجارة الصغيرة، ومظلات من أجل ركن السيارات. وخرج من المحرس رجل عربي نحيفٌ وطويل، يرتدي معطفاً بنيّاً طويلاً، حاملاً وسيلة إنارة، «وكأنه خفاش طائر»، نظر إلى الشاحنة والركاب بتمعّن، وابتسم ابتسامة خفيفة، وقام بحركة إيمائية «تفضلوا»، عندها تأكدت بأننا لن ننام بين المدافن والتلال.

كان أعضاء مقر البعثة العراقية للآثار، التي تعمل بشكل مستمر طوال السنة في نينوى، موجودين في المدينة، لكن الحارس سمح لنا بأن نقضي ليلتنا في مقر البعثة. وجدت نفسي بعد نصف ساعة، وأنا منهك من السفر والانطباعات الجميلة، في غرفة لوحدي، ممدداً على سرير حديدي مريح، ملتحفاً بطانية صوفية جديدة، «ياريم تبه»، بعد غياب طويل.

استيقظتُ على صوت المؤذن، (يبدو أنه يوجد جامع قريب من مقر البعثة العراقية في نينوى)، تمتمتُ لنفسي قائلاً: ها أنا ذا في العراق، في بلاد الرافدين القديمة؛ خرائب نينوى عاصمة آشور، التي لعنها الإنجيل.

منذ ذلك الوقت على مدار عشر سنوات (١٩٧١حتى١٩٨٠)، كنت أسافر كلّ ربيعٍ إلى العراق، ضمن أعضاء البعثة السوفيتية التي كانت تعمل في أحد المواقع الأثرية في سهول سنجار. ما عدا ذلك كنت استغل أية

فرصة تسنحُ لنا بالتجوّل وزيارة المواقع الأثرية المشهورة عالمياً، والتي تعج بها أرض العراق؛ هذه الذكريات الجميلة جعلتها أساساً لهذا الكتاب.

في الحقيقة لم أفكر في خوض تأليف كتاب كهذا، بسبب ما يحمله ذلك من مسؤولية، ولأنه كان في البعثة من هم أقدر وأكثر خبرة مني، مثل رئيس البعثة رؤوف محمّد وفيج منجاييف، ونيكولاي ياكوفلوفيج ميربيرت، وآوليغ غريغوريفيج بلشكوف، ونيكولاي أوتوفيج بدر؛ كلهم كانوا أفضل مني لخوض هكذا مسألة بدون أدنى شكّ.

ولكن السنين تمضي وتُمحي من الذاكرة كثيراً من الذكريات الجميلة من حياتنا في العراق. مع الأسف لا يوجد الآن بيننا رفيقان عزيزان كانا فعّالين في البعثة، هما بيوتريديمتريفيج دارفسكيخ و آندري فاسيلييفج كوزا، ولا أحد من العارفين والأكثر خبرة مني حمل القلم لكتابة تلك الذكريات، عدا عن عدد كبير من الأعمال العلمية الأثرية التي قمنا بها في شمال العراق، ضمن أعمال البعثة المنشورة مثل «المستوطنات الزراعية البدائية في شمال بلاد الرافدين» التي كتبها «م.منجاييف» و«ن.ي. ميربيرت» سنة ١٩٨١م، و»المزارعين الأوائل في شمال بلاد الرافدين» سنة ١٩٨٩م لـ «نيكولاي بدر»؛ هذه الأعمال تم طبعها في الاتحاد السوفياتي وخارجه مثل (إنكلترا وأمريكا والعراق)، كما نُشر مقالٌ أو مقالان صغيران عن العمل في العراق في السبعينات. هذا كل ما كُتب (أي المقالان فقط) عن البعثة من أجل القرّاء العاديين أوغير المختصين.ولذلك وجدت أنّ التمهل والإبطاء في تسليط الضوء هذا الجانب من حياتنا في العراق ليس له مبرر، فأخذت على عاتقي هذه المهمة الصعبة، وهي كتابة انطباعاتي عن العراق وآثاره، والذين يقومون بتحليل هذه الآثار ودراستها.

أن ما سيُذكر في هذا الكتاب هو تقييم شخصيٌّ صرف، لذا سوف أتحدث عن أبحاث البعثة السوفيتية الأثرية في العراق، وقد اعتمدتُ بالدرجة الأولى

على المواد التي تم اكتشافها في موقع ياريم تبه٢، العائد إلى الفترة الحلفية، لأنني عملت أغلب الوقت في هذا الموقع من عام ١٩٧٠حتى ١٩٧٩.

أما المواقع الأخرى التي عملت فيها البعثة في سهول سنجار ياريم تبه١ العائد إلى الفترة الحسونية، وتل سوتو العائد إلى فترات ما قبل حسونة، وتل المغزلية العائد إلى فترات ما قبل الفخار في الألف الثامن والسابع قبل الميلاد، هي أكثر أهمية، من الناحية العلمية والقِدَم التاريخي، من الموقع الحلفي ياريم تبه٢ الذي عملت فيه؛ لذا سوف أترك الحديث عنها لمن عمل فيها بشكل دائم ويحيط بجميع التفاصيل المتعلقة بها.

سوف يدعي الكتاب بأنه نفذ مهمته على أكمل وجه، إذا استطاع أن يجعل القارئ يشعر بنفس شعور المؤلف تجاه زملائه في البعثة من حب واحترام.

في روايته «من أجل أولئك الذين في التيه» يقول فلاديمير سانين عن علماء السوفييت في القطب الشمالي: «في أيامنا هذه، عندما ينحو الإنسان باتجاه الراحة والنعومة والحياة المستقرة، هؤلاء الناس مثل الذين سبقوهم من عصر الاكتشافات الجغرافية العظيمة، يصارعون وحدهم أقسى الظواهر الطبيعية على الأرض، تبقى حياتهم في الظل مقارنة بأصحاب الاختصاصات الأكثر حظوةً، ولكن هؤلاء الناس يعدون المكافأة العظيمة لهم، وهي اعتراف زملائهم بنتائج عملهم المتعب».

وأنا أعتقد بأن هذه الكلمات الجميلة تنطبق على زملائي في البعثة السوفيتية الأولى في العراق.

الجـــزء الأول

العلماء الروس في العراق

الفصل الأول

هكذا تبدأ البعثة:

أرشيف آلاف السنين

على متن الطائرة يمكنك أن تلاحظ على سطح الأرض الأصفر، آلافاً من الأكوام الاصطناعية الكبيرة والصغيرة (التلال)، وهي عبارة عن أرشيف آلاف السنين الذي لا يقدر بثمن، و كانت هذه التلال، في يوم من الأيام، تضجّ بالسكان على أرض بلاد الرافدين.

كل تل من هذه التلال يخفي بين ثناياه بقايا قرى ومدن لشعوب وفترات مختلفة، وقد أوصلت إلينا الألواح الطينية باللغات القديمة أسماء بعض تلك القرى والمدن والممالك القديمة، مثل: أور، وأوروك، ولكاش، وبابل، ونمرود ونينوى.

ولكن كيف تتشكل التلال؟ ولماذا يمكننا أن نجد في داخلها بقايا عدد من المدن والمستوطنات القديمة ؟ هذا هو السؤال الذي يطرح على علماء الآثار وبشكل دائم في العراق.

في العراق، كما في جميع أنحاء الشرق الأوسط بشكل عام، غالباً ما كان الإنسان يبني بيته في المناطق السهلية المستوية، التي كانت معرضة للدمار في أي لحظة، بسبب فيضان الأنهار والسيول الجارفة التي كانت تأتي من الجبال القريبة، ولكي يستطيع الإنسان حماية نفسه من ذلك الخطر، كان

يبحث عن أماكن مرتفعة، ويبني منزله فوقها (وهي عادة المستوطنات الأقدم التي أفِلت قبله، وأصبحت تلالاً) أو كان يضع مصاطب طينية مرتفعة تحت أساسات المنازل.

هكذا بدأت التلال، يقول عالم الآثار الأمريكي ي. كيرا: «كانت البيوت تبنى من اللبن الطيني المجفف تحت أشعة الشمس، ويتم طليه بطبقة طينية (التطيين أو السياع)، ويوضع القش على السقف ليمنع نفاذ مياه الأمطار من خلاله، وكان يتم ترميمه كل سنة قبل بداية موسم الأمطار (فصل الشتاء)، ولكن كل الطين المتساقط والذي يتم إزالته عن السقف والجدران كان يبقى في المنطقة المجاورة للبيوت وفي شوارع المستوطنة؛ لذا وبشكل طبيعي كان يرتفع مستوى الشارع مع مرور السنين. وقديماً لم يكن يتم رمي المخلفات الناتجة عن عمليات البناء أو الترميم، مثل الطين والمواد الأخرى، بعيداً عن المنزل، وإنما كان يتم رميها بجواره، ولم تكن البيوت الطينية قابلة للسُّكنى لسنوات طويلة، بسبب تطبق وانخفاض الجدران، وتكون عملية الترميم والصيانة في هذه الحالات مكلفة ومُجهدة أكثر من عملية بناء وتشييد بيت جديد مكان القديم، وهكذا، شيئاً فشيئاً يرتفع مستوى الشارع .

ونادراً ما كانت الحوادث المفاجئة تؤدي إلى إسراع هذه العملية، فنشوب حريق كبير ليلاً قد يؤدي إلى القضاء على نصف أحياء المستوطنة أو المدينة القديمة، أو قد يتم تدميرها من قبل جهة معادية، وإعادة بنائها من جديد قد يكون بعد سنة أو عدة سنوات، وهكذا تبقى المستوطنة مهجورة لفترة قد تطول أو تقصر، ثم يعاد بناؤها من قبل السكان القادمين أو الوافدين الجدد.

وفي العموم، فإن الطبقات المتوضعة فوق بعضها البعض نتيجة الأسباب التي سبق ذكرها، تزداد ارتفاعاً، وبذلك يزداد ارتفاع التل، وكلما كان التل قديماً فإن بقاياه الأثرية تكون أكثر، نتيجة صخب القرون وآلاف

السنين الماضية. ولكن الدراسات الأثرية، والاهتمام ببلاد الرافدين التي يعتبرها الجميع مهد الحضارة الإنسانية، مازالت قليلةً.

بدأت منذُ منتصف القرن التاسع عشر أعمال التنقيب والبحث الأثري في العراق من قبل الإنكليز والفرنسيين والألمان، وانضم إليهم فيما بعد علماء آثار أمريكيين وطليان ويابانيين، تلاهم المختصون العراقيون الذين قاموا بأعمال بحثية واسعة منذ ستينات القرن المنصرم.

لم يقم الروس بالتنقيبات الأثرية في العراق (بلاد الرقيمات الطينية)، مع العلم أن المؤرخ الأمريكي المشهور س.كرامير كتب عام ١٩٦٥م أنّ لدى الروس مدرسة علمية رائعة لدراسة الرقيمات الطينية القديمة.

بالفعل توجد في بلادنا مدرسة علمية مشهورة على صعيد العالم في مجال الاستشراق، مثل مجف. نيكولسكي، ف.س.غالينيشيف، بزا توريف، ف.ك. شيليكو، وهذه فقط بعض الأسماء من جملة العلماء الروس.

و من المعلوم أنه لم يقم أي عالم روسي بأعمال التنقيب في بلاد الرافدين، لكن الوضع تغير بعد سنة ١٩٦٩م عندما قامت بعثة سوفيتية بأعمال تنقيب في بلاد الرافدين، بموجب اتفاقية أبرمت بين أكاديمية العلوم الروسية والمديرية العامة للآثار والمتاحف العراقية.

لماذا ننقّب في العراق؟

في حقيقة الأمر لقد حاولت في الصفحات السابقة الإجابة، بشكل عام، عن هذا السؤال، واستطيع الاستشهاد مرة أخرى بـ ي. كاري حيث قال: «نحن ننقب بسبب قِدم البلاد، ولأنّ شعوباً وحضاراتٍ مزدهرة ومختلفة كانت هنا في يوم من الأيام، ومن أجل الرقيمات الكتابية البابلية».

هنا في العراق ظهرت الحضارات والمدن الأولى، وفي هذه البلاد اكتشف الإنسان الكتابة التي كانت على شكل رموز وإشارات مرسومة بواسطة أدوات خشبية حادة الرأس على شكل مسمار، على ألواح طينية كان يتم تجفيفها بالنار فيما بعد، وهذه الألواح الطينية (الرقيمات) هي بمثابة كتابٍ خالدٍ من الناحية العملية، على عكس الكتاب العادي الذي يفسد حتى بالماء، أما الرقيمات لا تفسد تحت التراب.

يعثر علماء الآثار على هذه الرقيمات أثناء التنقيبات في المدن والمستوطنات القديمة، ومن ثم يقوم المؤرخون وعلماء اللغة بدراستها في المكاتب الهادئة ومستودعات المتاحف، ويعتمد تاريخ الشرق الأدنى على المعلومات التي يتم الوصول إليها من خلال النصوص المكتوبة على هذه الرقيمات.

ثمة أمرٌ هامٌ آخر، وهو أننا نحن أصحاب وحمَلة الثقافة الأوربية، علينا أن نتذكر ونعلم أن آلاف الخيوط من الترابط الثقافي المتين تربطنا بالعادات والتقاليد الثقافية مع ميزوبوتاميا القديمة، ودراسة وبحث هذه الحضارة وتقاليدها ليس من حقنا وحسب، بل هو واجب علينا. يقول المؤرخ الروسي م.ف.نيكولسكي « نحن تعودنا عدم مناقشة من أين أتت أيام الأسبوع، وأشهر السنة أوالستون دقيقة في الساعة أو الستون ثانية في الدقيقة، فهذه الوحدات القياسية هي ليست من صنع ثقافتنا، بل تعود جذورها إلى بابل القديمة».

يلفظ الفرنسيون والإنكليز بشكل عفوي أسماء أيام الأسبوع دون أن يساورهم الشكّ في أنها ترجمة حرفية للمفردات والمعاني البابلية القديمة. ويتعلم مئات الآلاف من التلاميذ في المدارس تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة، ويقيسون درجات الزوايا، ولم يسأل أو يستفسر أحد ما يوماً، لماذا لا نقسم الدائرة إلى ١٠٠ درجة أو ١٠٠٠ درجة بالنظام العشري بدلاً عن هذا

التقسيم الغريب لها؟ لم يفكر عالم من علماء الرياضيات يوماً بضرورة إجراء هذا الإصلاح، لأن كل علوم الهندسة مبنية على أساس هذا التقسيم، ولا نستطيع الاستغناء عنه، مثلما لا نستطيع الاستغناء عن تقسيم اليوم إلى ٢٤ ساعة أو الساعة إلى ٦٠ دقيقة.

إننا نقول عن الإنسان المحظوظ حتى يومنا هذا بأنه «ولد تحت نجمة محظوظة»، كما يوجد أناس يؤمنون بأن مصير الإنسان يمكن معرفته بواسطة الأبراج الفلكية. قبل مئتي عام، كان العلماء يعتقدون بأن الأسترلوجيا (التنجيم) هي من العلوم الدقيقة، وبلد التنجيم هي نفسها بابل، والمنجمون البابليون هم من وضعوا الأساس لهذا العلم.

ولادة العلــم:

كان الإنسان المفكر متشوقاً لمعرفة ماضيه دائماً، وعلم الآثار هو علمٌ يدرس تاريخ المجتمعات البشرية من خلال المواقع التي ترك الإنسان فيها مخلفاته المادية. كانت معرفتنا عن ملوك الآشوريين القساة حتى بداية القرن التاسع عشر تقتصر على ما تم ذكره في العهد القديم. كما أنّ اليونانيين والرومان تركوا في ذاكرة الأجيال المتلاحقة، في فترة العصور القديمة في أوربا، آثاراً ومعلومات قيمة وصلتنا من خلال مصادرهم الأولى عن مدن ذات كثافة سكانية عالية، وممالك مزدهرة في الشرق القديم، فقد زار هيرودوت المعروف بـ «أبو التاريخ» بابل في القرن الخامس قبل الميلاد. وعندما وطأ الإسكندر المقدوني أرض غرب آسيا، كان يطمع في أن يجعل بابل الكلدانية، عاصمة لإمبراطوريته المترامية الأطراف، لكن موته المبكر حال دون تحقيق هذا المشروع الجريء.

توغل اليونانيون والرومان في تلك الفترة في جميع أرجاء بلاد الرافدين، وفي رمال شبه الجزيرة العربية والمدن الساحلية للهند، لكنهم لم يجدوا سوى

غروب شمس حضارة بلاد الرافدين، والانعكاس الضعيف لعظمتها المندثرة؛ فهنا في بلاد الرافدين أصبحت المدن المزدهرة، في لمح البصر، خالية تقريباً، بل أصبحت أطلالاً مختبئة بين ثنايا تلال مجهولة.

في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، زار هيرودوت بابل التي كانت غنية و مزدحمة بالسكان، لكنه لم يستطع أن يجد نينوى التي دُمرت سنة ٦١٢ق.م، أي قبل زيارته بمئة وخمسين عاماً، والأكثر من ذلك أنه في سنة ٤٠١ق.م مرّ عشرة آلاف من المرتزقة اليونان بقيادة كسونوفون على بعد خطوات بجانب الأنقاض الضخمة للعاصمة الآشورية ولم يلاحظوها.

وبعد أربعة قرون وصف المؤرخ سترابون بابل بأنها مدينة مهجورة شبه خالية من السكان. وفي العصور الوسطى يعود التطور والازدهار إلى بلاد الرافدين مرة أخرى، وتصبح بغداد مركز الإسلام وعاصمة دولة الخلافة الإسلامية المترامية الأطراف؛ حيث ازدهرت الزراعة والصناعة وكذلك العلوم، وبنيت المدن الجديدة، لكن الغزو المغولي الهمجي في القرن الثالث عشر الميلادي قضى على كل معالم الحضارة للبلاد، فقد تم هدم السدود والبحيرات الصناعية وقنوات الري، ونتيجة لذلك لم يبق مكانٌ فيه حياة، وأصبحت بلاد الرافدين منسية، وغدت تلك المدن الغنية والملوك العظماء والآلهة الرهيبة مجرّد ذكرى ضبابية مشوّشة في ذاكرة الإنسان القصيرة. ومن جديد لعبت الطبيعة دورها في جعل أطلال وخرائب تلك المدن على شكل تلال تحفظ في داخلها سر تلك الفترة الذهبية من تاريخ بلاد الرافدين والشرق القديم.

بقيت القبائل العربية نصف المتنقلة مع قطعان مواشيها مستمرة في التنقل لمئات السنين بين تلال بلاد الرافدين، ولم يكن لهؤلاء البدو أدنى توقع عما تحويه هذه التلال. وأمام أعين هؤلاء البدو أخرج الإنكليزي ليارد تماثيل الآلهة وبقايا القصور من مدينة نمرود، وأبدى أحد الشيوخ المحليين، ويدعى

(عبد الرحمن) استغرابه من هذا المشهد، حيث قال: «أعيش منذ سنين طويلة في هذه البلاد، ونصب أبي وجدي خيامهما هنا، لكنهما لم يسمعا يوماً بهذه الأمور، والحمد لله أنهما، بعد مضيّ إثني عشر، قرناً بقيا مسلمَين، وعلى الرغم من أنهما كانا يتمتعان بالحكمة، إلّا أنّهما لم يسمعا يوماً عن القصور الموجودة تحت الأرض، أوعن الذين عاشوا هنا قبلنا، ولكن انظروا، يأتي رجل غريب يبعد عن بلادنا مسافة عدة أيام، ويتوجه إلى المكان المحدد ويأخذ بيده عصاً ويرسم خطوطاً، واحدة هنا وأخرى هناك قائلاً: هنا قصر وهنا بوابة، وهو الذي يرينا ما كان طوال الوقت موجوداً تحت أقدامنا، ولم نكن نعرف بوجودها، حقاً إنه لأمرٌ يثيرُ الدهشة والتعجّب!».

نعم، علماء الآثار على وجه التحديد، هم من أعادوا إلى العالم تلك الحضارة الشرقية العظيمة المدفونة في الأرض، ففي عام ١٨٤٣م اكتشف الفرنسي «بول إيميل بوتا» بقايا قصر آشوري في «خورس آباد» بالقرب من الموصل، ثم بعد ذلك بسنتين، أظهر هنري ليارد للعالم عاصمتي الآشوريين نينوى ونمرود، وبعد مضي نصف قرن اكتشف القنصل الفرنسي «دي ساريك» آثار الحضارة السومرية في جنوب العراق، وبعد ذلك توالت الاكتشافات، وقد حلّت البعثة الإنكليزية برئاسة «ليونارد ولي» في أور، والبعثة الألمانية في أوروك، وقد تبيّن لنا في نهاية المطاف أنّ المدن السومرية ظهرت حوالي الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد.

يقول س. كرايمر «إنّ الأبحاث الأثرية التي جرت في المئة السنة الأخيرة في الشرق الأوسط اكتشفت كنوز ثقافة مادية وروحية لم يحلم بها جيل من العلماء الذين سبقونا، بفضل ما تركته لنا الحضارات القديمة التي خرجت من تحت الرمال والتراب، ونتيجة فك رموز الكتابات القديمة، توسعت آفاق مداركنا التاريخية لآلاف السنين».

ولكن كلما عرف علماء الآثار عن تاريخ البلاد القديم أكثر، كلما أصبح واضحاً وجلياً وجود أسلاف للمدن السومرية.

لا نعلم بأي لغة تحدثوا أو ما هو انتماؤهم العرقي، فالمعلومات التي وصلتنا شحيحةٌ جداً، وهي بقاياهم الثقافية السالفة التي احتفظت بها الأرض، و قاومت عوامل الزمن؛ مثل أجزاء من الأواني الفخارية المحززة والملونة، وتماثيل الآلهة والأدوات الحجرية وأدوات الزينة، وبقايا الأبنية من اللبن الطيني والخشب. كان هؤلاء أول المزارعين على وجه الأرض، وهم الذين وضعوا اللبنة الأولى في أساس الحضارة البشرية المشرقة؛ هنا تعلم الإنسان للمرة الأولى زراعة القمح وتربية الحيوان والإقامة الدائمة، وتحول الصيادون الأوائل وجامعو القوت، من مستهلكين طبيعيين إلى منتجين في الزراعة وتربية الحيوان.

هذا النوع الجديد من الحياة، أدى إلى الاستقرار وزيادة عدد المستوطنات وتطور الفن والحرف. ومن الصعوبة بمكان الآن معرفة أنه قبل أربعين أو خمسين سنة مضت كانت الكتب والمراجع التاريخية والمجلات العلمية صامتة لا تعرف شيئاً عن عصور ما قبل التاريخ في العراق، وأن سهول بلاد الرافدين في الجنوب والوسط والشمال، تضمُّ أطلال وبقايا مدن كانت مزدهرة في يوم من الأيام. ولكن شيئاً فشيئاً، وبشيءٍ من المشقّة، ومن خلال الأعمال البحثية المتواضعة، من حيث حجم التنقيبات في عدد من المواقع والتلال الأثرية في سورية والعراق حتى خمسينات من القرن الماضي، تمكن العلماء من وضع مخطط تقريبي لفترات ما قبل التاريخ لبلاد الرافدين، والتي كانت على ثلاث مراحل، وحسب العادة المتبعة من قبل علماء الآثار، أخذت كل مرحلة أو حضارة اسم الموقع الذي نُقّب فيه عنها لأول مرة، وهكذا ظهرت المراحل المتعاقبة (ثقافة حسونة في الألف

السادس قبل الميلاد، ثقافة حلف في الألف الخامس قبل الميلاد، ثقافة عبيد في الألف الخامس والألف الرابع قبل الميلاد).

كما أظهرت الأبحاث الأثرية لعالم الآثار الأمريكي «روبرت بريد وود» أقدم المستوطنات الزراعية والرعوية في موقع «جارمو» شمال بلاد الرافدين، في الجبال والمناطق المحاذية لكردستان العراق (زاغروس)، واثبتت اكتشافات «بريد وود» صحة نظرية الأكاديمي ن.ي. فافيلوف القائلة بأنّ بداية المجتمعات الزراعية والرعوية مرتبطة بالجبال والمناطق المحيطة بها. ولا نستغرب توجه علماء الآثار السوفييت إلى الشمال الغربي سنة ١٩٦٨م عندما قدموا إلى العراق من أجل الاستطلاع واختيار موقع للبحث الأثري، كون المنطقة الشمالية لبلاد الرافدين هي المكان الذي أسس الإنسان البدائي فيه الحضارة الزراعية والرعوية الأولى، وأيضاً كون المناطق الشمالية الشرقية خضعت لدراسات موسعة من قبل الأمريكان مثل «بريد وود» وغيره، لذا توجه علماؤنا برفقة الزملاء الإنكليز والعراقيين إلى الشمال الغربي بحثاً عن «السعادة» في سهول سنجار.

تلال سهول سنجار:

في آذار عندما يكون الجو صافياً ونقياً، ولا سيّما بعد هطول الأمطار، فإنّك تكون أمام منظرٍ خلّابٍ رائعٍ، عند القلعة التركية القديمة ومرتفعاتها الصخرية، وعلى منحدراتها الملاصقة لبلدة تل أعفر؛ فالسطح الزمردي الموازي لحقول القمح والشعير محاطٌ بسلسة من الجبال الخفيضة، تتخللها أشرطة زرقاء؛ هي عبارة عن الوديان والأنهار الموسمية التي تجف خلال موسم الصيف الملتهب، ومن الغرب ينهيها جبل سنجار الذي يبلغ ارتفاعه ١٢٥٠م.

ولكن أكثر ما يترك لديك انطباعاً رائعاً في المشهد العام هو المرتفعات المصطنعة (التلال) من حيث أحجامها وأشكالها، وهي متنوعة؛ فمنها المثلثة أو المتدرجة أو التي هي على شكل قوس بيضوي، ومنها تلال كبيرة وأخرى صغيرة يصعب ملاحظتها في السهول الخضراء، و لا يقل تنوعها عن تنوع ما تخفيه في داخلها من أسرار الحضارات القديمة. المنظر العام المطل على السهول من بلدة تل أعفر رائعٌ بحقّ.

عندما مرّ هنري ليارد - في أربعينات القرن الماضي- عبر شمال بلاد الرافدين، وتوقف للمبيت في هذه البلدة، كتب: «من خلال جدران المدينة، ينفتح أمامك منظر مهيب لسهول شاسعة جداً، متصلة حتى ضفاف الفرات، وتتوارى في السهول البعيدة بقايا وأطلال المدن والقرى القديمة، وترتفع في جميع الجهات، من خلال خيوط أشعة الشمس المائلة إلى الغروب، وتظهر مئات التلال التي كانت شاهدة على ازدهار وموت حضارة آشور».

في النهار تختبئ هنا كل الكائنات من شدة الحر، وتبدو التلال القديمة مهجورة وميتة، وحتى مقيموها الدائمون من الأفاعي والضِباب والقوارض الخائفة، تقبع في جحورها العميقة الباردة، وبعد منتصف النهار عندما يخفّ وهج الهواء الساخن، يظهر السراب في سهول سنجار، تبدو التلال وكأنها تركت الأرض، وبدأت ترتفع مثل سفن شراعية تبحر باحتفالية على متن غيوم ناعمة بيضاء إلى مكان بعيد.

في المساء تتغير اللوحة؛ عبر أشعة الشمس الذهبية المائلة إلى الغروب، تمتلئ السهول بظلال صغيرة وكبيرة للتلال؛ هاته الشاهدات الصامتات على الماضي، يتذكرن كيف أن قرابة ثمانية آلاف عامٍ مضى على نزول المزارعين الأوائل من سفوح الجبال العالية إلى تلك السهول الخصبة، وتتذكر هذه التلال أيضاً هدير عجلات العربات القتالية الثقيلة للآشوريين، ومرور جحافل الإغريق المشهورة دون حرب، وأصوات الموسيقا الحربية

التي كانت تخطو تحت أنغامها فوق تراب أوروبا وآسيا وإفريقيا، الجيوش الرومانية الرهيبة. ليس هناك شيء يختفي في التاريخ دون أثر، كل ثقافة كل شعب عاش في هذه السهول، بغضّ النظر عن المدّة الزمنية، ترك خلفه آثاراً مشهودة، مثل أطلال المدن والمستوطنات القديمة التي تحولت مع مرور الزمن إلى تلال متنوعة الأشكال.

ستون كيلو متراً تفصل تل أعفر عن سنجار، وكانت في يوم من الأيام طريقاً مريحاً بين بلاد الرافدين والبحر المتوسط، وتلاحظ مئات التلال الأثرية، وفي الحقيقة كل سهول سنجار هي عبارة عن متحف ضخم للآثار تحت قبة السماء الواسعة، لكن تحفها مخفية خلف الزجاج في المتاحف !!!

علماء الآثار لم يعيروا الانتباه من قبل إلى هذه المحميات الأثرية الفريدة، إذا ما استثنينا الاستطلاع الأثري الذي قام به الإنكليزي ستيفن لويد في ثلاثينات القرن المنصرم، والتنقيبات المثمرة والمدهشة في الموقع الآشوري الضخم في تل الرمّاح من قبل إنكليزي آخر هو ديفيد أوتس، لبقي ماضي وتاريخ سهول سنجار لغزاً غامضاً.

بداية ربيع ١٩٦٨م بقرب منحدر أحد المواقع المخضرّة في سهول سنجار، توقفت لاندروفر سماوية اللون وخرج منها النيقولايان؛ نيقولاي ياكوفلوفيج سمير بيرت ونيقولاي أوتوفيج بدر، وتفحصا الموقع بتمعن، ولم يكن توقفهم في هذه المحطة من قبيل الصدفة. على بعد ثمانية كيلومترات، في الجهة الجنوبية الغربية من تل أعفر يرتفع عدد من التلال، مياه النهر التي تجري بالقرب من هذا التل أتى على نصفه، ومن هنا جاء اسم المكان كله «ياريم تبه»، وتعني بالتركية نصف تل، من خلال الاستطلاع الأولي، ومن حيث المعطيات الخارجية، نجدُ كسراً فخارية لأواني عائدة إلى المراحل الرئيسية الثلاث لتطور الثقافات الزراعية البدائية في بلاد الرافدين،

على ثلاثة تلال: ثقافة حسونة على سطح تل ياريم تبه١، ثقافة حلف على سطح تل يا ريم تبه٢، وثقافة عبيد على سطح تل ياريم تبه٣.

على هذه المساحة الصغيرة جداً (أقل من واحد كيلو متر مربع) توضعت تقريباً جميع مراحل تطور الحضارات الزراعية في الشرق القديم، بدءاً من خطواتها الأولى وحتى مشارف الحضارة السومرية. والآن ينبغي تجهيز بعثة أثرية وإرسالها إلى العراق.

التعرف إلى المكان:

يقول الكاتب الروسي دانييل غرانين في كتابه «سادا كامني أو الحديقة الحجرية»: «إنّ أغلب الناس يعتقدون أنه كلما كانت البلاد بعيدة كلما كانت أدفأ، وأن جنوب أمريكا أدفأ من شمالها، وفي اليابان كل ما تقوم به الشمس هو أنها تشرق. لاحظتُ منذ زمن أن الناس تعرف تلك البلاد التي لم تزرها قط».

أنا لا أعرف بالضبط مَن مِن الأوساط الطبية الأكاديمية للعلوم الروسية عدّ العراق كلياً ذا مناخ صحراوي؟ ولكنني أظن أن هناك أسباباً مقنعة وراء ذلك. حقيقة إن أغلب مساحة العراق في فصل الصيف الحار تصل درجة الحرارة فيها إلى خمسين درجة مئوية، وفي الجنوب والغرب، ومن بغداد تندر الهطولات المطرية في السهول الصحراوية، وتتجول فيها قطعان الجمال، والبدو الذين أصبح منظرهم وملابسهم صفراء من الغبار الذي يسوقهم، ولا ترى النخيل إلا على ضفاف الأنهار.

ومن وجهة نظري فإن مؤسستنا المحترمة جانبت شيئاً من الحقيقة عندما أطلقت على العراق هذه التسمية؛ لأن شمال العراق وسهول سنجار وحتى جبال كردستان يسودها مناخ متوسطي، وهو بعيد كلّ البعد عن المناخ الصحراوي الجاف، وتأكدت من ذلك من خلال تجربتي الشخصية.

عندما استعدت البعثة الأثرية الروسية للذهاب، تم تعيين الدكتور بيوتر ديمتريفيج درفسكيخ نائباً لرئيس البعثة من الناحية الخدمية، لأنه رجل كبير في السن وذو تجربة طويلة، وقد عمل في عدد من البلدان في الشرق الأوسط. وساعده في مهمته وبحيوية أحد «محاربينا القدماء» والذي عمل أيضاً في آسيا الوسطى ونوبي، وهو موسى عمرفيتج يونوسوف أو كما نسميه «ميشا». لم يكترث هؤلاء بما ذهب إليه الأخوة في أكاديمية العلوم حول الطبيعة الصحراوية الحارة للعراق، معتمدين على تجربتهم الشخصية في تحضير البعثة، من حيث الأدوات والمعدّات والألبسة.

لذا وجدنا في حمولة البعثة إلى العراق الصحراوي الحار أكياس نوم قطنية دافئة وشوادر (خيم) عسكرية متينة، ومعاطف ثقيلة مشمعة، وجزماتٍ مطاطية مبطنة، ومعاطف دافئة، أي العدة والتجهيزات الشخصية اللازمة لبعثة وطنية في روسيا، وكأنها ليست بعثة متوجهة إلى بلاد الرافدين المشمسة دائماً. كانت تجربة ومعرفة هذين الشخصين مفيدةً لنا في أول لقاء لنا مع المناخ الصحراوي في سنجار، الذي لم يكن دافئاً قطّ في تلك الفترة من السنة، حيث فصل الربيع المتقلب الذي يصب على رؤوسنا أمطاراً مستمرة مترافقة بهبّاتٍ من الرياح والبرد.

بعد تجربتنا المريرة، أخذنا معنا إلى ياريم تبه شاحنة قوية نوع (غاز ٦٦)، وملابس دافئة، وكنا نستعمل هذه العدة الشتوية في غالبية موسمنا التنقيبي الذي كان يمتد لمدة ثلاثة أشهر، وكنا نشعر بالدفء في أواخر نيسان، أي في نهاية موسم العمل، بعدها نتوجه إلى عاصمة البلاد بغداد، ومنها إلى الوطن في أيار، أي كنا نشعر بالمناخ العراقي الحار فقط في الفترة الأخيرة من وجودنا في العراق.

الخطوات الأولى:

هل تشكيل بعثة أثرية في بلاد الرافدين هو أمرٌ هيّن؟ فلنستمع إلى آراء زملائنا الأوربيين الذين عملوا في العراق منذ أواسط القرن التاسع عشر.

كتب عضو البعثة الألمانية التي عملت في الوركاء (أوروك القديمة) ويلهلم كينيغ، في بداية القرن العشرين، إن تشكيل بعثة في بلاد الرافدين ليس بالعمل السهل؛ ففي البداية يجب الحصول على موافقة السلطات الأثرية في البلاد، وبعدها يجب الدخول في مفاوضات مع الحكومة من أجل تأمين حماية البعثة؛ لأن هذه الخطوة مهمة جداً ولها مبرراتها، فالشيخ العربي الذي قد تعمل البعثة في منطقته سوف يرسل عدداً كبيراً من العمال للعمل، لأنها فرصة نادرة لكسب المال، وغالباً ما يستخدم زعماء العشائر أجور العمال لصالحهم، ويرسلون عدداً من الحراس المسلحين حسب نسبة عدد العمال من أجل تشغيلهم، كما أن الاتفاق مع الحكومة ضروري لأمنهم كأوروبيين، فهم يعملون لمواسم طويلة في الصحراء. ومن ثم يجب بناء مخيم للبعثة، كبيوت السكن ومستودعات اللقى الأثرية، وغرف مظلمة من أجل تحميض أفلام التصوير، وغرف للخدم والحراس، وكراج، وبانيو (لاستحمام الأوربيين الذين تظهر لديهم حساسية كبيرة، ولإزالة الغبار والعرق عنهم). عند الانتهاء من كل ذلك، تظهر مشكلة المياه وفي وسط غير مريح، فالعيش ممكن دون حنان واعتناء أي امرأة في العراق، ولكنه مستحيل دون ماء، و كان علينا جلب الماء يومياً من آبار تبعد مسافة خمسة كيلومترات، وكان علينا أن نقتصد في استهلاك الماء. طبعاً الكثير مما قاله ويلهيلم كينغ، والذي مضى عليه سبعون عاماً، قد تغير الآن.

تختلف المناطق التي نحن فيها الآن، أي سهول سنجار، عن جنوب العراق ذي المناخ الصحراوي، بسبب الهطولات المطرية والهواء البارد القادم من الجبال المجاورة. لم نعانِ من أي صعوبة في الحصول على

الموافقة للتنقيب، بل على العكس تماماً، فالمدير العام للآثار والمتاحف عيسى سلمان استقبلنا بكل رحابة صدر في مكتبه، ووقع جميع الوثائق المطلوبة لذلك، وكذلك شيوخ القبائل العربية في ياريم تبه، لم يكن لنا معهم أي احتكاك، لأن غالبية سكان منطقة تل أعفر هم من التركمان الذين يتحدثون اللغة التركية، ويختلفون عرقياً عن العرب. والمجموعة العربية الوحيدة التي عملت معنا في موقع ياريم تبه (حوالي خمس عشرة شخصاً) كان أفرادها ينحدرون من قرية شرقاط، وكانوا مختصين في أعمال التنقيب، وتم قبولهم في العمل معنا بمساعدة المديرية العامة للآثار العراقية. وبما أن مخيم البعثة موجود في منطقة مأهولة بالسكان، لم نحتج إلى عدد كبير من الحراس، فقد كان لدينا حارسٌ واحدٌ يحمل بندقية صيد قديمة، وكانت حراسته رمزية.

ولكن الأمور التي ذكرها ولهلم كينغ، كانت تنطبق على البعثة الروسية في ياريم تبه، ففي المواسم الأولى لعملنا وبسبب حاجة سكان القرى المجاورة إلى النقود، كان العمال يأتون إلينا بأعداد كبيرة، وكنا بحاجة إلى خمسين عاملاً فقط. ومثل البعثة الألمانية، لم يكن معنا نساء، كنا نترك عوائلنا خلفنا في الوطن لمدة ثلاثة أشهر، وعلى ما أعتقد فإن عدم وجود النساء في البعثة كان أمراً صحيحاً؛ لأن الأوضاع المعيشية للبعثة في ياريم تبه لم تكن نموذجية، بسبب البرد والأوحال والحرارة العالية والغبار والتغذية غير المعتادة لنا، بالإضافة إلى وجود الحشرات والأفاعي وأمور أخرى كثيرة. واختيار موقع المخيم هو على قدرٍ كبير من الأهمية، وكذلك مشكلة جلب المياه. ففي آذار عام ١٩٦٩م، عند وصول أعضاء البعثة السوفيتية إلى منطقة ياريم تبه، تم اختيار موقع المخيم (مركز البعثة) على مساحة مستوية، في الناحية الغربية من سفح التل الكبير ياريم تبه٣ الذي يبلغ ارتفاعه ١٣م، مما كان يسمح لك بأن ترى منظراً عاماً لسهول سنجار والمنظر الرائع للغروب فوق هضاب جبل سنجار. في الموسمين الأول

والثاني كان مقر البعثة مؤلفاً من خيم عسكرية تسع كل واحدة منها لعشرة أسرّة، عدا عن خيم النوم والمسكن، كما وُضعت خيمٌ استُعملت كمطعم، وأخرى كمختبر. عدا عن أعضاء البعثة السبعة، كان يسكن معنا، في المواسم الأولى من البعثة، الطباخ ومساعده والخادم والحارس، أما العمال العرب المنحدرين من شرقاط، فقد نصبوا خيمهم في منطقة قريبةً منّا، عند سفح التل الجنوبي ياريم تبه٢ قرب الطريق.

في الحقيقة، تم تجاوز مشكلة المياه، فعندما كنا نتهيّأ للمجيء في موسكو اقترح أحدهم علينا أن نأخذ معنا، بالإضافة إلى السيارات والممتلكات الأخرى للبعثة، صهريج ماء على عجلات بسعة ألف لتر، فهمنا ذلك فيما بعد في الموقع، فقد كان المخيم في باحة نظيفة، وأقرب قرية أو مزرعة لنا كانت على بعد ٢كم، والمياه الموجودة في آبارها كانت مالحة أو غير صالحة للشرب، لكن المياه الصالحة للشرب كانت موجودة في تل أعفر، والبلدة لم تكن بعيدة عنا، وكانت فيها مصفاة ماء، تؤمن المياه لكل سكان البلدة من نهر دجلة، وكنا نجلب مياه الشرب من هناك.

بدت الأمور لنا سهلة، فلدينا شاحنة قوية (غاز ٥٣)، وصهريج على عجلات، وبوسعنا أخذ ما شئنا من المياه، ولكن الأسابيع الأولى من الحياة في ياريم تبه جعلتنا نأخذ في الحسبان الطقس المتقلب في المنطقة. الطريق الترابي بين المخيم وتل أعفر يمر في أرض مستوية ومسافتها غير طويلة (أقل من عشرة كيلومترات)، ولكن خلال هذه المسافة القصيرة يقطع الطريق واديان (نهرين)، يبلغ عرض كلّ واحدٍ منهما عدّة أمتار، وعمقه قرابة مترين، بالإضافة إلى عدة قنوات للري، هذه الوديان والقنوات تتحول إلى أنهار كبيرة لا يمكن عبورها في فصل الشتاء، ولا سيّما عندما تكون الهطولات غزيرة، والتي قد تستمر لعدة أيام. كما تصبح الأرض والتربة في سهول سنجار وحلاً يصعب اجتيازه عند هطول الأمطار، حتى أن السكان

المحليين كانوا لا يجتازونها إلا عند الضرورة القصوى وبواسطة جرارات زراعية، أما نحن فكان يجب علينا أن نذهب إلى تل أعفر لجلب المياه (١٠٠٠لتر) كل يوم لكي تسدّ حاجتنا وحاجة خمسة عشر عاملاً من شرقاط، كانوا يعيشون معنا في المخيم.

في البداية كانت لدى البعثة سيارة جيب غاز ٦٩، وشاحنة غاز ٥٣ لم تكن تستطيع العبور واجتياز الطريق المذكور، ولذلك كنا نستأجر جراراً زراعياً من أحد الفلاحين من القرية المجاورة لأجل جلب الماء من البلدة، كان هذا في سنة ١٩٧٣م ولكن بعد حصولنا على شاحنة غاز ٦٦ الجبارة انتهت صعوباتنا في الحصول على الماء وشراء المواد الغذائية والخضروات.

من خلال تجربتنا في المواسم توصلنا إلى حقيقة مفادها أنّ اختيار مكان المخيم في السفح الغربي لياريم تبه٣ كان خاطئاً؛ لأن الخيم لم تكن محمية من العواصف وهبوب الرياح الغربية باستمرار، هذا أولاً، وثانياً كان يجب علينا تشييد أبنية أكثر قوة وتحمّلاً لأحوال الطقس (مختبر لدراسة اللقى الأثرية، ومطعم ومطبخ ومستودع)، ولم تنضج فكرة بناء منزل البعثة والأبنية السابقة إلا في سنة ١٩٧٠، حيث شرعنا في الخطوات الأولى في ذلك الاتجاه، ووضعنا نصب أعيننا أن يكون بيت البعثة كسائر بيوت القرى المحيطة بنا، مبنياً من اللبن والطين والقش، هكذا كانت فكرة مديرنا. وكان الفرق بين بيت البعثة والبيوت الأخرى في القرى المجاورة يكمن في أنّ بيت البعثة كان ضخماً وجميع شبابيكه كانت من الزجاج، وفي كل زاوية من زوايا السطح كان يوجد برج على شكل درج صغير.

كانت حفلة الافتتاح في الأول من شهر أيار عام ١٩٧٠م، أي خلال الموسم التنقيبي الثاني، وفي الحقيقة لم نستخدم بيت البعثة في تلك السنة

وإنما في الموسم الثالث عام ١٩٧١م، بعدما جلبنا خيمنا من السفح الغربي إلى السفح الشرقي؛ المكان الذي بنينا فيه بيت البعثة.

داخل البيت الطويل كانت جدران غرف العمل والإدارة مطلية بشكل جيد بمادة الكلس، وكان حارسنا «محمّد زمي « يعيش في غرفة منفردة، وبالمناسبة كانت الأرض التي تقع فيها جميع التلال التي يتم التنقيب فيها من قبلنا نحن مجموعة ياريم تبه، تعود ملكيتها إلى هذا الشخص».

بعدها كان المخبر ومستودع العدة والمطعم (صالون حسب اللغة المحلية)، وكان قاعة للمطالعة أيضاً، وأخيراً المطبخ الذي كان يعيش فيه الطباخ. أما نحن أعضاء البعثة كنا نفضل العيش والمبيت في الخيم الواسعة، وهنا يجب أن أتحدث عن بناء آخر ضروري في حياتنا وهو الحمام؛ بناءٌ غير عالٍ ذو سطح مستوٍ بمدخلين، مكتوبٌ على باب أحدهما «حسونة» والآخر مكتوب عليه «حلف»، حسب تسمية الثقافة التي كنا ننقب عنها في الموقعين، والكتابة مكتوبة بالطين وكسر الفخار العائدة إلى كل حقبة. على حسب علمي لم يستعمل أي شخصٍ، يعمل في موقع ياريم تبه الحلفيّ، الحمام الخاص بالعاملين في الموقع الحسوني وبالعكس؛ التقاليد شيء عظيم.

في الأعلى كان ثمة خزان بسعة ألف لتر يتوضع على بضعة قطع من اللبن، و كان حارسنا أو أحد أعضاء البعثة يقوم بملئه. في الأوقات الحارة كانت المياه الموجودة في الخزان تصبح دافئة، بل حارّة أيضاً (أما في الأوقات المعتدلة كما في آذار وقسم من نيسان كنا نقوم بتسخين المياه يدوياً بواسطة الكاز)، وكان الاستحمام في هذه الحالة فيه شيء من الخطورة، لأنّ أوّل اثنين فقط من بين المستحمين كانا يستمتعان بالمياه الدافئة، أما البقية فتصلهم المياه حارّة، وإذا تأخر المناوب، واسمه حسن، على السطح ليضيف المياه الباردة إلى الخزان، فإنّ المياه الحارة كانت تنزل على كتفي و على رأس «التختور» المستحمّ (هكذا كانوا يسموننا في ياريم تبه) أي الدكتور.

في الأيام المخصصة للاستحمام كان باستطاعتك أن ترى رأساً يعلو الحمام الحسوني أو الحلفي وعليه رغوة الصابون، وصراخه يملأ سهول سنجار وهو يقول: «حسن لازم مي بارد».

وفي بعض الأيام كان حسن المسكين يحاول أن لا يتأخر عن صب المياه الباردة في الخزان، فكان يُنزل على رأس المستحم مياهً باردة، لأن المياه كانت تأخذ من الخزان الذي يستخدم في روسيا من أجل مشروب (الكفاس) بجدرانه المحشية، مثله مثل المبرّد (الترمز).

أما فيما يتعلق بالمأكل فكان لدينا طباخ؛ في أوّل عامين كان يعمل لدينا رجل فارسي ذو شارب أبيض وقبعة صوفية، وكان يُدعى عباس، أما فيما بعد، ولعدة سنوات، كان طباخنا رجلاً متوسط الطول جميل الملامح اسمه أيسر، أو كما كانوا يسمونه «السيد» وكان ينحدرمن مدينة الموصل، كان طبّاخاً ماهراً، و رجلاً طيباً جداً، و كان يساعده في العمل صبي تركماني. وكانت الوجبات توضع أمامنا في الصالون على الطريقة الشرقية؛ الشوربة أولاً، وكان الطباخ يجلبها بنفسه وهي الوجبة الأولى، أما الوجبة الثانية فهي اللحم مع الأرزّ، والفاصولياء مع الخضروات في صحون واسعة غير عميقة، مصنوعة من الخزف الفرفوري، يحملها الخادم بينما يقوم الطباخ بوضع الصحون بكلّ كبرياء أمام الدكاترة، لكلّ واحدٍ منهم صحنٌ، و كان كأنّه يعطينا روبلاً ذهبياً، ومع ذلك، فقد كان يتّبع تسلسل الرتب من الأعلى إلى الأدنى؛ فالمدير أولاً كما كان يسميه العراقيون، أي رئيس البعثة رؤوف منجاييف، يليه نائب رئيس البعثة نيكولاي ميربيرت، وهكذا دواليك.

أتذكر إلى الآن أسماء أنواع الأطعمة عند العراقيين، فالأرزّ هو التمن، واللبلبية هي الحمص والفاصولياء، والخس واللحم، وكان عندهم اليبرخ، وهي أوراق وأرز ولحم مفروم مع البهارات، أما السكر فكان يسمى شكر.

كنا نعيش، كما ذكرت سابقاً، في الخيم الكبيرة المصنوعة من الوبر، وكان يسكن في كل واحدة منها أربعة أشخاص، وكنا ننام على أسرّة بسيطة يتم تركيبها وتفكيكها بسهولة في أكياس نوم قطنية، وبما أن ليالي ياريم تبه كانت في منتصف أيار، لم نكن نستخدم غير هذه الأكياس للنوم إلّا فيما ندر.

عندما تم تبديل مكان مخيمنا، بعد بناء بيوت البعثة، إلى الجهة الشرقية من سفح التل، أصبح مكان المخيم قريباً من نهر صغير يسميه السكان المحليون «عبرة»، وكان طوال فترة إقامتنا في العراق خالياً من المياه تقريباً، لأن السكان كانوا يستخدمون مياهه في ري وسقاية البساتين، وكانت المياه تجري فيه بعد انتهاء موسم السقاية فقط، وعلى ضفتي النهر كانت تنمو الأعشاب والشجيرات، مما يجعل منه حاجزاً بين المخيم والعالم الخارجي، وكان يوجد عليه جسر حجري صغير للسيارات، أما العمال الذين كانوا يأتون إلى العمل في موقع «ياريم تبه» كانوا مضطرين لأن يقفزوا على الجدول الصغير أو عبوره سباحة عندما كان الماء جارياً فيه، وكان الأمرُ نفسه بالنسبة لزملائي الذين كانوا يعملون في موقع «ياريم تبه١ الحسوني»، أما أنا فكنت أعمل في موقع «ياريم تبه»٢ والعائد إلى فترة «حلف»، وكنت أتمهل وأجهز عدتي، لأن المخيم كان يقع على السفح الشرقي من التلّ، كما ذكرتُ سابقاً.

ليس ثمة طقسٌ سيّء بالنسبة للطبيعة:

إنّ نمط الحياة اليومية في المدينة يفتقد إلى الشعور بتقلّبات الفصول، كالشعور بالمطر والبرق وتساقط الثلوج والربيع، بينما في الريف يبدو تأثير الطقس واضحاً على الحياة اليومية، ولا سيّما هنا في العراق.

إنّ أولئك الذين يعملون وفقاً لاختصاصاتهم في الصحراء والغابات والسهول والمناطق الاستوائية، ويعيشون في الخيم وغرف الصفيح

و»الكرفانات»، مثل الجيولوجيين والصيادين والمسّاحين وعلماء الآثار، لا يقتصر تأثير الطقس على عمل هؤلاء ونجاحهم أو فشلهم وحسب، وإنّما يمتدّ تأثيره إلى تفاصيل دقيقة من حياتهم في بعض الأحيان.

و لم تكن بعثتنا الأثرية في العراق في منأى عن ذلك، وعندما كان معارفي في موسكو يسألونني عن الطقس في العراق كنت أقول لهم بشكل مختصر «لا بأس»، كانت هذه لعبة؛ أي أنها كانت ردة فعل شخص عاش وتحمّل جميع أوضاع الطقس غير المستقر في العراق، وبالإمكان تلخيص انطباعي عن الطقس العراقي بكلمتين (غير مستقر)، وهذا ما ذكره المؤرخ الألماني «تي تسيرون» في وصف مناخ وطقس العراق بشكل مختصر وموجز، فهو يقول:»عندما كانت الثلوج تبدأ بالذوبان في شمال جبال هضبة أرمينية، كانت الأنهار تمتلئ بالمياه، وكان نهر دجلة يفيض في شهر آذار، بينما يفيض نهر الفرات في نيسان، وكانت هذه الأنهار تصل إلى أعلى مستوى لها في الشهر السادس والسابع. عندها كانت التربة تأخذ كفايتها من الرطوبة وتصبح عالية الخصوبة، ولكن في بعض الأحيان كانت المياه تخرج من مجراها وتدمر السدود وتقضي على المزروعات، فكانت تحلّ المجاعة، ويموت الإنسان قبل الحيوان.

تحلّ المجاعة في حالتين في هذه المنطقة؛ الحالة الأولى عندما تأتي المياه والفيضانات في غير أوقاتها، أو عندما لا تكفي لسقاية المزروعات، أما الحالة الثانية فهي عندما تأتيهم المياه الهائجة من الجبال، وتقضي على المزروعات والسدود. كانت المياه مقدسة، وكان يجب الدعاء والصلاة دائماً من أجل عدم حدوث هذه الكوارث، لأنها كانت مسألة حياة أو موت.

الصيف في ميزوبوتاميا طويل، فهو يبدأ في منتصف آذار ويستمر حتى تشرين الأول، أما الشتاء فيكون فعلياً ثمانية أسابيع، وفي شباط ترى الأرض قد اخضرّت. الطقس هنا أكثر حرارة وجفافاً من أي نقطة في العالم؛ تصلُ

درجات الحرارة في الصيف إلى خمسين درجة مئوية، لتجعل من البلاد جحيماً لاهباً، ويغطي الرمل الأصفر السهول والتلال، و تدور الأعاصير الرملية الضخمة حتى تصل إلى السماء فوق الحقول الجافة، مهددة بخنق الإنسان والحيوان، وتكون الأمطار قليلة، وإذا هطلت تكون مصحوبة بالبرق والريح القوية، وتجعل الأرض بحراً من الأوحال؛ هنا الطبيعة تعرض كامل قوتها في بلاد الرافدين، إنها تتراءى للإنسان بشكل جليٍّ، و كم هو ضعيفٌ أمامها، ويرى كيف أنّ باستطاعتها أن تقضي على جميع خططه في أي وقت من السنة، وتجعله مطيعاً وصغيراً أمامها، وفي نفس الوقت تجعل منه رجلاً صبوراً متحملاً الأهوال».

لستُ أعلم إذا ما كان مؤلف كتاب «التلال الإنجيلية» قد اختبر وعاش طقس العراق غير المستقر والهائج أم لا، لكنّي أعلم أنّه وصف المناخ والطقس في تلك البلاد بدقة عجيبة. لا شكّ أنّ المناخ في شمال بلاد الرافدين يختلف عن المناخ الجاف والحار في الجنوب، غير أنّنا نلاحظ أيضاً التشابه في الصفات الرئيسية للمناخ؛ مثل الهجوم المباغت للسيول الجارفة المنحدرة من الجبال، والعواصف الغبارية والرياح والهطولات المطرية التي تدوم نحو أسبوعٍ كاملٍ، والجو الحار الذي لا يُحتمل؛ والذي يكون أكثر حرارة في سهول سنجار، بالإضافة إلى خروج العقارب والأفاعي والزواحف والحشرات المختلفة من جحورها في منتصف نيسان. لكن مع ذلك تبقى الصعوبة الرئيسية هو المناخ غير المستقر الذي يمكن أن يتغير خلال أيام أو ساعات معدودة. قد تصل الفروقات الحرارية بين الليل والنهار إلى ٢٠ – ٣٠ درجة مئوية، ومن الطبيعي أيضاً أن يرافق هذا التقلب تغيرٌ في الرطوبة والضغط الجوي.

في أوّل عشرة أيام من نيسان، يُقبل الصيف دون سابق إنذار في ياريم تبه ؛ الصيف الملتهب والجاف ذو السماء الصافية الزرقاء والشمس

الساطعة؛ ترتفع الحرارة لتتراوح بين ٣٥-٤٠ درجة مئوية في الظل، ولكن في الليل يكون الطقس في نفس الفترة بارداً قليلاً، لذا بإمكان المرء النوم بشكلٍ جيد؛ لأنّ الصيف الحقيقي الحار في سهول سنجار يأتي في نهاية أيار وبداية حزيران.

لأجل عرض ما سبق، سأستشهد هنا ببعض المقتطفات من دفتر مذكراتي في البعثة من العام ١٩٧٣- ١٩٧٥م:

١٨ نيسان:

في النصف الثاني من النهار؛ تهب الرياح الخماسينية من الجنوب ومن شبه الجزيرة، الجو خانق ومغبرّ، ميزان الحرارة بالقرب من الباب يؤشر إلى الرقم ٣٢. تتجمع الغيوم السوداء في سماء سهول سنجار. حوالي الساعة التاسعة مساءً سمعنا صوت الرعد الذي لم أسمعه من قبل، وكان من النادر حدوثه في هذا المكان، كان يضيء الحقول والقرى المجاورة ومخيمنا بشكل مرعب وبضوء جهنمي ذي ألوان خمرية فاتحة وخضراء وصفراء. صوت الرعد كان يزلزل المكان على امتداد عدة كيلومترات، وبعد ذلك نزل على رؤوسنا وخيمنا وابلٌ من الأمطار المصحوبة برياح قوية من جميع الاتجاهات، وكأنها تحاول اقتلاع خيمنا من مكانها، دام ذلك أكثر من ساعتين، وساد الهدوء بعدها، ونمنا حتى الصباح، الذي استقبلنا أيضاً بمطر شديد مع حرارة لا تتجاوز العشر درجات مئوية، وفي منتصف النهار توقف المطر وأشرقت الشمس وبدا الجو خانقاً بسبب رطوبة الأرض والحقول.

٢٩ نيسان:

على مدار سبع سنوات من العمل في ياريم تبه، كنا نعتقد أنه يجب أن نتعود على كل شيء هنا، لكن مفاجآت الطبيعة كانت لا تنتهي.

عند المساء تلبدت الغيوم بلونها الدخاني في السماء، وأصبح الجو خانقاً وهادئًا، تساقطت قطرات من المطر، ما لبثت أن توقفت، وعند الساعة الواحدة تقريباً بعد منتصف الليل، هبت من الشمال رياح عاتية وباردة، استيقظتُ بسبب حركة غريبة في سريري الذي كاد أن ينقلب، وكانت خيمنا تأنّ تحت وطأة شدة الرياح. ماذا سنفعل إذا لم يستطع هذا المسكن الضعيف الصمود في وجه الرياح العاتية؟ خرجنا من أكياس النوم، وبدأنا نشد الحبال ونغرز أوتادها بشكل أعمق. عدت تائهاً إلى فراشي، ولكي لا أسمع هبوب الرياح الشديدة وصخب الخيم، وضعت المخدة على رأسي ونمت بسرعة، وفي الصباح كانت الشمس مشرقة والسماء صافية، ولكن الرياح كانت تهب بنفس الشدّة حاملةً معها برودة شديدة ...

١٥ أيــار:

الجو حار، الساعة حوالي الرابعة عصراً، نجلس بالقرب من بيت البعثة، نتحدث بعد الغداء في أمور التنقيب، ونرتاح من تعب يوم شاق. فجأة ومن وراء النهر أتتنا زوبعة دائرية صغيرة واقتحمت مخيمنا، وخلال دقيقة أو دقيقتين اقتلعت الخيم من الأرض؛ كانت قوية بحيث قذفت بأسرّتنا إلى مسافة تزيد عن عشرين متراً.

وهنا يجب الحديث عن الشروق والغروب والليل في ياريم تبه، فتعاقب الليل والنهاريكون سريعاً جداً هنا ؛ الشمس تنحدر ببطءٍ وكسل إلى الأسفل، وخلف جبل سنجار يصبح الهواء شفافاً وأكثر تحملاً، وسرعانما يعود كل

شيء، في الأنحاء، إلى شكله الطبيعي، لتنفتح فوق رؤوسنا القبة السماوية الرائعة. في بعض الأحيان ترى قطعاً من الغيوم الرقيقة في السماء. قرص الشمس ينحدر بسرعة بعد الساعة السادسة مساءاً، ويختفي وراء جبل سنجار، وكأنّ عملاقاً ما يسحبه إلى الأسفل. يأتي المساء والبرودة التي طال انتظارها، وبعد عشر أو خمس عشرة دقيقة، يخيم الظلام الدامس في الأرجاء وتظهر النجوم واحدة تلو الأخرى، والقمر الفضي يبدو وكأنه يسبح في السماء، والسهول التي عادت إليها الحياة للتو تتخلص من الحرارة المتبقية فيها، ومن جميع الجهات، يتناهى إلى مسمعك صوت الكائنات التي لا تراها.

ينبغي القول إن السماء هنا سوداء فاحمة كقطعة قماشٍ من المخمل القطيفة، والنجوم كبيرة ولامعة بشكل غريب، ويمكن النظر إليها ساعات طويلة؛ درب التبانة والثريا والدب الأصغر والدب الأكبر، آه ياريم تبه كم أنت محبوبة ومكروهة في الآن ذاته!

يشبهُ اليوم آلاف السنين التي مضت؛ إذ تمضي الطبيعة متحكمة في كل ساعة ودقيقة من حياة الإنسان وكيانه واقتصاده، وحتى حالته الفيزيولوجية.

الفصل الثاني

علماء الآثار إلى العمل

مسألة معقدة:

قبل نحو خمسٍ وعشرين سنة تقريباً، كانت معرفتنا ومعلوماتنا شحيحة جداً عن الثقافات والحضارات التي سبقت سومر (الألف الثالث)؛ تلك الحضارة المزدهرة في الجنوب.

كانت معلوماتنا تقتصر على بعض اللقى والمكتشفات في بعض المواقع التي تمّ التنقيب فيها قبل وقتٍ قصير، مثل تل عبيد (الألف الخامس– الألف الرابع قبل الميلاد)، وتل حلف (الألف الخامس قبل الميلاد)، وتل حسونة (الألف السادس قبل الميلاد)، وموقع جارمو (الألف السابع قبل الميلاد)؛ هذه الأسماء المعاصرة لتلك الحضارة العائدة إلى عصور ما قبل التاريخ، أُخِذت أسماؤها من أسماء التلال. في الحقيقة كانت المعلومات عن تلك الحقبة قليلة، بحيث أنها كانت تشبه جزراً متفرقة يبعد بعضها عن بعضٍ عشرات أو حتى مئات الكيلومترات، ولم تبلغها يد علماء الآثار.

وبقيت الأسئلة المهمّة مطروحةً؛ كيف كانت بالضبط علاقة تلك الحضارات العائدة إلى ما قبل سومر فيما بينها؟ و كيف كان تتابعها الثقافي زمنياً وجغرافياً ...إلخ؟ إن سلسلة التطور التاريخي في أحد أهم المناطق في

العالم القديم كانت تبدو مقطوعةً في بعض الأجزاء، وكانت العلاقة المنطقية بين حلقاتها تبدو مفقودة.

ماذا كان يجري في تلك المساحة الواسعة من أرض ميزوبوتاميا (دجلة والفرات) قبل ظهور الحضارة السومرية؟ وأين تنتهي حدودها؟ كان علماء الآثار من جميع أنحاء العالم يطرحون هذه الأسئلة فيما بينهم، دون أن يكون لديهم الجواب.

كانت الحقائق العلمية قليلة جداً، كما كانت التلال الأثرية التي تمّ التنقيب فيها، والتي تحتوي سويات تلك الفترة قليلةً أيضاً، ولهذا ليس غريباً أن يجعل علماء الآثار الروس ضبط هذه المسألة التاريخية، التي بقيت غير مدروسة هدفهم الأساسي في البحث الأثري في بلاد الرافدين.

في شمال غرب العراق، وعلى بعد ثمانية كيلومترات عن بلدة تل أعفر في المنطقة المسماة ياريم تبه، كانت ترتفع عدة تلال أثرية تطل على السهول المحيطة، وتحتوي على المخلفات القديمة للإنسان؛ ثلاثة منها، بحسب المعطيات الخارجية (أي الفخار المنتشر على سطح التل) كانت تعود إلى بداية مرحلة الزراعات البدائية في الشرق القديم.

يعود «ياريم تبه١» إلى فترة حسونة و»ياريم تبه٢» إلى فترة حلف و»ياريم تبه ٣» إلى فترة عبيد. وأصبح ياريم تبه أو ياريم تبه٢هدف أبحاثنا الأثرية الرئيسية من عام ١٩٦٩ وحتى ١٩٧٦م، وقررنا التنقيب في هذين التلين حتى بلوغ الأرض البكر، أي جميع السويات الأثرية، وعلى مساحة واسعة.

حتى وقتنا الراهن (بداية التنقيب في ياريم تبه)، كانت السويات والمواقع العائدة إلى هذه الفترات القديمة تقع تحت طبقات غائرةٍ في الأرض، أو تحت سماكة السويات العائدة إلى الفترات المتأخرة، والنتائج التي كنّا قد حصلنا عليها من خلال بعض الأسبار العمودية الضيقة (خندق) لم تساعدنا في

معرفة اللوحة الكاملة لهذه الثقافات الزراعية القديمة. ثمة شيء آخر؛ عندما تكون التنقيبات منهجية وشاملة على كل مساحة الموقع وصولاً إلى الأرض البكر، لترى كيفية تعاقب الفترات الزمنية المتتالية على المستوطنة وتطورها، فإنّ ذلك لا يكون مهمة سهلة، ويكفي أن نقول إن الأعمال التنقيبية في موقعي ياريم تبه١ و ياريم تبه٢ استغرقت معنا ثمانية مواسم تنقيبية، علماً أن التل الأول؛ أي ياريم تبه١ قطره مئة متر، وارتفاعه خمسة أمتار، ومساحة المستوطنة القديمة كانت حوالي هكتارين، وارتفاع السويات الأثرية ستة أمتار، أما الموقع الثاني ياريم تبه٢ الذي تم جرف نصفه بسبب مياه النهر فكان قطره ١٢٠ متراً وارتفاعه ثمانية أمتار.

كيف يتم التنقيب في بلاد الرافدين؟

يلعب الحظ والصدفة دوراً كبيراً في حياة أي عالم آثار، أينما كان ينقب، لكن النجاح العام في جميع البعثات الأثرية ليس أمراً متعلقاً بالصدفة والحظ، وليست اللقى الأثرية الفريدة هي نتيجة نشاط واجتهاد فرد واحد، بل كلّ هذه الأمور هي نتيجة للخطط الناجحة، وطريقة تنقيب الواضحة، والعمل الجماعي المتكامل الشامل لجميع الاختصاصات.

لعملية التنقيب في العراق خصائصها، لأن ميزوبوتاميا هي بلاد تقليدية للثقافات والحضارات الطينية على مدى آلاف السنين. كانت المادة الوحيدة للبناء هي الطين، وكانوا يبنون البيوت البسيطة والمعابد العظيمة والقصور الفخمة من الطين المجفف تحت الشمس أي اللبن، ومن الطين عملوا الأواني وتماثيل الآلهة ورؤوس المغازل، والقوالب بأشكالها المختلفة، وقذائف المقلاع، والأختام الخاصة بالمُلكية، وكتب السومريون والبابليون على الرقم الطينية الكلمات الخالدة لآدابهم وأساطيرهم، وتقاريرهم الجافة عن اقتصادهم اليومي، وكذلك فرمانات ملوكهم الرهيبة.

لكن الطين ليس مادة قوية، فالبيوت الطينية التي تُترك عدة أشهر دون اهتمام، تراها تتحول إلى كومة من التراب المرتفع قليلاً، ولا تستطيع تمييزها عن السهل أو الأراضي المحيطة، وفي كل تل من التلال الأثرية في بلاد الرافدين توجد العشرات من بقايا هذه البيوت الطينية التي تضمها الطبقات الأثرية، وتشهد على مرور الزمن وتعاقب القرون والأجيال والثقافات. ومن الصعب على الشخص غير المتدرب أن يستطيع فهم ومتابعة هذه «المخطوطات اليومية الصعبة»، ومن هنا تأتي ضرورة الاعتماد على العمال الأكثر تجربة، وأصحاب الفراسة القوية، كأهالي شرقاط؛ فالشرقاطيون عمال محترفون، وهم من القرية العربية المشهورة «شرقاط» أو «شركة» الواقعة بالقرب من أسوار آشور القديمة في المجرى الأوسط لنهر دجلة، وجميع رجال هذه البلدة، منذ عشرات السنين، أي منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين، يكسبون رزقهم من عملهم ومشاركتهم مع البعثات الأثرية الأجنبية أو الوطنية العاملة في العراق، و جعلت التجربة الطويلة التي تناقلوها من جيلٍ لآخر، منهم عمالاً محترفين في التعامل مع الأرض والتربة، فكل واحد منهم يلاحظ التغيّر في التربة خلال التنقيب، وباستطاعته تمييز الجدران المطمورة للأبنية القديمة تحت الردميات والتربة العادية منذ آلاف السنين.

كان يعمل معنا في البعثة في ياريم تبه في كل موسم، بين إثني عشر إلى خمسة عشر عاملاً من هؤلاء المحترفين، كان لهم رئيس، والرئيس عادة هو أكثرهم احتراماً وتجربة في العمل الميداني، وطوال فترة عملنا في ياريم تبه، كان رئيس العمال هو خلف الجاسم، وكان شخصاً طويلاً مائلاً إلى النحافة، ذا وجهٍ ملوّحٍ بالشمس، وهو في العقد الرابع من عمره، وكانت حلاقة شعره قصيرة، وذا نظرات حادة وذكية. وقد عمل مع بعثات أجنبية وعراقية كثيرة، ولكن عندما أصبح رئيساً للعمال، رفض العمل مع الإنكليز والألمان، ويبدو أنه اعتقد بأن الخدمة مع ورثة المحتلين السابقين ليس عملاً

وطنياً. عند قدوم البعثة السوفيتية سنة ١٩٦٩م عمل خلف الجاسم معنا حتى آخر يوم، علماً أن البعثات الأخرى كانت تقترح عليه أجراً أكثر مما يحصل عليه عندنا ولكنه رفض. وبشكل عام فإنّ الشرقاطيين أناس يشبهوننا نحن الآثاريين في أمور كثيرة؛ فهم مخلصون لمهنتهم كمنقّبين ويعملون أغلب أوقات السنة في البعثة بعيدين عن عوائلهم. وكل عامل من شرقاط يقابله أربعة أو خمسة عمال عاديين من سكان المنطقة المحيطة للموقع الأثري، وبهذه الطريقة كان عدد العمال يصل إلى أكثر من خمسين عاملاً.

كان منظر العمل في الموقع يبدو غريباً بعض الشيء؛ كان الشرقاطي يعمل وكأنه كاشف ألغام يمشي في أرض ملغومة، ويبحث بتؤدةٍ في التربة عن آثار الجدران الطينية للأبنية القديمة، ويرمي التربة إلى الخلف بعد أن يتم فحصها وتفتيشها بشكل جيد، وأخذ اللقى الأثرية من السوية، مستخدماً معولاً صغيراً ذا قبضةٍ طولها ٤٠ سم، وأداة صغيرة، مثلثة الشكل على شكل رفش يسمى «المر»، ومجرفة منزلية معدنية تسمى باللهجة العراقية «جمجا»، وفرشاة لكنس التراب، بالإضافة إلى سكين.

يضع العامل التراب في كيس، بينما يقوم عامل آخر، يسمى «حمال التراب» بنقل هذا التراب خارج مساحة التنقيبات. يلبس الشرقاطيون عادة بناطيل واسعة فضفاضة من الساتان أو بناطيل قطنية وفوقها معطف، والشيء الغريب والفريد في هذا اللباس هو الكوفية العربية المخططة بالأسود أو بالأحمر؛ في وقت البرد يغطون رؤوسهم وأعناقهم أيضاً بهذه الكوفية، و لعلّ المنظر الأكثر غرابة هو ملابس حمالي التراب التركمان الذين يعتمرون الكوفية ذاتها في أغلب الأحيان، ولكن بقية الملابس هي خليط بين النموذج الأوربي والشرقي، فإلى جانب الثوب العربي (الكلابية)، ذي اللون الأبيض أو السماوي الفاتح، والطويل حتى القدمين، فإنّهم يرتدون

معطفاً أوربياً أو معطفاً قصيراً ذا خطوط ومربعات كبيرة، اقتنوه من أسواق مدنهم، وهم يمشون حفاة عادة أو ينتعلون «شحاطاتٍ» بلاستيكية.

يقوم حمالو التراب بنقل التراب ببطءٍ وعلى وتيرةٍ واحدة، لكنهم يعملون طوال النهار في الحر والبرد، حاملين فوق أكتافهم، أكياسهم المشدودة بحبال قصيرة متدلية على الصدر والبطن. في هذا العمل الترابي الرتيب، يحدد العامل من الوهلة الأولى المد والجزر، والهم والفرح، وأخيراً يتم استعمال حيل صغيرة وكثيرة في عملية إنجاح العمل، كما أن إقامة علاقات صداقة طيبة في مكان العمل ترتبط بشخصية رئيس العمال، ومدى قدرته على حل المشاكل الصغيرة والكبيرة التي تحدث بين العمال، وقدرته على إيجاد الأجوبة السريعة لجميع ألغاز اللوحات الترابية والأرضية للتلال القديمة.

ليونارد ويلي الذي نقب تقريباً خمسة عشر عاماً في صحراء جنوب العراق، في مدينة أور القديمة، لم يعتقد عبثاً بأن منصب رئيس العمال له أهمية كبيرة في إنجاح العمل، حتى أنه يأتي من حيث الأهمية في المرتبة الثانية بعد رئيس البعثة، وقد شبّه، بكثيرٍ من الحماس، رئيس العمال الجيّد بالجوهرة الثمينة، وتباهى كثيراً بأنّه قد عثر بسرعة على ذلك الشخص أثناء التنقيب.

لا أعرف إن كان بإمكاننا أن نعتبر أنفسنا محظوظين لأنّ لدينا رئيس عمالٍ مثله؟ فقد كان خلف الجاسم الدعامة الرئيسية لعملنا على مدار عدة سنوات من عمل بعثتنا الناجحة في العراق.

جامعتي في ياريم تبه:

عندما انضممتُ إلى البعثة سنة ١٩٧٠م في ياريم تبه، تم فرزي إلى التل رقم٢ العائد إلى الحضارة الحلفية. مضى الموسم الأول بسرعة، لأنني عملت في التل ثلاثة أسابيع فقط، وكنت أفرز وأحلل الفخار الحلفي الرائع

وأنا جالس أعلى التلّ المعشب كل الوقت، ولم أكن قد رأيتُ منظر الحفريات المخيف، وجرار الفخّار والحفر الكبيرة، وبقايا التنانير، والحافات المستقيمة للحفريات.

في الموسم التالي، أصبح تعاملي مع المسائل المتعلقة بالتراب والأرض؛ فقد ذهبت سنة ١٩٧١م مع الزميل الذي عمل في موقع ياريم تبه لمدة سنتين، نيكولاي بدر، إلى موقع جديد للتنقيب، وهو موقع تل سوتو، الذي يقع غرباً على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات من مخيمنا ، وبكل فرح أسرع بتسليمي كل العمل في موقع ياريم تبه٢، وربت بيده الكبيرة والثقيلة علي كتفي بحيث جلست بشكل لا إرادي، وأسمعني الكثير من النصائح المفيدة، وسلمني، بطريقة احتفالية، رزمة المخططات الهندسية للحفريات، وصرخ قائلاً: « لقد تمّ الاستلام والتسليم، لا تخف، وبعد أن جلس في السيارة، قال: إذا حدثت أي مشكلة، فالشرقاطيون وخلف سيساعدونك».

ذهب بدر، وبقيتُ أنا في وسط حفريات ضخمة ومربعات محفورة في جسم التل العالي الترابي بيضوي الشكل؛ هي ستة مربعات مساحة كل مربع ١٠×١٠م؛ أي بمساحة إجمالية تبلغ ٦٠٠م٢، كما كان ارتفاع السويات المتبقية على الأرض البكر نحو سبعة أمتار.

أصبحت مهمتي صعبة؛ لأن التعامل مع الحفريات يحتاج الى التفكير والتحليل، وما كان يشغل بالي هو الحفريات التي يبلغ عمقها نحو ثلاثة إلى أربعة أمتار، وكانت الحفريات تشبه عملية جراحية ضخمة أظهرت ما بداخل التل الأثري. وتجمع أمام نظري عدد هائل من السويات والأبنية، وخطوط ترابية متعددة الألوان والسماكة؛ فكان بينها خطوط بينة وخضراء وحمراء، بالإضافة إلى الرماد الناتج عن المواقد والحرائق وأماكن النفايات، ومعالم الجدران الواضحة للأبنية، وحفر دائرية الشكل فيها آثار النار، وهي

التنانير التي كان بعضها يستخدم لصناعة الخبز، والبعض الآخر كان يستخدم كمواقد تقنية.

كل هذا معاً، يشكل تاريخ مستوطنة واحدة مجهولة غير معروفة، تعود للمزارعين الأوائل في سهول سنجار، وقد عاشت فترة تتراوح ما بين مائتين و ثلاثمائة سنة في منتصف الألف الخامس. والشيء الصعب في عملنا هو ربط السويات والطبقات التي تراها في مقاطع الحفريات التي يتم فيها العمل، ومن المهم جداً معرفة الطبقة والسوية الأثرية التي توجد فيها الأبنية السكنية والمستودعات، حيث يتم بذلك تحديد فترة زمنية محددة لها في المستوطنة، ومنها نعرف عدد بيوت المستوطنة وعدد سكانها في فترة زمنية واحدة في ياريم تبه٢.

عندما تنقب في موقع أثري ما، فإنك في الوقت نفسه، تقضي عليه بشكلٍ نهائي لا رجعة فيه، وهنا تكمن المشكلة، لذلك فإنّ مهمة عالم الآثار هي توثيق جميع المخلفات المادية للإنسان بشكل دقيق في الموقع، أما المسألة الثانية التي لا تقل أهمية عن التوثيق، فهي تحديد الفترة الزمنية وربط جميع السويات الأثرية ربطاً زمنيا ومكانياً، وها نحن ذا ننقب في تلّين أثريين (فترة حسونة وفترة حلف) يعودان إلى مرحلة المزارعين الأوائل في شمال بلا الرافدين، لكن المستوطنة جسم معقد جداً، فأجزاؤها المتعددة من الأبنية ذات الاستعمالات المختلفة؛ كأبنية المعيشة والمؤونة والأبنية الاجتماعية، وأيضاً المواقد والتنانير إلخ... كلها عائدة إلى فترات مختلفة، فمثلاً الوسط مرتفع والأطراف منخفضة، لأنّ الأبنية المشيدة كانت تعمر دائماً فوق التل القديم. وهكذا نرى بأن عالم الآثار يعتمد بالدرجة الأولى على مخطط الموقع والمقاطع الطولية للحفريات، لكي يستطيع أن يتعرف على جميع الأبنية العائدة إلى الفترة الواحدة في الجزء المنقّب عنه من التل. وعادة، تسمى الأبنية التي تعود إلى نفس الفترة الزمنية في علم الآثار بـ «أبنية أفقية

واحدة»، لكي تستطيع أن تحدد جميع الأبنية المنتمية إلى نفس الفترة، والأبنية الواقعة على نفس الافق، يجب حشد جميع المواد واللقى الأثرية والمعلومات المتعلقة بذلك والمستخرجة من الموقع. وبالتأكيد لم استطع أن أتعلم ذلك مباشرة، بل أخذ ذلك منّي عدة شهور من العمل المضني والبحث والاستكشاف، حتى تشكلت لدي الثقة بنفسي كإنسان مختص، وقد قدم زملائي في البعثة مساعدة كبيرة لي في هذا الأمر، ومنهم بلشكوف، وفلاديمير باشيلوف، ونيكولاي بدر، كما ساعدني الشرقاطيون، ورئيس عمالنا خلف جاسم الذي كان متواجداً في كل مكان، و كان يقضي جل وقته معنا في الموقع، و كان أكثر من يحاول فرز العمال ذوي الخبرة والتجربة للعمل معي.

أسرار المهنة:

في البداية كانت الصعوبة تكمن في التحدث مع العمال الشرقاطيين، وذلك بسبب عدم قدرتي على التحدث بالعربية، وكان توقعي خاطئاً بأن اتقاني للإنكليزية سوف يزيل العوائق، لأنني كنت أتوقع أن الجميع في العالم يجيدون اللغة الإنكليزية، وكانت محاولاتي في التحدث مع الشرقاطيين بلغة شكسبير وديكنز تبوء بالفشل على الفور، وتعلمتُ درساً مفيداً من فشلي بالتحدث معهم بهذه اللغة؛ فحتى أؤدي عملي بشكل جيد يجب عليّ تعلم اللغة العربية وبشكل سريع، ولتطبيق خطتي لتعلم العربية اقتنيتُ من إحدى مكتبات بغداد- قبل السفر إلى الوطن- كتاباً مفيداً جداً ذا عنوانٍ طويل» «تعلموا اللهجة العراقية باللغة العربية»؛ كان الكتاب باللغة الإنكليزية، فجميع الكلمات العربية مكتوبة بأحرف إنكليزية، مع الترجمة الإنكليزية للمعنى، وكان من الطبيعي أنّ تُلفظَ الكلمات العربية بشكل غير صحيح بسبب صعوبة نطق الكلمات العربية، لدرجة تحريفها.

في بداية الموسم التالي بدأت بحفلتي الكوميدية محاولاً أن استعمل الكلمات والجمل التي تعلمتها من كتابي السحري، وسؤالي عن أحوالهم وأحوال الطقس والأكل ...إلخ، وكان رد فعلهم الطبيعي على كلماتي هو الضحك الهستيري من قِبل جميع الحضور الشرقاطيين العرب والتركمان، لأنهم يفهمون من الكلمات التي كنت أنطقها بكل جدية معاني أخرى مما يجعلهم يضحكون ويمسحون دموعهم بأطراف معاطفهم وأيديهم الخشنة.

وبالرغم من ذلك باشر الشرقاطيون تعليمي اللهجة العراقية بشكل بطيء، مع إعادة وتكرار كل كلمة عدة مرات من أجل ان استطيع كتابتها بشكل سليم في دفتر يومياتي، وهكذا بدأت مسيرة تعلمي اللغة أو اللهجة العراقية، وعندما كنت أريد أن أتعلم كلمة معينة أثناء التنقيب، كنتُ أتقدم من أحد العمال و أسأله بكل ثقة بالعربية «شنو هاذا» بلغة ركيكة، وكان يجاوبني بكل رحابة صدر حتى أنطقها بشكل سليم مع كتابتها بالأحرف الروسية، وفي نهاية الموسم التنقيبي الثاني في ياريم تبه بدأت التحدث باللغة العربية ولكن بتردد ملحوظ، وبدأت استخدم معرفتي اللغوية في أسواق ومطاعم بغداد والموصل، لدرجة أنّ زملائي في البعثة اقتنعوا بحقيقة أنني ضليع في التحدث بالعربية.

بكل الأحوال، لقد اعترفوا بأنني الأكثر معرفة باللغة العربية بين علماء الآثار السوفييت في العراق، طبعاً بعد العالم المحترم والمختص في شؤون العرب، المنحدر من لينينغراد والقادم من معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية أوليك بلشكوف، لقد كنت متباهياً جدّاً بقدراتي، ولكني لم أشأ أن أميّز نفسي عن بقية أعضاء البعثة، وكنت أتظاهر بالسذاجة بكل تواضع، لكي أحافظ على المستوى الموجود في البعثة، ولكن رغم كل هذا لم أتعلم القراءة والكتابة باللغة العربية، فالكتابة عندهم معقدة جداً.

وإذا تحدثنا بشكل جدي، فإن نجاح عملنا في سهل سنجار كان بسبب احتكاكنا المباشر مع السكان المحليين، وقد كان أوليك بلشكوف يجيد العربية بشكل ممتاز، وكان رئيس البعثة رؤوف منجاييف الداغستاني، يتحدث التركية بطلاقة مع سكان القرى المجاورة من التركمان في الموصل وتل أعفر.

لكل اختصاص صفاته ونقاطه الخاصة في التعامل؛ فعامل الإطفاء يهتم بكيفية التعامل مع الناس، والأطباء يعتنون بالنظافة في الوسط الذي يعملون فيه، أما الآثاري فيحاول دائماً أن يحدد الفترة الزمنية لأي أثر مادي يقع بين يديه، و يعتبر تحديد التأريخ أو الكرونولوجيا لأي قطعة أو لقية أثرية شرطاً أساسياً في عمله، وكل قطعة صغيرة أو كبيرة يجب أن تكون لها بطاقة تعريفية تجاوب على الأسئلة التالية: من أين هي هذه القطعة؟ وإلى أي فترة تنتمي؟ ولكن ملء هذه البطاقة بالمعلومات المذكورة يتطلب الكثير من الوقت والجهد.

في علم الآثار يفرقون بين التأريخ (الكرونولوجيا النسبية) والتأريخ المطلق، فالأول يجاوب عن مسألة تراتبية، وتسلسل اللقى الأثرية؛ أيهما أقدم وأيهما أحدث، أما الثاني فيتحدد بشكل دقيق نوعاً ما بأعمار القطع والمواد الأثرية، والتأريخ النسبي يعتمد على الاستراتيغرافيا، أي التسلسل الطبقي للموقع، لأن توضّع الطبقات في الموقع الأثري يشبه توضّع طبقات قالب الكاتو الذي يقطّعه معول الآثاريين بدلاً عن السكين، وكلما كانت القِطع أو اللقى تقع في السويات أو الطبقات الدنيا كلما كانت أقدم. أما الطريقة الثانية التي يستخدمها علماء الآثار هي التبالوجيا، أي دراسة أشكال وأنواع اللقى الأثرية من نوع واحد، وتطورها زمنياً ومكانياً من أبسط أشكالها حتى أعقدها.

كان التأريخ المطلق يعتمد سابقاً على الشواهد الكتابية غير الواضحة تماماً، لكن المعادلة تغيرت عندما مد علماء الفيزياء يد العون لعلماء الآثار، وذلك عند اكتشافهم طريقة الفحم المشع (C14)، في بداية الخمسينات من القرن الماضي، لتحديد التأريخ المطلق للقى الأثرية، والحدود المعروفة حتى ذلك الوقت للتاريخ الباكر للإنسان أصبحت أقدم، فتوغلنا بفضل ذلك إلى العصر الحجري القديم.

اللقاءات السنجارية:

لقد كان العمل يأخذ منا كل وقتنا، ولكن من يفكر بأننا كنا نقضي الوقت كله في الحفريات، ورسم المخططات الكنتورية على الورق المليمتري أو فرز الكسر الفخارية على سفح التل فهو واهم، فقد كانت الحياة اليومية تتحكم فينا بشكل دائم، وتتدخل في محميّتنا الأثرية؛ إذ كانت توجد قربنا بعض القرى الصغيرة والمبنية من اللبن مثل: قيزل محراب، قيزل كويوك، خراب دجاش، ومن أجل سهولة التعامل ونطق التسمية سمينا كل قرية باسم أحد أبنائها المشهورين "طبعاً حسب رأينا ورأي الذين يعملون عندنا"، مثلاً قرية "حسن" كانت باسم أحد عمالنا من نفس القرية، وقرية "مودامين" باسم حارسنا محمّد أمين...

كانت أقرب قرية تبعد عنا حوالي ١,٥ كيلو متر، وكان منظر المنطقة المحيطة بياريم تبه جميلاً جداً، ولا سيّما في المساء عند حلول الظلام، حيث يتم إشعال "اللوكس"(وهي لمبة تعمل على الكاز ذات ضوء قوي) أو المصابيح الكهربائية في جميع القرى، في سلسة طويلة أو قصيرة حسب حجم القرية، وكانت هذه المصابيح تنافس بلمعانها نجوم القبة السماوية الجنوبية، ولكن كل هذا اللمعان كان يمكن مقارنته مع المنظر الليلي لتل أعفرالذي كان يحتل كل الأفق الشرقية.

ليس من الغريب أن يكون ظهورنا في ياريم تبه حدثاً مهماً بالنسبة للسكان المحليين؛ كان هذا فضولاً طبيعيّاً وإيجابيّاً تجاه الأجانب القادمين من شمال الأرض، الذين يمكن الاستفادة منهم من الناحية المادية أيضاً؛ فلم يكن ثمة عملٌ جيّد في تلك المنطقة، و كان القرويّون بحاجة إلى نقود، لهذا وجدنا أنهم يقبلون العمل معنا بكل سهولة، وليس مقابل أجرٍ ماديٍّ كبيرٍ كما كنّا نعتقد، لأنّ العمل ليس بعيداً عن منازلهم أيضاً، وغير متعب ويستمر شهرين.

يجب القول إنّ التركمان المحليين كانوا غير أغنياء؛ كانوا يملكون قطعاً صغيرة من الأراضي الزراعية، وفي كل قرية كانت تعيش عدة عوائل تربطهم صلة قرابة، ومصدر رزقهم هو ما يحصلون عليه من مواسمهم الصغيرة، وكان من عادة ميسوريهم أن يقتنوا سيارة شحن صغيرة (بيك آب) أو جراراً زراعياً، وكانت الدورة الزراعية هنا بسيطة بشكل عجيب؛ فالفلاح صاحب الأرض، كان يتفق بداية فصل الشتاء مع صاحب الجرار لكي يقوم بحراثة أرضه وزراعتها مقابل أن يعطيه صاحب الأرض في موسم الحصاد عدة أكياس من القمح أو الشعير، وعادة ما كان صاحب الجرار يقضي عمله في الوقت المحدد واللازم، بعد ذلك يقوم الفلاح بالابتهال والدعاء إلى الله ليرسل إلى أرضه حاجتها من الأمطار في الوقت المحدد. في الحقيقة كانت نسبة الأمطار في هذه المنطقة من سهول سنجار الواقعة بالقرب من سفح الجبل كافية لكي يحصل الفلاح على كمية جيدة من المحاصيل الزراعية من القمح والشعير، ونادراً ما كانت هنالك مواسم جفاف، حيث كانت تموت المزروعات وتحلّ المجاعة.

أما في موسم الحصاد يقوم صاحب الأرض أيضاً باستئجار حصادة مقابل نسبة من المحصول، وإذا كان المحصول وفيراً، يوفي الفلاح جميع ديونه، ويخزن جزءاً من الحبوب في البيت، أما الباقي فيبيعه في المدينة

ويحصل على كمية من النقود، وعادة يزاول الفلاح أعمالاً حُرّةً أخرى، إذا ما سنحت له الفرصة، وذلك لتأمين الحطب، والعلف للحيوانات وزراعة بستان الخضروات التي يعتمد فيها على مياه أقرب نهر إليه، و استجرارها بطريقة بدائية... وهكذا دواليك.

غير أنّ ثقل العمل والجهد الأساسي في البيت يقع على عاتق النساء، فتحضير الطعام وصناعة الخبز، وغسل الثياب، والعناية بالأطفال هي مسؤولية المرأة، والأسرة هنا كبيرة إذ يصل عدد الأطفال إلى عشرة، ولهذا السبب فإن العمل الشاق وكثرة الإنجاب يجعل النساء ممّن تتراوح أعمارهنّ بين ٣٠ و ٣٥ يبدون وكأنهنّ عجائز، وحسب العادة الإسلامية لا يجوز للمرأة المتزوجة الظهور أمام الغرباء أو التحدث معهم.

الفتيات التركمانيات كنَ أكثر حرية؛ كثيراً ماكنا نراهم في شوارع القرى يرتدينَ فساتين زاهية وسراويل ضيقة طويلة مطرزة بخيوط ذهبية اللون أغلب الأحيان، وكان منظرهنّ يبدو احتفالياً. أما الرجال فكانوا سمراً لدرجة السواد، وذوي منظرٍ مهيب، وكان للكثير منهم بشرةٌ شقراء وعيونٌ زرق. تشكلت بيننا وبين السكان المحليين علاقات طيبة، كما ذكرتُ سابقاً، والسبب الرئيسي في ذلك يعود إلى ممثلي المديرية العامة للآثار العراقية، الذين كانوا يعملون معنا (كل سنة كان يعمل معنا شخص واحد ونادراً اثنان)، وكانت مهمتهم تقديم جميع أشكال العون لعملنا العلمي في البلاد، بالإضافة إلى مراقبة الحفريات، وإحاطتنا بالقوانين المتعلقة بالأجانب المنقبين في العراق.

جرت العادة أن تتشكّل بيننا وبينهم علاقات صداقة طيبة خلال الأسبوع الأول، وأريد هنا أن أذكر أسماء هؤلاء الممثلين الذين عملوا معنا وأن أتقدّم إليهم بجزيل الشكر؛ اسماعيل حجار، زهير رجب ، ياسين رشيد صلاح، سلمان الكموري، مزاحم محمود، جرجس محمود، وصباح عبود؛ هؤلاء

كانوا مساعدين جيدين لنا، واعتقد أنهم استفادوا أيضاً منا من الناحية العملية، وكنا نستمتع بالتجول في سهول سنجار، في جميع أوقات فراغنا وأيام العطل، من أجل توثيق واكتشاف التلال الأثرية المحيطة بموقع ياريم تبه، وكذلك لإشباع حب الاطلاع لدينا.

وجدت الكثير من الأمور الممتعة خلال هذه السنين، ولكن سوف أتطرق إلى حادثتين، اعتقد أنهما ممتعتان؛ الأولى هي ذهابنا إلى البدو في أبوسينم، والثانية ذهابنا إلى البلدة اليزيدية سنجار.

في ضيافة البدو:

في إحدى صباحات نيسان المكفهرة والماطرة سنة ١٩٧٩م كنا جالسين في غرفة المخبر في معسكر البعثة، نمارس عملنا اليومي؛ فمنّا من يكمل رسم المخططات، وآخرُ يرسم ويوثّق اللقى الأثرية في دفتر اليوميات، ومنّا من كان يطالع كتاباً. و كان يوم الجمعة يوم عطلة في البلاد الإسلامية، وبسبب كثرة العمل لدينا لم تدخل ضمن خططنا أية رحلة إلى خارج المخيم، وكنا نقوم بإنهاء على ما تبقى من واجباتنا المتأخرة دون أي حافز معنوي.

في حوالي الثانية عشر ظهراً توقف المطر وتفرقت الغيوم وظهرت من خلالها الشمس التي بدأت تقضي على الرطوبة في الجو، وفجأة سمعنا صوت محرك سيارة تتوقف بالقرب من بيت البعثة الطيني، وسمعنا بعدها صوت البوق؛ ضيفٌ غير منتظر. من هذا الذي قرر الحضور إلينا في هذا المكان النائي، وخلال ثواني كنا خارج المنزل أمام الباب؛ وجدنا شخصاً ذا مظهر أنيق يرتدي طقماً أسود، وقميصاً ناصع البياض وربطة عنق، وله وجه دائري؛ نعم إنه صديقنا القديم ومنقذي، الدكتور محمّد تقي من سكان تل أعفر ومدير المشفى الحكومي فيها، وهو الذي ساعدنا في التخلص من إحدى مشاكلي الصحية التي ألمّت بي في السنة الأولى من مجيئي إلى

العراق، بسبب انتقالي من المناخ الأوروبي المعتدل إلى المناخ القاري في سهول سنجار. فبسبب جهلي وعدم انتباهي، سبحت في أحد الأيام الحارة في مياه النهر الباردة، وأصبحت ضحية الأنفلونزا والميكروبات المعوية، وارتفعت درجة حرارة جسمي بسرعة ووصلت إلى أكثر من تسع وثلاثين درجة مئوية، وتسارعت دقات قلبي مثل محرك سيارة، ولم يكن الجوّ بشكل عام في المخيم مناسباً، وكان تأثيره ينعكسُ سلباً عليّ ، وكان الغبار السائد في كل مكان يغطي الوجوه والأسرة وفرش النوم، وكان يدخل خيمنا عبر الشقوق.

كل هذا كان له تأثير كبير على حالتي النفسية و يزيدُ من شعوري بالتعاسة، هذا الشعور الذي لم أشعر به قط في حياتي، كان نتيجةً لوضعي الصحي السيء على ما يبدو. قلت لنفسي: لقد ودعت أهلي وعائلتي الحبيبة إلى الأبد وهم يعيشون بعيداً عني. كنت قد رأيت أشخاصاً كثيرين، وعلى الرغم من أنّهم كانوا في ريعان الشباب، إلّا أنهم كانوا، عندما يمرضون، يصبحون متقلّبي المزاج ومستسلمين للمرض مثل الأطفال ، وهذا ما حلّ بي في مرضي، وأنا أبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين سنة.

لا أعرف هل كنت مريضاً لهذه الدرجة أم أن منظري كان مزرياً، بحيث انطلق رئيس البعثة، رابط الجأش والصبور، إلى تل أعفر ليحضر الطبيب محّمد تقي، الذي طلب مني خلع ملابس الجزء العلوي من جسمي، وبدأ بمعاينتي، وبعد ذلك طلب منّي أن أتمدّد على بطني، وبكل سهولة أسعفني بإبرتين من البنسلين والفيتامينات المقوية؛ كان أثناء القيام بعمله يردّد كلماتٍ، جرت العادة أن يتمّ تداولها في الشرق، من قبيل: "الله كريم"، وكلماتٍ أخرى لم أسمعها.

وكان رفاقي في المخيم يراقبون عمل الطبيب بكل اهتمام. يجب القول إنّ إبر الطبيب تقي أثرت فيّ بشكل إيجابي وسحري؛ سرعانما انخفضت

الحرارة إلى حدّها الطبيعي، كما جفّ العرق وغرقتُ في نومٍ عميقٍ، تابع الطبيب هذا الإجراء لمدة يومين متتاليين؛ حيث كان يأتي من تل أعفر إلى ياريم تبه قاطعاً حوالي عشرين كيلومتراً ذهاباً وإياباً. شفيت بعدها على الفور، وأصبح الطبيب محمّد تقي، في نظر زملائي أعضاء البعثة، منقذي وعرّابي.

تم ذكر هذه الحادثة الصغيرة تلك السنة في مقالٍ بجريدة "برافدا" عندما كانت تكتب عن أعمال البعثة السوفيتية في العراق. وفي الموسم التالي، أعطينا الطبيب محمّد تقي هذه المقالة التي تم فيها ذكر اسمه، فوضعها بفخرٍ ضمن إطار خشبي وعلقها في عيادته، وأصبح بعدها صديقاً لنا، وصار يزورنا بشكلٍ دوريٍّ كل موسم، ليس كطبيب معالج، وإنما كسائح يريد أن يتعرف على آخر المعلومات الأثرية في البعثة.

لكن مجيء الطبيب تقي إلى ياريم تبه اليوم كان لغاية مختلفة كلياً، فقد جاء يدعونا إلى وليمة احتفالية في قرية "أبو سينم" التي تبعد عن مخيمنا حوالي أربعين كيلومتراً، وهي تقع في قلب سهول سنجار في الجزيرة. الدعوة، كما عرفنا فيما بعد، أقامها أحد شيوخ البدو على شرف الطبيب تقي، الذي عالج ابن أخيه من مرض خطير، والعرض بأن نكون ضيوفاً عند البدو (على الرغم من أنّ تأثير الحضارة المعاصرة كان واضحاً عليهم) كان مغرياً جداً، فوافقنا بدون تحفظ.

انطلق هدير محرك السيارات، وها نحن ذا في الطريق؛ سارت في المقدمة سيارة ليموزين فولفو، جلس فيها الدكتور تقي ورئيس البعثة رؤوف محمّد منجاييف، والدكتور نيكولاي ميربيرت، وعالم الآثار الأذربيجاني أيدين ناريمانوف، وخلفهم كانت سيارة الجيب القديمة خاصّتنا، التي كانت تسمى الكاسباسن، والتي تعني بالتركمانية السائر إلى الأمام. كانت السيارة تثير الغبار في السهول، وكنّا جالسين نحن الدكاترة آليك بلشكوف ونيكولاي

بادر وفلاديمير باشيلوف وآندري كوزا، وأنا، وكالعادة جلس ميشا خلف المقود وعلى رأسه قبعته القديمة ذات اللون الأزرق الغامق. غابت ياريم تبه ومخيم البعثة عن الأعين بسرعة. إنّنا نسير على أرضٍ مستوية مثل سطح طاولة، وقليلاً ما تظهر لنا أرضٌ خضراء مزروعة بالقمح والشعير.

كان الجو خانقاً، وكان الغبار يدخل إلى أفواهنا و يغطي أسناننا، بحيث لم نكن نستطيع التحدث، قطعنا نهراً جافاً وواسعاً، وتابعنا المسير بشكل رتيب في السهول العارية. كانت قرية أبو سينم تبدو كبيرة بعض الشيء، وتتكون من بيوت طينية وخيم سوداء مصنوعة من شعر الماعز، وكان سكانها من العرب البدو الذين يمضون أغلب أوقات السنة متنقلين خلف مواشيهم في المناطق الجبلية.

توقفت السيارات أمام منزلٍ حجري كبير، واستقبلنا على عتبة المنزل شيخ القبيلة أحمد، وهو عربي ممتلئ القوام ذو وجه دائري، وكان يعتمر كوفية ناصعة البياض، ويرتدي عباءة سوداء مطرزة بالخيوط الذهبية، إلّا أنّ أخاهُ الأصغر علي، كان الشخصية النشطة والمرحة في هذه المناسبة، وهو شخص أنيق ذو عيون عسلية، ويناهز عمره حوالي خمسةً وثلاثين سنة، وهو الذي نظم هذه الدعوة بمناسبة شفاء ابنه الذي عالجه الدكتور محمّد تقي، وكان حولهم أناس كثر، ويبدو أنهم أقاربهم وأصدقاءهم أو هم من أهل القرية الفضوليين.

بعد أن تم الترحيب بنا مطوّلاً ، كما هي العادة في الشرق، أدخلونا إلى غرفة مستطيلة فارغة، وكانت مفروشة بسجاد ومخدات على طول الجدران، مخصص للضيوف، وأجلسنا صاحب البيت على هذه المقاعد غير المألوفة بالنسبة لنا، وبدأنا نتمعّن ما حولنا بفضول؛ إلى يمين الباب كان ثمة "بابور" عصري واطئ، متصل بأسطوانة غاز، يجلس بقربه عربي يعتمر كوفية حمراء مخططة ويرتدي بدلة سوداء مزدوجة الطراز؛ الجاكيت

الأوربي فوق كلابية طويلة تصل إلى أخمص القدمين، مع شق في أسفل الجانبين. كان يساعده صبي نشيط يبدو في الثانية عشر من العمر. كان "القهوجي" يدعى كامل على ما اعتقد، وكان يقوم بطحن البنّ وتحميصه في آنية بطول متر من النحاس، وذلك بواسطة هاون معدني، كان يقوم بذلك بحذرٍ ولكن بصخبٍ موسيقي، و كان يحرّك بيده الأخرى حبوب القهوة الموضوعة على النار، ثم يضع الوعاء المملوء بالماء على النار ويتابع دق حبوب القهوة. عندما بدء الماء بالغليان وضع كامل القهوة المطحونة بحذر في الماء المغلي، وبدأ بتحريكها بأداة خشبية تشبه الرفش الصغير، ثم وضعها مرة أخرى على النار، و جعلها تغلي ثلاث مرات، وأخيراً أضاف إليها الهال؛ عندها أصبحت القهوة جاهزة، وبدأ كامل بتقديم القهوة إلينا، وكان يضع قليلاً من القهوة في قعر فنجان خزفيٍّ صغير، وللعلم فإنّ القهوة العربية مشهورة بمرارتها.

هذا السائل الأسود اللون ذو النكهة الرائعة والمذاق الطيب يتفاعل مع الجسم بشكل غير عادي وسريع؛ حيث تشعر بالخفة والارتياح، ويذهب عنك التعب والصداع، وبحسب العادة البدوية يجب أن تُشرب القهوة على دفعتين أو ثلاث، ولا ينبغي شرب أكثر من ثلاثة فناجين.

في هذه الأثناء كان الشبان يفرشون الأرضية بقطعة من النايلون ويضعون أمام كل ضيف كؤوساً وصحوناً وملاعق وشوَك؛ الكؤوس ليست لأجل الخمر بطبيعة الحال، وإنّما لشرب الماء البارد واللبن الحامض الذي يصنع من حليب الأغنام، بعد خلطه مع الماء. والبدو، حالهم كحال أغلب القرويين في العراق؛ لا يشربون الخمور، ويعتبرون شربها من الكبائر.

وضعوا على طاولتنا الغريبة أواني وصحون عميقة مليئة بسلطة الخيار والبندورة والخس والبصل الأخضر وخبز التنور وتوابل مختلفة، وأخيراً، وبهيئة احتفالية، أدخلوا الطبق الرئيسي، وقد كان صحناً كبير جداً من

الألمنيوم، عليه جبل من الأرزّ المطبوخ بدهن الخروف مع الزبيب، وفوق الأرز لحم خروف كامل مقطع الأوصال، وكان المضيف يضع قطع اللحم الجيدة بيده أمام الضيوف. كان بإمكاننا أن نتناول الأكل بواسطة الشوكة والملعقة، ولكن تجري العادة هنا أن يأكل المرء بيده؛ اليمنى تحديداً. بعد انتهاء الضيوف من الطعام يأكل رجال البيت، ثم يُعطى ما تبقى للأطفال. بعد ذلك قمنا بشرب الشاي؛ حيث يُسكبُ الماء في كؤوسٍ زجاجية صغيرة، ويضاف إليها السكر، ثمّ يُسكب عليها شاي ثقيل جداً.

بعدها غسلنا أيدينا ونحن جالسين في أماكننا؛ حيث كان أحد الشباب يقوم بصب الماء من أبريق معدني على طشت، ويرافقه شاب آخر يحمل بيده منشفة، لنجفّف بها أيادينا.

عبدة الشيطان:

عندما كان الموسم يقترب من انتصافه، وكان يبدو علينا التعب والملل من العمل، كنا ننتظر على الدوام يوم العطلة الأسبوعية (الجمعة)، لكي نخرج في رحلة ترفيهية إلى أحد الأماكن القريبة، وكانت أهم وجهاتنا السنوية مدينة سنجار الواقعة بالقرب من الحدود السورية، والتي تبعد عن مخيمنا قرابة خمسين كيلومتراً باتجاه الغرب، وسبب قصدنا لها هو منظرها الرائع، وتكوينها الإثني، حيث يعيش فيها "عبدة الشيطان- اليزيدين".

في الطريق إلى سنجار، خلال ساعة من الزمن، تخرج من بلاد الطين والسهول إلى حيث الجبال والأبنية الحجرية؛ هنا كل شيء مختلف، يجذبك المنظر الخارجي للسكان والبيوت والتضاريس والمكان. المدينة منتشرة عند سفح الجبل بشكل سحري، حيث يجري نهر جبلي سريع، وعلى جانبي هذا النهر تنتشر الخضرة من حدائق وبساتين. البيوت في سنجار عبارة عن

قلاع صغيرة مبنية من القطع الحجرية المتوسطة، والملاط بين الحجر هو الإسمنت، ويمنح شكلها المرء انطباعاً غريباً. شبابيك هذه البيوت صغيرة وضيقة، وهي عادة تكون نحو صحن الدار، أما من جهة الشارع فهناك جدران حجرية وحسب، وأبواب معدنية غير محكمة الإغلاق.

هنا يعيش الكرد والعرب والأرمن، كما يوجد بين سكان المدينة المسلمون والمسيحيون وعدد كبير من السكان الإيزيديين، و لعلّ الأمر اللافت هو وجود علامة الصليب على أبواب المسيحيين. كانت سنجار، قبل ألفي سنة، مركزاً رومانياً محصناً ومهماً في الصراع مع البارثيين، للهيمنة على حدود بلاد الرافدين.

على الجبل العالي، تطل على المدينة بقايا حصن روماني، وهي عبارة عن أساسات عدد من الأبراج الأثرية. بقايا جدار الحصن مبنية من الحجارة الصفراء الكبيرة، وقد بنى عدد من السكان منازلهم على هذه الأبراج العالية.

عندما رآنا الأطفال المنتشرون في أرجاء المدينة الشرقية ومعنا آلة تصوير، دعونا إلى الطابق العلوي لأحد البيوت لأجل التصوير، حقاً كان المنظر خلاباً؛ كانت المدينة كلها تحتنا، وكان يظهر شريط النهر والبساتين والخضرة على ضفتيه والمنارات العائدة إلى القرن الثاني عشر، وينتهي هذا المنظر في الشمال الشرقي متحداً بجبل سنجار، كما تلوح من بعيد قبة مضلعة لأحد الأضرحة الإيزيدية، ويقطع المدينة شارع رئيسي واسع من الشرق إلى الغرب، وعلى جانبيه تقع المحلات التجارية والمقاهي والمطاعم الصغيرة والمخابز، ويعد هذا الشارع المركز الرئيسي للحياة الاقتصادية والثقافية في سنجار، فهنا يمكنك شراء جميع حاجياتك والجلوس في المقهى وتبادل الأحاديث ومعرفة الأخبار.

في زيارتي الأولى إلى سنجار لفت انتباهي أناس ذوو لحى وشوارب وشعر طويل مجدول، يرتدون زيّاً غريباً، ويعتمرون قبّعاتٍ من صوف

الأغنام الأصفر، وذلك خلال شهر نيسان الحارّ نسبياً في هذا المكان، بالإضافة إلى ارتداء معاطف طويلة دافئة بألوانٍ مختلفة، كالأخضر والأصفر، والأصفر الفاتحقليلاً.

باءت كلّ محاولاتي في التقاط صورٍ لهم بالفشل، لأنهم كانوا يديرون ظهورهم، أو يضعون أيديهم على وجوههم، حتى أن بعضهم حاول كسر آلة التصوير، كما أن ظهورنا في هذه المدينة الحدودية الصغيرة لم يكن دون انتباه السلطات الأمنية المحلية، فبعد فترة وجيزة من وصولنا، ظهر بجانبنا، فجأةً، رجل في لباس مدني، طلب منا بكل احترام النظر إلى أوراقنا الثبوتية وأوراق الإقامة، وعند التأكد بأن كل الأمور على ما يرام طلب منا أن يرافقنا كدليل في المدينة، فقد كان ذلك أسهل له من مراقبتنا. كما أنه ساعدنا أيضاً في هذا العش الإيزيدي. عندما عرف رجل الأمن بالصعوبة التي تواجهني في التقاط الصور للرجال الإيزيديين، تلفّت حوله على الفور، وأوقف رجلاً إيزيدياً مسناً يمتطي حماراً، وتحدث إليه آمراً، بلهجةٍ لم نفهمها، فترجّل العجوز وانتظر بكل صبر حتى التقطت له بعض الصور. فيما بعد، وبعد مضيّ أعوام، لم نعد نجد أية صعوبة أو مشاكل في التجول في البلدة، وكنا نصل إلى جميع أزقتها ونصور ما نشاء ونحن نتحدث مع السكان المحليين.

بينما كنتُ جالساً على ضفة النهر تحت ظل الأشجار، انتبهتُ إلى أنّ مياه النهر تجري تحت قنطرةٍ رومانية مبنية من الحجارة التي كنا رأيناها في بقايا الأبنية الرومانية والقلعة، وفي المدينة أيضاً هنالك منازل كثيرة مبنية على أساسات أبنية رومانية ومن أحجارها المتبقية. التاريخ يحيا هنا إلى جانب الحياة المعاصرة، والسكان المحليون في سنجار يكتشفون مِراراً مدافن رومانية، وكانت تظهر في السوق بعض القطع الأثرية، مثل أدوات

الزينة والعملات الفضية أو الذهبية، منقوش عليها صور أباطرة روما القديمة.

ولكن الشيء المميز في البلدة هو الإيزيديون.

من هم الإيزيديون؟

كتب المستشرق السوفياتي "غيراسيموف": "عدا عن المسلمين والمسيحيين في هذه البقعة من العراق يعيش الإيزيديون؛ أصحاب الديانة السرية، ولا توجد معلومات دقيقة عن أصل هذه الديانة، وهي خليط من الزرادشتية؛ ديانة شعوب إيران القديمة، والديانة الإسلامية والمسيحية النسطورية واليهودية. تنطلق الإيزيدية من بدايتين عند خلق الكون هما: الخير والشر، النور والظلام، وهم يؤمنون بالله جالب الخير، والشيطان - الروح السلبية- (طاووس ملك)، وهم يحاولون في كل كلّ ما يقومون به كسب رضى الشيطان، وعدم ذكر اسمه أو أي إشارة إليه، ويقدسون هيئة طائر الطاووس في الطقوس الدينية، ويحملون تماثيله المعدنية الصغيرة، ويقدمون له هباتٍ ذهبية وفضية. الإيزيديون لا يأكلون لحم الديك لأنه يشبه الطاووس، ولا يأكلون السمك لكي لا يغضبوا الملك سليمان، ولا يأكلون الخس لأن الشيطان يختبئ بين أوراقه، وأيضاً لا يأكلون لحم الغزال، ويطولون شعرهم على شكل جدائل، ويحجون إلى أضرحة شيوخهم المقدسة، ويصومون ثلاثة أيام في ديسمبر / كانون الأول، وعند الصلاة يتجهون نحو الشرق. هنالك عدة آراء عن تسمية هذه الديانة، وهم يسمون أنفسهم "داسيني"، وذلك نسبة لاسم جبل داسن الواقع في الأراضي التركية على الحدود العراقية والإيرانية والتركية، ويتكلمون اللغة الكردية، ولكن بينهم أناس بهيئات فيزيولوجية مختلفة".

يعتقد بعض العلماء بأن تسميتهم جاءت من كلمة يزدان، التي تعني في بعض اللهجات الكردية والفارسية الرب أو الإله، وكان المؤرخون المسلمون في القرن الثاني عشر الميلادي أوّل من جاءوا على ذكر الإيزيدية، إذ ذكروا أن الديانة الإيزيدية كانت تسمى قديماً "العدوية" نسبة إلى مؤسسها الشيخ عدي بن مسافر المتوفى سنة ١١٦١م، ويرى علماء آخرون أن تسميتهم مستمدة من اسم الخليفة الأموي يزيد بن معاوية.

يبلغ عدد الإيزيديين أكثر من ١٥٠ ألفاً، وهم يتوزعون بشكل رئيسي في العراق وتركيا، ويتمركزون في العراق في المناطق الجبلية في الموصل. وتنتشر قرىً لهم في جبل مقلوب. هنا في عين سفني يعيش زعماؤهم الروحيون (المير)، وليس بعيداً عن هذا المكان، يوجد ضريح الشيخ آدي ومريديه الأوائل، والمنطقة الثانية التي ينتشر فيها الإيزيديون هي جبل سنجار، ولم يتوغّلوا بين جبال هذه المنطقة بدون سبب، فقد تعرّضوا للاضطهاد قديماً على يد العباسيين، ومن بعدهم الأتراك العثمانيين، ولم يسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية، لأنهم لا ينتمون إلى أي دين من الأديان السماوية؛ الإسلام أو اليهودية أو المسيحية.

في الجمعة الأولى من السنة الجديدة يحتفل الإيزيديون بعيد الطواف، ويشاركهم في الوقت الراهن المسلمون والمسيحيون، ويستمرّعيد الطواف شهراً كاملاً، وتكون بداية العيد نهار الخميس وليلة الجمعة، حيث يجتمع الرجال والنساء والأطفال والشيوخ في الساحات ويمارسون شعائرهم، وفي صباح يوم الجمعة يقومون بإعداد الوجبة الرئيسية، وهي البرغل مع اللحم، حيث يتمّ طبخها في قدور ضخمة، ويجتمع المطربون والموسيقيون، ويعزفون على الناي المصنوع من الخشب، ويقرعون الطبول، ويقدم إليهم الإيزيديون النقود لإضفاء الحيوية والنشاط على الاحتفال، ويسقونهم

مشروبات روحية، مثل العرق في أقداحٍ غير عميقة من المعدن، وعند ذلك يسيل العرق على شواربهم ولحاهم الطويلة.

يقف الموسيقيون وسط حلقة الرقص، ويرقص الرجال بعمائمهم البيضاء وصدرياتهم التي لا أكمام لها، ويأخذون بأيدي النساء؛ نساء الإيزيديات جميلات، وخاصة في الحفلات، فهن فارعاتُ القوام، ذوات أجسامٍ مرنة عند الحركة، يلففن أجسادهن بقماش أبيض رقيق مطرز بالخرز، وأثناء الرقص يدورون في دائرة جميلةٍ منسّقة، ويستمر الحفل نحو ثلاث ساعات، وبعد ذلك يبدأ الرجال بركوب الخيل وإطلاق الرصاص في الهواء، إعلاناً عن بدء منافسات الفروسية، وعند الانتهاء من ذلك، يعودون إلى حلقة الرقص ثانية، ولكن هذه المرة بحضور زوجة المير وبقية أفراد عائلته.

هكذا تبدو البلدة الصغيرة سنجار القابعة على سفح الجبل، والواقعة على حدود دولتين، إنّها تعيش زمنها الخاص، بعيداً عن صخب الحياة.

الفصل الثالث

ياريم تبه ٢:

البحث والاكتشاف

يعمل عالم الآثار المعاصر دائماً ضمن خطة معينة موضوعة بشكلٍ مسبق، ولكن بشكل عام، يستطيع أن يتوقع العثور على اللقى الأثرية التي من الممكن اكتشافها في الموقع الأثري، ويبقى دور الصدفة والحظ كبيراً في مسألة علم الآثار بالنسبة للمنقب.

ينقب بعض علماء الآثار لفترات طويلة قد تصل إلى عشر سنواتٍ أو عشرين سنة، بحثاً عن دليل مادي لإثبات نظرياتهم، ولكن دون جدوى، ومن جهة أخرى، وبشكل عام، فإن بعض الاكتشافات التي تتم عن طريق الصدفة قد تغير النظريات القائمة التي كنا نعمل بها لمدة طويلة، وهذا بالتحديد ما سأتحدث عنه فيما يلي.

حدث ذلك في نيسان عام ١٩٧٦م في التل الحلفي ياريم تبه٢. كان ربيع هذه السنة ماطراً في شمال غرب العراق، وكان الجو مكفهراً، وكان المطر يعيق أعمال الحفريات، لأن مياه الأمطار كانت تجتمع في الحفريات العميقة وتؤثر على الجدران القديمة للأبنية الطينية المكتشفة للتوّ من قبل الشرقاطيين، ورغم كل ذلك كان البحث في ياريم تبه٢ يحمل لنا اكتشافات ممتعة. فقد كانت اللقى الأساسية والكثيرة، التي تبدو للوهلة الأولى غير

مفيدة، هي آلاف الكسر للأواني الفخارية، إلا أن أدوات العمل المصنوعة من العظم والحجر، وبقايا الأبنية هي التي كانت تعطينا المعلومات الضرورية عن الحياة البائدة منذ زمن بعيد، لقبائل وثقافات لا اسم لها ولا كتابة، والضائعة في دهاليز التاريخ منذ آلاف السنين.

يحلمُ كل عالم آثار، أثناء قيامه بعمله، أن يصل للحظة المجد، ويكتشف لقية أثرية مهمة، وبالفعل هكذا تأتي لحظات المجد.

في الساعة العاشرة صباحاً من اليوم الحادي عشر من نيسان، كان الصباحُ مشمساً والرياح تهبُّ من الجهة الشمالية للأفق، وفوق الجبال احتشدت الغيوم السوداء الماطرة، أمّا فوق موقعنا الحلفي، فكانت الشمس ساطعة وكان العمال يؤدون عملهم كخلية نحل؛ كان العمال الشرقاطيون، يضربون بمعاولهم الصغيرة الأرض القاسية للسويات الأثرية بضرباتٍ منتظمة، بينما يقوم حمَلَة التراب بنلقه مباشرة إلى خارج الموقع، وكانت الآلية المتبعة في ياريم تبه عبر السنين هي ذاتها، وكانت على وتيرة واحدة، لكنّها كانت معقدة بعض الشيء. بعد أن أعطيت العمال التعليمات اللازمة قررت أن أذهب إلى ساحة فرز الفخار، لمتابعة العمل.

عند الساعة العاشرة صباحاً، أقبل نحوي أحد العمال الشرقاطيين مسرعاً؛ إنّه العجوز محمود، كان مضطرباً ويتكلم بصوت عالٍ مكرراً جملة واحدة (أكو كلّش)، أي "توجد كاملة" باللهجة العراقية، الربة المقدسة، لم استطع فهم أي شيء، أصبحت أتساءل هل من الممكن أن يكون قد حدث أمرٌ طارئ في الحفريات، مثل وقوع حادثٍ ما، أو تعرّض أحدهم للدغة أفعى أو عقرب، لأنّ مثل هذه الأمور تحدث كثيراً في ياريم تبه، وعند هبوطي السريع إلى الأسفل، وجدت العمال مجتمعين حول الرئيس المحترم خلف الجاسم، كان جاثياً على ركبتيه وهو يجمع بشكل هستيري التراب ويضعه فوق الخشبة التي كنت "أسمّك" عليها مخططاتي، وعندما أصبحت

على بُعد خطوات منه، رأيته وفي يده تمثال طيني مصنوع على طريقة التيراكوتا، وهو جسم بشري مجوف من الداخل على شكل آنية. قال خلف الجاسم إنها كاملة، قاصداً بذلك إنّ الآنية مكسورة ولكن جميع الأجزاء موجودة؛ حقّاً لقد كانت قطعة نادرة ومصنوعة بإتقان من الفخار الرقيق على شكل آنية مجوفة. كانت غرفة المخبر على بعد خطوات من الحفريات. غُسلت الآنية وجُفِّفت، وألصِقت بقية الأجزاء بالجسم، فظهرت أمامنا بكامل بهائها وجمالها، وقد كانت على شكل امرأة (الربة الأم للمزارعين الأوائل في سهول سنجار)، عملياً كانت بدون رأس ولكن بقية الجسم كانت واقعية وجميلة جداً، وكانت في الوضعية التي عادة ما تصور فيها الربة الأم، حيث كانت واقفة تمسك صدرها -رمز الخصوبة- بيديها، كانت حالتها الفنية رائعة على الرغم من مرور أكثر من ستين قرناً عليها، ورُسمت على الجسم ذي اللون الأصفر الفاتح باللون البني الغامق، والذي يبدو تقريباً كاللون الأسود اللمّاع، أساور على المعصمين، ونقوش، وشعر متموج، وكان ارتفاع الدمية ٢٥سم على قاعدة مسطحة دائرية الشكل.

عند اكتشاف دمية الربة الأم كان معها مواد أثرية آخرى مهمة وهي: ختم حجري، وطاسة حجرية، ووعاء صغير من الفخار مرسوم عليه هذه اللقى مع الربة الأم التي تم كسرها عن قصد عند طمرها في حفرة تحت الأرض، وكان معها آثار الجمر والرماد؛ يبدو أنه تم حرقها تنفيذاً لطقوس دينية قام بها أصحاب ثقافة المستوطنة الحلفية، وما يزال الهدف والمغزى من ذلك مجهولاً لدينا على الأقل حتى الآن. إنّ هذه الدمية فريدة من نوعها لأنه لا يوجد لها مثيل في أي موقع من المواقع الرافدية في الألف الخامس قبل الميلاد. كان التمثال واضح المعالم لدرجة مدهشة، وكان مصنوعاً بطريقة فنية رائعة، ويمكن أن نعده بكل ثقة من الأعمال الفنية النادرة لمنطقة شمال غرب العراق القديم، لأننا قبل هذه الدمية كنا نرى تماثيل طينية غير متقنة الصنع للربة الأم، والتي لا تُقارن مع جمال وتقنية اللقية

الأخيرة التي اكتشفناها، لأننا أخيراً تعرفنا على زينة المرأة الحلفية التي تعود لأكثر من ٦٥٠٠ سنة مضت.

تم اكتشاف لقى أثرية نادرة أخرى وغير عادية في هذا الموسم التنقيبي، ففي الزاوية الجنوبية الغربية من الحفريات، عند الجدار مباشرة وعلى عمق ٦,٧٥م اكتشفنا حفرة دائرية صغيرة وجدت فيها قطعة طينية من دون شكل معين، وأواني فخارية أخرى حجرية مكسورة، ومعها قطع لتمثال فخاري كبير، كل هذه اللقى الموجودة في الحفرة كانت مطمورة بالرماد، ولفت انتباهنا دمية حيوانية مصنوعة بطريقة التيراكوتا، لم نر مثلها من قبل، كانت موجودة في قاع الحفرة، والجزء المتبقي منها هي الأطراف الخلفية، وجزء من المؤخرة مع ذيل قصير ورفيع، ولم نعرف ماهية هذه الدمية. ومثل هذه اللقى غير الكاملة كانت تغضبني جداً، أو بالأحرى تجعلني أشعر بالحرج والأسى على نفسي وعلى علم الآثار بشكل عام.

نحن وإن كنا نتحدث عن تطور علم الآثار والأبحاث الأثرية في ميزوبوتاميا في المئة سنة الأخيرة، ونتحدث عن اكتشافاتنا ونجاحاتنا، لكن تبقى معلوماتنا ضحلة وقليلة عن ثقافات وحضارات هذا البلد؛ فعلى سبيل المثال نحن ننقب في ياريم تبه٢منذ ثمانية مواسم، وقبلنا بفترة طويلة، نقب علماء آثار أجانب ومحليون في أكثر من ستة مواقع حلفية، ولكنهم لم يجدوا ما يشبه أو يماثل هذه الدمية الحيوانية، ولكن فجأة ظهر من بعيد بريق أمل مثل شعاع نور في غرفة مظلمة؛ نعم يوجد في الكون إله علم الآثار الذي يساعدنا.

بعد عدة أيام من العثور على اللقية الغامضة، وأثناء تنظيف أحد الجدران، وجد الشرقاطيون بقية أجزاء الدمية، وبعد التنظيف ولصقها وصيانتها بشكل جيد، تبين أن اللقية هي على هيئة خنزير، ظهره على شكل طاسة بطول ٤٠سم وارتفاع ٢٥سم، وكانت ثمة رسوم وزخارف منقوشة

بطريقة جميلة جداً على كامل جسم التمثال، ولم يصدف في المواقع الحلفية في سورية والعراق والمعروفة علمياً أن وجدوا مثل هذه الدمية. من المحتمل أنها تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد. كان الحلفيون يقومون بتربية الخنازير، وهذا الحيوان قد أصبح عندهم مقدساً.

الحياة السابقة كلها محفوظة هنا:

أشرف الموسم التنقيبي لعام ١٩٧٥م على الانتهاء، وكان دفتر اليوميات في ياريم تبه، الذي كنت أدون فيه بكل صبر، مثل روبنسون، كان يشير إلى ١٢ أيار، وبعد أسبوعين أو ثلاثة سوف نكون في البيت، في ربيع موسكو الأخضر، أما الآن فنحن نتابع عملنا الصعب. في الصباح كان الجو غائماً وبارداً، كان ذلك مترافقاً مع هبّاتٍ من الرياح، تلاها هطول الأمطار. مضينا بسرعة إلى الحفريات، كنت أشعر بوعكة صحية، وذلك بسبب الرعد والمطر في الليلة الماضية حيث لم أستطع النوم، فكان رأسي يؤلمني وقدماي ثقيلتان.

بعد إعطاء الأوامر للعمال وحمَلة التراب، باشروا العمل، ثم جلست على كرسيّي الصغير محاولاً إنهاء رسم المخططات التي بدأتها سابقاً، ولكن الهواء والغبار لم يسمحا لي بذلك، لذلك خبأت الأوراق المليمترية بين دفتي "التسميكة" التي ستخدمها. كان نهارنا ينذر بالفشل. معكر المزاج ومستاءً من هذا الطقس المتذبذب في ياريم تبه، جلست في زاوية بعيدة هرباً من الرياح، و كنتُ أنظر بين الفينة والأخرى إلى السماء، حيث تحاول الشمس اختراق طبقة الغيوم الكثيفة، وفي هذه اللحظة تقدم إليّ خلف الجاسم بابتسامة حيرتني، وقال: "بدي بخشيش تختور! أكو دمية".

تبين أنه عندما كنت جالساً في وحدتي التعيسة، وجد الشرقاطي "عداي" في أتربة إحدى المواقد دمية طينية، كانت تشبه ربة الخصوبة كثيراً من

حيث الشكل، أفقدت ضربة معول أحد العمال جزءاً صغيراً من الرأس، ولكني أجريت الصيانة بكل سهولة، مستخدماً الصمغ المخصص لذلك، حتى الآن وجدنا في موسم السنة الماضية دمية طينية كاملة وأجزاء لدميتين، أما في هذا الموسم وجدنا ثلاث دمى طينية كاملة، والآن ها هي الرابعة والتي تضاهي الدمى الأخرى. فعلاً هذه اللقية تستوجب "البخشيش".

وحسب العرف السائد عندنا في البعثة الأثرية في ياريم تبه٢، كنت أعطي العمال الشرقاطيين والتركمان "البخشيش"، وهو عبارة عن أشياء مختلفة من هدايا روسية الصنع، مثل المعالق الخشبية، والمتروشكا الروسية (عبارة عن دمية خشبية للمرأة الروسية باللباس التقليدي بأحجام متدرجة)، وكانت الهدية هذه المرة أيضاً متروشكا.

وأنا أيضاً سوف أحصل على "البخشيش" هذه المرة، لكن من رئيس البعثة رؤوف منجاييف، وحسب التقاليد فهو عبارة عن صندوق من المشروبات الباردة التي كان يشتريها من محلات تل أعفر، وتبين فيما بعد أن المدير كان يخطط للسفر إلى تل أعفر بكل الأحوال، لذلك وعدنا بجلب "البخشيش" مباشرة في نفس اليوم.

غابت سيارة البعثة غاز ٦٩، القوية وقديمة الشكل، بسرعة عن الأعين، حاملة قيادتنا الرفيعة، كان يوماً ناجحاً بحق. بعد مغادرة رؤوف منجاييف بنحو نصف ساعة، اكتشف شرقاطي اسمه "حسين" قبر طفل عمره تسع أو عشر سنوات ، مع وعائيين طينيين عليهما رسومات مزركشة؛ كانوا قد قاموا بحرق الميت في مكان آخر، ومن ثم دفنوا الهيكل والرماد في القبر، وتم إغلاق القبر من الأعلى بطبقة من الطين، وجلب العمال لي من مربع آخر جزءاً من دمية هي عبارة عن لعبة للأطفال، لأنني عندما تفحصتها وجدت عليها بصماتٍ واضحة لطفل صغير، ومن المحتمل أن يكون الطفل الصغير قد لمس الدمية، فطبعت عليها بصماته قبل أن تجف، وفيما بعد

عندما تم شوي الدمية، بقيت البصمات إلى الأبد. وبذلك فإن حركة بسيطة من الحياة اليومية تصل إلينا عن طريق الصدفة من أعماق الزمن، وتعطي معلومات عن الماضي أكثر من المناقشات والتحليلات التي يقوم بها المؤرخون.

وكان ختام اللقى الرائعة لهذا اليوم رأس بلطة مصنوعة من المرمر دائرية الشكل مثقوبة من أجل القبضة الخشبية، وهذه اللقية تعتبر الأولى من نوعها في موقعنا، وتعد البلطة عند المزارعين الأوائل في بلاد الرافدين رمز السلطة العليا، وكان يحملها العظماء من أعضاء القبيلة.

مواقد الفخاريين القدماء:

منذ اللحظة الأولى من اكتشاف المواقع الأثرية في شمال سورية المعقد، كان السؤال الذي يحير علماء الآثار هو كيف وبأي طريقة صنع الحلفيون فخارهم الرائع؟ لقد كانوا يصنعون الفخار بواسطة أفران ومواقد بسيطة، فكيف لنا أن نفهم أو نستوعب هذه الدقة والحرفية العالية والنوعية الجيدة التي يتصف بها الفخار العائد لفترة حلف؟

وأخيراً جاء ذلك اليوم الذي نستطيع فيه أن نجاوب عن هذا السؤال الصعب، ففي السويات الدنيا من موقع ياريم تبه٢ اكتشفنا موقدين (فرنيين) من الطين لشيّ الفخار، وهما في حالة ممتازة؛ كان شكلهما دائرياً، و تركيبتهما معقدة، ويبلغ قطر الواحد منها ١٨٠سم، وكان الفرن الواحد يتألف من قُمرتين؛ السفلى لإيقاد النار، والعليا للشيّ، وكان يفصل بين القمرتين طبقة سميكة من الطين فيها ثقوب تسمح بنفاذ الحرارة إلى قمرة الشيّ بشكل متساوٍ، بحيث تصل درجة الحرارة في القمرة العلوية إلى ١٢٠٠درجة مئوية.

كان هذا الاكتشاف لمواقد عائدة إلى فترة الألف الخامس قبل الميلاد هو الأول من نوعه في العراق، وقد لفت خبر اكتشاف هذه اللقية الاستثنائية

انتباه علماء الآثار العراقيين، وفيما بعد زارتنا، في مقر البعثة، إدارة المديرية العامة للآثار في العراق- متمثلة بالمدير العام عيسى سلمان، ومدير التنقيب والبحث الأثري الأستاذ فؤاد سفر. كانت المشاهدة مؤثرة في ضيوفنا لدرجة كبيرة، بحيث قرروا أن يحتفظوا بهذه اللقية الفريدة، وقاموا بمساعدة المختصين العراقيين، بنقل أحد هذين الموقدين بطريقة فنية ومتقنة، بواسطة سيارة إلى متحف موصل الجديد ذي البناء الفخم، وذلك بعد أن تم قطع الموقد إلى أجزاء، بواسطة منشار في غضون أيامٍ قليلة. وتم جمع الموقد مرة ثانية خلال أيامٍ قليلة، وكنت من أوائل من شاهدوا الموقد في حالته الجديدة، ليس بين الأتربة وأعماق الحفريات، وإنما تحت الأضواء الساطعة في قاعة المتحف.

لغز التولوس:

منذ القدم، تقول الحكاية السومرية القديمة: "كان السلام والهدوء يعم الأرض، لم تكن هناك الأفاعي والعقارب السامة، كل الناس كانوا يتكلمون لغة واحدة ويعيشون بسلام معاً، لم يكن هناك خوف وحسد، لم يهاجم أو يقاتل أحدٌ جاره، وكان الناس يملكون فائضاً من الطعام واللباس، الذي حصلوا عليه دون قوة أو تعب".

وكان هذا العصر الذهبي -حسب توقع السومريين- الذي ساد في بلاد الرافدين، هو عصر الثقافات الزراعية الباكرة في فترة ثقافة حلف وعبيد. وأتى فيما بعد رُسُل العهد القديم كلهم إلى بلاد الرافدين(الجنة المشهور)، وفي يوم من الأيام مشى آدم وحواء تحت ظلال الأشجار، حسب التاريخ الإنجيلي، حيث كانت الجنة موجودة تقريباً في الألف الخامس قبل الميلاد، أي عصر الثقافات الزراعية الباكرة كما ذكرناها آنفاً.

وكما نعرف، فإنّ حياة الشعوب في تلك الفترة كانت بعيدة كل البعد عن حياة الجنة، ولكن تبقى تلك التطورات في الحياة الثقافية والدينية عند الحلفيين حقيقة واضحة. والصفة المميزة للفترة الحلفية هي التغير المفاجئ في طراز المنازل السكنية والأبنية ذات الصفة الخدمية، فقد حلت مكان الأبنية المستطيلة في فترة حسونة، والتي سبقت فترة حلف، بيوت وأبنية طينية مستديرة الشكل ذات جدران عريضة، أطلق عليها علماء الآثار اسم "تولوس"، وهي تشبه المدافن الدائرية في اليونان في الفترة الكريتية الميكينية.

دار جدل طويل في علم الآثار حول ماهية هذه الأبنية الغريبة، وكان بعض علماء الآثار يعتقدون أنها معابد وأبنية، والبعض الآخر يعتقد أنها مدافن الكهنة والقادة. ولكن المكتشفات في ياريم تبه٢ أثبتت، بشكل قطعي، أنّ التولوس الذي يبلغ قطره نحو خمسة أمتارٍ أو ستة، هو عبارة عن بيوت سكنية، وقد أُكتشفت، بداخلها، مواقد كما في القوقاز وآسيا الوسطى، وتنانير طينية، وبقايا مواد للاستخدام اليومي، كعظام الحيوانات ورماد وبقايا أواني فخارية، واستطعنا معرفة الشكل المعقد لسطح التولوس، وذلك بفضل اكتشاف بعض الأجزاء من السطح في أرضية بعض الأبنية، وكان الطابع العمودي على شكل قمع، واضحاً لتلك الأسطح، وكانت الأسطح عالية وحادة، مما ساعدها على مقاومة الأمطار والعواصف.

واكتشفنا أيضاً بعض الكسر لآنية فخارية في السويات العميقة للتل ، وقد رسم عليها فنان قديم، بكل ثقة، منظر بيت حلفي (تولوس)، تحيط به الأشجار والخضرة.

كان لتلك الأبنية السكنية أبواب خشبية مثبتة من الأعلى، وفي الأسفل تمّ وضع حجرة دائرية الشكل، مقعرة في المنتصف، تحت العمود من أجل سهولة حركة الباب في الفتح والإغلاق، وكان المدخل العالي لتلك البيوت

يُتعب ربات البيوت الحلفية، لأنه كان يجب صيانته بشكل مستمر بالطين والجص، وصيانة الممر الضيق المؤدي إلى داخل هذه البيوت- كان الممر ذا أشكال وأحجام مختلفة- بالإضافة إلى صيانة البيت السكني. وكان الحلفيون يستخدمون تلك الأبنية الخدمية لحفظ أدوات العمل، والغلال الزراعية، والمؤونة، والسلاح، والأواني الفخارية الضخمة التي كانت تُحفظ فيها الحبوب.

تحت سلطة الدورة الزراعية:

توجد في النصوص السومرية القديمة قصة توضح كيف أن إله الرياح إنليل (رأس المجمع الديني المحلي) قرر أن يقيم الازدهار والتعليم على الأرض، ومن أجل ذلك خلق الأخوين إيمشا (الصيف)، وإنتين (الشتاء)، وكلّف كلاً منهما بمهام محددة، والفقرة التالية توضح جوهر المهمة: " أمر إنتين أن تلد الشاة الخرافَ، والعنزةُ الجداءَ، وأمر البقرة أن تلد العجول، وأن يتكاثروا من أجل وفرة الزبدة والحليب، وفي السهول، أدخل الفرح إلى قلب العنزة البرية، والحمار، والكبش، وأمر الطيور أن تبني أعشاشها على الأرض الفسيحة، و أمر الأسماك في البحار أن تضع بيوضها بين الأعشاب البحرية، وأمر أشجار البلح والكروم أن تعطي بغزارة الخمر والعسل، وألبس البساتين الحلة الخضراء، وأسرع في نموها، وأكثر الحبوب .... أما إيمش فخلق الأشجار والبساتين ووسعها وأكثر من المحصول الزراعي بما يكفي الحاجة وأكثر ..."

وبهذا الشكل الشاعري، نرى أن أهم ما كان يقوم به الإنسان، جنوب بلاد الرافدين في الألف الرابع والثالث قبل الميلاد، هو الزراعة وتربية الحيوان وصيد الحيوانات والأسماك وزراعة البساتين ...إلخ، والشيء نفسه بالنسبة لشمال بلاد الرافدين، ولكن في الشمال كانت كمية الأمطار كافية لممارسة

زراعة بعلية مضمونة، وحسب المعطيات الحالية في هذه المنطقة، لم تكن الحالة الاقتصادية من ممارسة الزراعة وتربية الحيوان والصيد، تختلف عن حالة الجماعات الحلفية في الألف الخامس قبل الميلاد. كذلك في سهول سنجار الحالية نرى حقول القمح والشعير ذات اللون الزمردي تنتشر في كل مكان، وكذلك نجد كثافة التلال على ضفاف الأنهار، وتشهد الوديان الموسمية الجافة على العادات والتقاليد الزراعية لسكان هذه المنطقة، وبفضل العدد الكبير للّقى الأثرية المكتشفة في موقع ياريم تبه٢، والتي تتحدث عن الزراعة في تلك العصور القديمة، فإنّ باستطاعتنا أن نضع لوحة كاملة للأعمال الزراعية وتوقيتها لتلك الحقبة البعيدة، بدءاً من زرعها حتى وقت حصادها، وقد تم اكتشاف بقايا القمح والشعير المتفحمة في الأواني الفخارية والحفر، وشفرات المناجل المصنوعة من الصوان والاوبسيديان، ذات المقابض الخشبية أو العظمية، التي كانت تثبّت بواسطة القار، وأدوات الطحن التي صنعت من البازلت- وهي عبارة عن قطعة حجرية مقعرة من الداخل من أجل وضع الحبوب- والقطعة الأخرى التي توضع من الأعلى للطحن، أما بالنسبة لعجن الطحين، فقد كان العجين يوضع في أواني فخارية كبيرة وغير عميقة، تشبه الطشت، وكان الخبز يُخبز في أفران ومواقد من الطين، على شكل أرغفة رقيقة ومسطحة.

أما النشاط المهم الآخر لدى سكان ياريم تبه٢ فقد كان تربية الحيوانات، مثل الأبقار والأغنام والماعز والخنازير، وكان ذلك واضحاً من خلال اكتشاف عظام الحيوانات المدجنة في سويات الموقع، وكذلك من خلال اكتشاف تماثيل حيوانية مصنوعة من الطين، وأيضاً عظام بعض الحيوانات البرية، مثل الغزلان والخنازير الجبلية والبط البري، والأسماك التي كان الحلفيون يصطادونها (في الموقع العائد لفترة حلف)، ويجب ألا ننسى بأنهم قاموا بتجميع بعض النباتات البرية، مثل جذور النباتات والفطر وبعض الثمار وبذورها. والجدير بالذكر أن عادة تجميع النباتات والثمار بغرض

التداوي أو الأكل، والتي تعود إلى فترات ما قبل ممارسة الزراعة، ما تزال موجودة حتى الآن عند السكان المحليين، حيث كنا نرى بعد هطول الأمطار الغزيرة مجموعات من النساء والأولاد وبأيديهم قطع خشبية -عصاة أو فأس مستقيمة- يتجولون في الأراضي الزراعية، وعلى طول الوادي، كانوا يقومون بتجميع بعض النباتات أو جذور بعضها، كما كانوا يجمعون الفطر والكمأة وأعشاب طبية كثيرة.

في منطقة ياريم تبه الغنية بالتلال الأثرية، والتي يمرّ بها واديان، دائماً ما كنا نشاهد الناس يأتون من تل أعفر والقرى المجاورة، سيراً على الأقدام أو بالسيارات، من أجل الصيد وجمع الفطر والكمأة، ونتيجة ذلك نرى الكثير منها في أسواق مدن العراق، ولم نعد نستغرب عندما كنا نرى عمالنا في فترة استراحة الغداء مع عدة أكلهم المعتادة (رغيف الخبز والتمر والبصل) يجمعون من على سطح التل بعض الأعشاب، ويأكلونها بكميات كبيرة.

ونظراً لذلك، لم تكن حياة المزارعين الحلفيين سهلة، وكان مستوى المعيشة فيها متبايناً، بحسب وفرة المحصول الزراعي أو عدد رؤوس الأغنام التي يملكونها، لذلك عبد الحلفيون الظواهر الطبيعية بكل خشوع؛ فحسب معتقداتهم كانت خصوبة الأرض وحياة الإنسان تحت سلطة الطبيعة.

كنا نكتشف أثناء التنقيب في ياريم تبه٢ الكثير من الفؤوس الصغيرة جداً المصنوعة على شكل "تعليقة"، والتي كانت، حسب معتقدهم، تحميهم من السهام المميتة التي يطلقها عليهم إله البرق والرعد عند غضبه؛ لأنّ الإله الرئيسي الذي يجلب الخصب عند الحلفيين كانت الربة الأم، فغالباً ما كنا نرى تماثيلها على هيئة امرأة قوية، ومعالم الخصب فيها واضحة (كالثديين والأعضاء التناسلية). وكان المزارعون الأوائل يضعون ويرسمون هذه المعتقدات المتعلقة بالطبيعة على السطح الخارجي للأواني الفخارية، على شكل رسومات ونقوش، مثل الخطوط المتموجة والمتداخلة على شكل "زيك

زاك" والتي ترمز إلى الماء، والمربعات المنقطّة من الداخل كانت ترمز إلى الأرض المزروعة، والدوائر مع شعاعات من نقط من حولها كانت ترمز إلى الشمس، أما الخطوط المستقيمة والمائلة من الأعلى إلى الأسفل فهي ترمز إلى المطر، وشكل الصليب أو إشارة (+) والورود الصغيرة والأوراق فكانت علامة وفرة وإزدهارالنباتات. وأحياناً نرى على بعض الأواني والجرار الحلفية الجميلة رسومات لحيوانات وطيور مختلفة، كالنسر وهو يستعد للانقضاض على الأيل، أو النمر الأسود وهو واقف على قائمتيه الخلفيتين بشكل مخيف، وأشكال حيوانية أخرى مثل السمك والأفاعي، وأيّة أفاعٍ؟! ملكة الأفاعي، ففي أحد أيام التنقيب وقفت مندهشاً أمام أحد الكسر الفخارية الملونة بالأصفر ومرسومة بالأسود وبدقة متناهية، صورة أفعى كوبرا نافخة قبعتها المعروفة غضباً، لا أدري هل كان يوجد هنا قبل ستة أو سبعة آلاف سنة أفعى كوبرا أم لا؟ لكنني متأكد أنه في الوقت الحاضر لا توجد أفعى كوبرا في كل منطقة ياريم تبه، والالتقاء مع الأفاعي هنا لا يأتي بعواقب سليمة دائماً، ففي هذه القرى يروون لك حكاياتٍ عن لدغات الأفاعي، وموت البعض بسببها، وأغلب الضحايا هم من الأطفال و المراهقين دائمي الحركة.

لا نستغرب هنا الصراع الذي يمرّ به البشر للقضاء على الأفاعي، فقد كنتُ شاهداً على إحدى الحوادث، عندما وجدت العمال مجتمعين حول أفعى بطول متر، وذات رأس مثلث الشكل، وهي إحدى أنواع الأفاعي السامة جداً. كان الجو بارداً، لذا كانت الأفعى رخوة وبطيئة الحركة و تبدو كأنها نائمة؛ كان العمال يقلبونها بالعصي والرفوش ويجعلونها تتحرك، حيث هجم عليها أكبر عمالنا سناً، وكان اسمه عباس، وهو ينوي قطعها، بواسطة الرفش المعدني الحاد إلى عدة قطع، ومن يعلم؟ قد يكون أحد أقاربه ضحية لدغة إحدى هذه الأفاعي.

نـهاية كل عمل إكليل غار:

إلى الآن، مضت ثمانية أعوام أو مواسم على بداية أعمال التنقيب في ياريم تبه٢، وأصبحت المربعات أعمق ضمن سويات التل، حيث بلغت حوالي خمسة أمتار، وإذا اعتبرنا نقطة الصفر الواقعة في أعلى قمة التل يصبح العمق أكثر من ستة أمتار، وقد ازداد عدد الاكتشافات واللقى الأثرية؛ فالسويات الدنيا من المواقع هي الأكثر أهمية بالنسبة للباحث، لأنها بداية فترة الاستيطان في الموقع، وهنا بالضبط وضع الحلفيون الأوائل أساسات منازلهم ومعابدهم، وعلى هذه الأرض البِكر، نجد قواعد حفرهم ومستودعاتهم واللقى الأكثر قِدماً.

كنا ننتظر نحن والعمال بفارغ الصبر ظهور الأرض البِكر؛ أي طبقة الأرض الطبيعية التي لا يوجد فيها أي أثر لعمل ونشاط للإنسان القديم، وأخيراً في سنة ١٩٧٥، في إحدى مربعات تنقيبنا، والتي كانت أبعادها ١٠×١٠م، وصلنا إلى الأرض البكر، وتستطيع أن تفهم سعادتنا العارمة، نحن جميعاً، وكأننا في إحدى بواخر المكتشفين الأوائل في فترة الاكتشافات الجغرافية الكبرى؛ فجأة انطلقت صرخة جبلية: "تختور مية بالمية أكو جبلية"، باللهجة العراقية، أي الأرض البِكر، وبعدها ظهرت الأرض البكر في المربعات الأخرى. كان العمل على المساحة الواسعة (٦٠٠م٢) من التنقيبات تقترب من النهاية، وأخيراً فإن نتائج أعمال التنقيب، التي استمرت ثمانية مواسم (سنوات) في مستوطنة حلف في ياريم تبه٢، باتت واضحة أمامنا، حيث جرى التنقيب في جميع مساحة التل، واخترق سوياته المتراكمة، وبدا واضحاً تاريخ إحدى القرى الزراعية القديمة، مجهولة الاسم، في شمال بلاد الرافدين، ولو سألوني آنذاك عن انطباعي عن التل الذي يتمّ التنقيب فيه، لجاوبت بدون تردد بأن الاستقرار والمتابعة في تطور وازدهار ثقافة الحلف في جميع مراحلها اجتمعت في هذه المستوطنة.

استمرت الحياة في هذا الموقع لفترةٍ تتراوح بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ سنة على وجه التقريب، وقد بنيت البيوت الحلفية (تولوس) في الأماكن نفسها، ووفقاً لتقاليد محددة، وبدا ذلك واضحاً من خلال المقاطع العرضية في حواف التنقيب، بحسب تشكل جدول زمني لتطور التقاليد المعمارية آنذاك، كذلك قام سكان المستوطنة بدفن موتاهم من الأطفال في أماكن محددة، وقد حفروا في الأرض حفراً لاستخدامها كمستودعات للحبوب، وأنشأوا مواقد لشيّ الفخار، الذي كانت عملية تطوره واضحة من خلال النوعية والديكور (الزخرفة والحز)على الأواني، وبناء المنازل والطقوس الدينية. لكن الشيء العجيب هو أن نجد أنّ طريقة العيش للسكان المحليين من الناحية الاقتصادية والمعيشية مشابهة لتلك التي نجدها في سويات المستوطنة القديمة، حيث وجدنا أن الأبنية الطينية المبنية من اللبن، والتنانير المقببة لصناعة الخبز وتقنيات زراعية محددة، مشابهة لمثيلاتها لدى سكان المستوطنة الحلفية القديمة، وعلى وجه التحديد فإن هذه الاستمرارية في الثقافة القديمة لدى هؤلاء الناس جعلتنا، وبشكل ممتع، أن نلج أعماق التاريخ، اعتماداً على الشواهد القديمة. و تشكّل المقارنة بينها وبين ما نراه أمامنا في القرى المحيطة للموقع، جسراً يصل بين الحاضر وتلك المجتمعات التي مارست الزراعة في فترات ما قبل التاريخ.

حسونة وحلف و العلاقة بينهما:

بعد أن قام علماء الآثار بأعمال التنقيب في عدد من المواقع العائدة إلى حقبة حسونة، وأخرى لحقبة حلف ظهر التساؤل عن مدى العلاقة بين هاتين الثقافتين من حيث الزمن والتوسع؛ في الحقيقة كنا نعلم منذ البداية أن المواقع الحسونية أقدم من المواقع الحلفية، ولكن تعاصرهما وعلاقتهما لفترة طويلة بقيت غير معروفة.

أظهرت أبحاثنا وأعمال التنقيب التي قمنا بها في موقع ياريم تبه١، وياريم تبه٢، بشكلٍ واضح، أنه ليس ثمة علاقة أو تواصل ثقافي في العادات والتقاليد بين ثقافة حسونة وثقافة حلف، ونرى بوضوح أنّ ثقافة أخرى، لا تمتّ بأيّ صلة إلى ثقافة حسونة القديمة، أتت بعدها، وهذه الثقافة الجديدة هي ثقافة الحلف.

ويتجلّى هذا الفرق في تقنية صناعة الفخار ونوعية الدمى الطينية، وفي صفات وطريقة البناء (البيوت الحسونية مستطيلة والحلفية دائرية)، وأكثر من ذلك، نرى في قمة التل العائد إلى فترة حسونة، المقبرة العائدة إلى حقبة حلف بأدواتها الجنائزية الحلفية الصرفة.

ومن الطبيعي أن أصبح الموقع الحسوني مقبرة لدى الموقع الحلفي عندما كان مهجوراً منذ زمن بعيد، وفيما بعد، في سنة ١٩٧٦م عندما أشرفت أعمال التنقيب على نهايتها في موقع ياريم تبه٢ (أي العائدة إلى فترة حلف)، في أقصى الجهة الجنوبية من الحفريات، وعلى عمق لا بأس به بين الكسر الفخارية الحلفية، ظهرت بعض الكسر الفخارية لأوانٍ تعود إلى حقبة حسونة، طبعاً أصبحت أوثّق كل كسرة فخارية من هذه الكسر بشكل دقيق، وسرعانما أصبحت اللوحة واضحة أمامنا، حيث أن الكسر الفخارية الحسونية ظهرت في عمق ٥٤٠ سم وما دون، وفي الجهة الجنوبية من الحفريات فقط، كما اسعفنا الحظ بأن نكتشف في هذا الجزء مساحة مرصوفة بالكسر الفخارية الكبيرة بعض الشيء ذات أبعاد (١٠٠ *٧٠ سم) في السوية التي توضعت على الأرض البكر، ودل ذلك على أن حفرياتنا في الجهة الجنوبية من ياريم تبه٢ في سويات متوضعة صغيرة، تعود إلى فترة حسونة، وللتأكد من مساحة المستوطنة ثم دراستها، كان علينا البدء بأعمال بحث إضافية.

شارف الموسم التنقيبي لعام ١٩٧٦م على الانتهاء، وبعد أسبوعين سنعود إلى الوطن، فقررت أن أعمل في مكان آخر يبعد حوالي ٣٠ متراً جنوب حفرياتنا، وبدأت بحفر سبر اختباري (خندق تجريبي)، هنا ينتهي التل تقريباً، وتبلغ سماكة السويات حوالي ٢م من السطح حتى الأرض البكر. ينفذ علماء الآثار السبر الاختباري عادة بطريقة محددة، وفي كل ٢٠ إلى ٢٥ سم، وهو ارتفاع الجزء المعدني من الرفش، ونسمي هذه المسافة "طريقة الرفش". كانت المواد المكتشفة في أوّل ثلاث ضربات للرفش (حوالي ٧٥ سم) تعود إلى الفترة ما بين الفترة البابلية الحديثة والفترة البارثية (القرن السابع قبل الميلاد وحتى بداية الفترة الميلادية).

بعد ذلك بدأت تظهر المواد واللقى الحلفية، وظهرت أول كسر فخارية عائدة إلى حسونة في ضربة الرفش السادسة، أي في عمق ١٢٠ سم - ١٣٠ سم، وفي عمق ١٧٠ – ١٨٠ سم أصبحت الكسر الفخارية العائدة لحقبة حسونة تطغى على الكسر الفخارية العائدة لحقبة حلف، واكتشفنا جدراناً قوية لمبنى حلفي دائري الشكل (تولوس)، وتحت المبنى كانت توجد طبقة رقيقة تحتوي فقط المواد واللقى الحسونية، وهكذا اكتملت الدائرة وأقفلت، فمستوطنتنا الحلفية الكبيرة لم تظهر في مكان خالٍ، فقد اختار الحلفيون، وفقاً للتقاليد الرافدية للمستوطنات، خربة صغيرة لموقع مستوطنتهم، تقع بجانب نهر جارٍ، وبين طياتها سويات عائدة إلى الفترة الحسونية.

ولكن موقع ياريم تبه٢ الذي انتهت أعمال التنقيب فيه سنة ١٩٧٦م بشكل كامل، لم يكن الموقع الوحيد الذي أجرت فيه البعثة السوفيتية أبحاثها في سهول سنجار، ففي مكان لا يبعد عن مقر البعثة، يقع الموقع الأثري ياريم تبه١ الذي يعود إلى فترة حسونة (الألف السادس)، والذي يعتبر أقدم من ياريم تبه٢ (حلف)، وهو كان الهدف الرئيسي لبعثتنا لعدة سنوات من أعمال التنقيب.

وإلى الغرب من مجموعة التلال المسماة ياريم تبه /١-٢-٣/ والعائدة إلى حسونة وحلف وعبيد، عملت البعثة في موقعين مهمين جداً يعودان إلى فترة بدايات الحضارة الزراعية في العراق، وهذا الموقعان هما تل سوتو وكول تبه.

وأخيراً في عام ١٩٧٨م، وعلى بعد ١٠ كم إلى الشمال الغربي من مقر بعثتنا، وعلى الحد الفاصل بين المنطقة السهلية والجبلية، اكتشفنا في تلك المنطقة موقعاً أثرياً فريداً من نوعه، يعود إلى فترة ما قبل الفخار (أي ما قبل اكتشاف الإنسان للفخار)، اسمه تل المغزلية، وهو يعود إلى فترة الألف الثامن والسابع قبل الميلاد، ونتيجة أعمال التنقيب الأثري في هذا الموقع، استطعنا تأسيس سلسلة متصلة لعملية تطور الثقافة الزراعية الرعوية للمجتمعات المحلية من المراحل الأولى، المتمثلة بموقع تل مغزلية، العائد إلى الفترة الممتدة بين الألف الثامن قبل الميلاد وحتى بداية فجر الحضارة، في سويات ياريم تبه٣، العائدة إلى فترة عبيد (نهاية الألف الخامس والألف الرابع قبل الميلاد)، وسوف نتطرق لهذا الموضوع في الفصل التالي. أما الآن، فينبغي علينا التطرّق إلى أهمية أعمال التنقيب والبحث الأثري للبعثة السوفيتية الأثرية في شمال العراق.

على التقاطع الرئيسي لعلم الآثار العالمي:

يقول الأكاديمي الروسي ي.ن. بافلوفسكي، في أثناء زيارته للعراق سنة ١٩٤٣م: "عندما نتكلم عن العراق نتذكر بشكل عفوي أيام الدراسة في المدرسة ودروس تاريخ بلاد الرافدين؛ تلك البلاد الواقعة بين النهرين المشهورين عالمياً؛ دجلة والفرات، والمعروفة كمهدٍ للبشرية، على الرغم من أنّ ذلك غير مثبت بشكل قطعي تاريخياً، لأنّ مصدر معلوماتنا عنها هو القصص والنصوص الدينية المتوارثة، لكن هذا لا يمنع من أن تكون هذه

الأرض مركز اهتمامنا واحترامنا العميقين، لأنّ ممالك عظيمة تأسست على هذه الأرض وزالت، وترابها مشبع بعرق ودماء أجيالٍ، يُرثى لها، من شعوبها".

مضى على هذه الكلمات أكثر من أربعين عاماً؛ إذ كان الدور الريادي في تطور الحضارة العالمية، حتى الخمسينات من القرن الماضي، يعود لبلاد الرافدين القديم، وكان ذلك يستند إلى الأساطير والقصص المذكورة في العهد القديم.لكن الآن تغيّر الوضع بشكل ملحوظ، وذلك اعتماداً على المكتشفات الأثرية، إذ نستطيع أن نجزم بأنّ سكان شمال بلاد الرافدين القدماء كانوا أول من مارس الزراعة وتربية الحيوان، وبنوا مساكن قراهم الدائمة من الأشجار والطين والحجر، ووضعوا الأساس المتين بنجاح، لتطوير جوانب عديدة للثقافة المادية والمعنوية للبشرية. وفي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، وفي سهول جنوب بلاد الرافدين، ظهرت، لأول مرة على سطح الأرض، مدن وممالك ذات أبنية ضخمة، تعتمد على النظام الطبقي للمجتمع، وعلى الكتابة، وتقسيم الزمن (يوم وأسبوع وشهر وسنة)، والقوانين المكتوبة، بالإضافة إلى الأدب والفن.

يقول ر.م. منجاييف و ن. ي. ميربيت: "إن صفة الريادة في صنع الحضارة لبلاد الرافدين، هي ظاهرة خاصة بها، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهي نتيجة للتطورات الداخلية. كل هذا يدفعنا إلى القول بأن المواد والمكتشفات في بلاد الرافدين لها أهمية خاصة في عملية دراسة وتحليل المسائل والموضوعات الأساسية المتعلقة بالتاريخ القديم للبشرية وتطوره".

وليس غريباً أن تكون مساحة العراق الحالية، على الدوام موضع اهتمامٍ كبيرٍ، من قبل علماء الآثار في العالم، وأن تكون الأبحاث والدراسات الأثرية قد جرت هناك منذ أربعينات القرن التاسع عشر، ويعود الدور

الرئيسي في تطوير علم الآثار الرافدي إلى علماء الآثار الإنكليز والفرنسيين والألمان، وانضمت إليهم البعثات الأثرية الأمريكية في بداية القرن الماضي، كما انضمّ إليهم اليابانيون والطليان في ستينات القرن الماضي، وظهر مؤخراً، وبشكلٍ لافتٍ، دور البعثات الأثرية العراقية.

كل هذا يدفعنا إلى أن نتخيل الموقف المعقد للبعثة السوفيتية التي وصلت إلى تلك البلاد للمرة الأولى؛ فمن جهة كانت البعثات الأوربية والأمريكية قد أثبتت نفسها على أرض العراق القديم من حيث الممارسة العملية الطويلة والمعرفة الكبيرة بالبلاد وجغرافيتها ومناخها وسكانها وعاداتها وتقاليدها، ومن جهة أخرى كانت هذه هي المرة الأولى لعالم الآثار السوفييتي التي يقوم فيها بالعمل لسنوات عديدة في إحدى أهم مراكز العالم للآثار.

إذاً الحالة المعقدة لم تكن تكمن في المنافسة الحادة فيما بين زملائنا الغربيين، أو في كونهم أقدم منا من الناحية العملية هنا، أو أنهم لم يستسيغوا عملنا هنا، بل على العكس، فلم يكن الموظفون الرسميون العراقيون وحدهم من رحّبوا بنا، وإنّما ساعدنا علماء الآثار الإنكليز أيضاً؛ ولا سيّما رئيس البعثة الإنكليزية العامل في تل الرماح، القريب من موقعنا (ياريم تبه)، الأستاذ في جامعة كامبردج ديفيد أوتس، وزوجته جوانا أوتس، وهي أيضاً عالمة آثار، وهما على وجه التحديد من ساعدا النيقولايين، أي نيكولاي ميربرت ونيكولاي بدر، في اختيار أحد المواقع القديمة (ياريم تبه) عام ١٩٦٨، وشاركانا بتجربتهما الغنية. وبعد عودة ديفيد أوتس إلى بلاده، تابع الباحثون الإنكليز، الذين كانوا يعملون في شمال غرب العراق، علاقات الصداقة الطيبة معنا.

كانت صعوبة الخطوات الأولى في علم الآثار الرافدي تكمن في الحفاظ على ماء الوجه أمام البعثات الأجنبية الأخرى، و الحرص على أن لا نكون أقل شأناً منهم في هذا المجال، ونستطيع القول بأننا اجتزنا امتحاننا

"الجامعي" في علم الآثار في العراق بشكل سريع وجيد، وكان الدور الرئيسي في ذلك المستوى العالمي من الحرفية، هو لجميع أعضاء البعثة من خلال تفانيهم في العمل دون كلل أو ملل، واستعدادهم لتعلم كل ما هو جديد ومفيد.

وفيما يتعلق بمهنية وحرفية أعضاء البعثة، فالحقيقة الآتية تشهد على ذلك؛ كان عدد أعضاء البعثة العلمية حتى عام ١٩٨٠ ثمانية علماء، بينهم أربع درجات علمية برتبة أستاذ دكتور، والأربعة الآخرون كانوا دكاترة، والتاسع كان السائق، ولم تكن أية بعثة أجنبية أو سوفيتية تملك درجات علمية بهذه الكثافة في ذلك الحين.

بعد مضي المواسم الثلاثة الأولى بات واضحاً أننا اجتزنا الامتحان الأصعب، وقد أدى الدور الأساسي في تلك التجربة العلمية الطويلة زميلنا المختص بالشرق أوليغ كريكورفيش بلشكوف، وكان هو الوحيد بيننا الذي عمل في مواقع توجد فيها الأبنية الطينية المصنوعة من اللبن، لأنه عمل لمدة طويلة في موقع بنجيكينت العائد إلى فترة العصور الوسطى في طاجيكستان، ويعود الفضل له في طريقة العمل بنظام المربعات ذات الأبعاد (١٠× ١٠م)، وتقسم هذه المربعات من الداخل إلى مربعات أصغر بأبعاد (٥×٥م أو ٢,٥ × ٢,٥م)، مع تحديد عرض المساحات التي تفصل بين المربعات في موقع ياريم تبه، وتعلمنا من هذه النقاط تحديد حدود الجدران الطينية المصنوعة من اللبن في المقاطع العرضية في الحفريات. وكان الفضل في إنجاح أعمال البعثة يعود لرئيس البعثة الأستاذ الدكتور رؤوف منجاييف، وتجربته الغنية في تنقيب المواقع الأثرية في ما وراء القفقاس، و إلى الأستاذ الدكتور نيكولاي ميربيرت، الذي عمل في ذلك الوقت في أعمال التنقيب والبحث الأثري في نصف بلدان أوراسيا (أي أوروبا وآسيا)، وفي نوبي شمال إفريقيا. وباختصار فإنّ حالة البعثة السوفيتية العاملة في العراق

كانت تسير مع الوقت بشكل لا بأس به، وتُعتبر اكتشافاتنا، والاهتمام البالغ من قبل الزملاء الأجانب بأعمالنا، خيرَ دليلٍ على ذلك.

وبفضل عملنا في سهول سنجار تعرفنا إلى عدد كبير من علماء الآثار الأوربيين، فالكثير منهم زار مقر البعثة في ياريم تبه، مثل عالم الآثار الإنكليزي سيتن لويد، صاحب كتاب آثار بلاد الرافدين، ومديرة البعثة الإنكليزية في أم الدباغية الدكتورة ديانا كير كبريد، ومدير معهد الآثار الألماني في بغداد يورغن شميدت، والأستاذ الدكتور فودزي من جامعة طوكيو، وآخرون كثر.

تعرفنا في العراق إلى العالم الأمريكي الكبير في مجال الآثار والاستشراق البروفسور روبيرت جاك آدمز، وخلال المؤتمر الأثري المشترك بين السوفييت والأمريكان عن آثار الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، أقمنا علاقات وثيقة في المجال العلمي مع روبيرت بريد وود من جامعة شيكاغو، وروبيرت ديسن من متحف بنسلفانيا في مدينة فيلاديلفيا، ولامبيرغ كارلوفسكي مدير متحف بيبودي من جامعة هارفرد في مدينة كامبردج في ولاية ماساجوسي، هذا بالإضافة إلى علماء الآثار العراقيين، مثل فؤاد سفر و طارق مدلوني و عيسى سلمان و فوزي رشيد، وآخرين ممّن كانوا يزورونا في مقر البعثة ويستقبلوننا في بغداد. وباختصار كانت تجربتنا في التبادل العلمي الدولي بفضل عملنا على أرض العراق متنوعة ومفيدة؛ لا سيما وأننا كنا نحتك، وبشكل خاص، مع البعثات التي كانت تعمل على مقربةٍ منّا، مثل بعثة تل الرماح وبعثة أم الدباغية، حيث كانت تتمّ اللقاءات الجميلة، و يدور الحديث عن الطُرف والنوادر أثناء المآدب و في أيّام العطل.

الفصل الرابع

على مشارف الحضارة:

ثورة العصر الحجري الحديث /الثورة النيوليتية/

يقول الآثاري المعروف ف.م. ماسون: "للشرق الأوسط الدور الكبير في الحضارة العالمية، فحضارة سومر، ومصر، وآشور، وبابل هي التي فتحت الكتاب الذهبي للحضارة الإنسانية بكل جدارة ".

ولكن الاكتشافات الأخيرة أثبتت أن هذه النظرية تعود إلى فترات أقدم بكثير مما ذكره ماسون؛ عندما اكتُشفت، في أعماق الكهوف والمستوطنات القديمة، السويات التي تضم أساس البداية الحقيقية للحضارة البشرية، وأساسها الاقتصادي، كما تُظهر المواد المكتشفة حديثاً على أرض الشرق الأوسط، في الألف العاشر والثامن قبل الميلاد، قيام مجموعات بشرية غير معروفة بالخطوات الأولى لتأسيس نوع جديد من الاقتصاد.

لم تكن الكتب العلمية والمقالات الأثرية عن بلاد الرافدين، قبل ٣٠ أو ٤٠ سنة، تتحدث عن بداية مراحل ما قبل الكتابة في تاريخ العراق، وعن ثورة العصر الحجري الحديث (الثورة النيوليتية)، وتأثيرها على حياة مجتمعاتها القديمة في بلاد الرافدين.

لاحظنا التبدل والتباين اللذين طرأا على حياة المجتمعات القديمة، منذ بداية الألف العاشر قبل الميلاد، من خلال الولوج إلى أعماق تاريخ بلاد

الرافدين اعتماداً على اللقى الأثرية المكتشفة نتيجة الدراسات والأبحاث الأثرية في هذه المنطقة، حيث الاستقرار والزراعة وتدجين الحيوان؛ بمعنى آخر، تغير نمط الحياة بسبب التغير الذي طرأ على نوعية الاقتصاد، أيّ التحوّل من الاقتصاد الاستهلاكي الصِّرف (الصيد والالتقاط) إلى الاقتصاد الإنتاجي (الزراعة وتربية الحيوان)، وذلك بموازاة الاستقرار وبناء المساكن والقرى الزراعية الأولى المشيّدة من الطين. ومن الطبيعي أن يؤدي هذا التغيير إلى تطورات اقتصادية واجتماعية، بالإضافة إلى توزيع العمل على أفراد العائلة والمجتمع، والحاجة إلى أدوات ومعدات تستهلك أو تستخدم بشكل يومي.

بدأ الإنسان حينها بالتفكير في منهجية حياته اليومية، فالزراعة بحاجة إلى أواني لتخزين الحبوب وأدوات لحصد المحصول، وكذلك الحاجة إلى أواني للطبخ وغيرها؛ إلى جانب تربية المواشي والحاجة إلى حمايتها وبناء مآوٍ لمبيتها؛ كل هذه الأمور كانت نتيجة طبيعية للثورة النيوليتية، التي أدت فيما بعد إلى اختراع الإنسان العجلة البطيئة والسريعة لصناعة الأواني الفخارية.

جرت الأبحاث الأثرية، فيما مضى، بشكل رئيسي جنوب البلاد، في سهول بلاد الرافدين، وقد كانت اللقى الأثرية القديمة تقع في السويات والطبقات العميقة تحت التلال الأثرية، وقد أعطت التنقيبات النادرة، التي تطرقت إلى تلك السويات في بعض المواقع، معلومات عامة عن تطور الحضارات الزراعية البدائية العائدة إلى فترات ما قبل التاريخ التي سبقت ظهور الحضارة السومرية، والأكادية، ونقصد (حسونة وحلف وعبيد)، وقد كانت جميعها تنتمي إلى الحضارة الزراعية المتطورة العائدة عبر الزمن إلى ما لا يزيد عن ٢٥٠٠ عام، فيما إذا اعتبرنا وقت ظهور ممالك المدن السومرية في نهاية الألف الرابع ق.م عملياً. لقد كانت فترة ما قبل التاريخ

القديم لبلاد الرافدين مجهولةً حتى وقت قريب، وأصبح من الواضح تماماً بأنه في هذه الفترة المظلمة تحديداً (بين الميزوليت أي ما بين الألف الثاني عشر والألف العاشر ق.م وتكوّن ثقافة حسونة وسامراء في الألف السادس ق .م)، في بعض المناطق من الشرق الأدنى التي تسمى بالهلال الخصيب، حدثت تلك التطورات الضخمة، والتغيّرات التي أدت في نهاية المطاف إلى تشكل البنية الأساسية للاقتصاد الزراعي– الرعوي لمجمل نواحي حياة الاستقرار والتحضر في المنطقة، وبين هذه الفترة الأخيرة والفترة التي سبقتها يقع الحد النوعي الفاصل، حيث تنتقل البشرية، وللمرة الأولى في التاريخ، من حياة الالتقاط والتجميع والصيد إلى إنتاج الغذاء (الزراعة وتربية الحيوان). ويسمي فريدريك أنجلس هذه النقطة المفصلية في حياة الإنسان القديم بـ "التقسيم الأول الضخم" للعمل في المجتمع البشري، مشيراً إلى الانتقال من مجتمع الصيادين وجامعي الغذاء إلى المجتمع الزراعي الرعوي.

استخدم بعض علماء الآثار الأجانب، اقتداء بالإنكليزي جوردن تشايلد، مصطلح "ثورة العصر الحجري الحديث" كتسمية لهذا الحدث التاريخي- الثورة النيوليتية، وقد تبدو هذه المفردة غير مألوفة، للوهلة الأولى، من حيث الشكل، ولكنها تعكس بشكل دقيق جداً، ذلك الانقلاب المهم، وارتباطه مع مرحلة مهمة في علم الآثار– العصر الحجري الحديث.

يمكن حصر النقطة المهمة في ثورة العصر الحجري الحديث بظهور ثلاثة عناصر أساسية جديدة في حياة الناس، وهي: الزراعة وتربية الحيوان (كأساس للاقتصاد)، ومستوطنات مكونة، على الدوام، من بيوت مبنية على الأرض، وصناعة الأواني الطينية.

وكان الدور المهم والأساسي هو للزراعة، ذلك أنّ الفخار الذي كان يعتبر، فيما مضى، أحد أهم علامات النيوليت، لم يكن معروفاً في أغلب

المجتمعات الزراعية– الرعوية، وفي الوقت نفسه كان معروفاً عند بعض المجتمعات البرية من الصيادين وجامعي الغذاء. وهكذا نجد بأن الانتقال من الصيد والالتقاط إلى عملية إنتاج الغذاء كانت، بلا أدنى شكّ، تحولاً كبيراً وحدثاً مهماً في تاريخ الإنسانية، فنتيجة للثورة النيوليتية تغيرت شروط عملية تطور الحضارة البشرية بشكل جليّ، وتغيرت كذلك البنية المحيطة بها، وتعرض الإنسان نفسه إلى تغيّرات وتحولات بيولوجية واجتماعية. وهكذا عرفنا الآن المكان الذي جرت فيه الثورة النيوليتية؛ إنه الشرق الأدنى (الهلال الخصيب)، وذلك في الفترة الممتدة ما بين الألف العاشر والألف السادس قبل الميلاد.

ولكن يبقى ثمة الكثير من الأسئلة دون أجوبة واضحة!

ما الذي دفع الصيادين ولاقطي الغذاء في الشرق الأدنى إلى ممارسة الزراعة وتدجين الحيوان؟ وفي أي وسط طبيعي وجغرافي تمت هذه العملية؟ وما الآلية التي تمّ بها هذا التحول؛ من طريقة العيش الاعتيادية إلى طريقة عيش جديدة أكثر تطوراً؟ وكم كان عدد هذه المواقع التي مارست هذا النوع من الإنتاج في المنطقة المذكورة؛ واحد أم اثنان أم ثلاثة أم أكثر؟ يقول ف٠م ماسون: "إنّ الانتقال إلى تربية الحيوان والزراعة كان نتيجة البيئة المناسبة ودرجة التطور في بيئة المجتمعات البشرية، مثل التطور التقني في صناعة الأدوات، والبذرة الإيجابية في بنية المعرفة، والكثافة السكانية التي لم يعد الصيد والالتقاط يفيان بمتطلباتها، ومن الممكن أن يكون الإنسان قد مرّ بمرحلة صعبة غير قابلة للتحمّل، وتكون هذه الأسباب هي التي أدت إلى ظهور النوع الجديد من الاقتصاد".

لعب عامل الطبيعة، في مراحل مختلفة من الثورة النيوليتية، دروراً رئيسياً في هذا التحوّل، ففي مرحلة مبكرة ظهرت مناطق في العالم مهيئة

طبيعياً لظهور الزراعة والرعي، وكانت تلك الأماكن، قبل كل شيء ذات ظروف مناخية استطاع الإنسان أن يعيش فيها، وذلك نظراً لتوفّر الحيوانات والنباتات البرية، حيث تمكن الإنسان من تدجينها، لذلك ليس غريباً أن ترى جميع المواقع الباكرة العائدة إلى فترة الثورة النيوليتية تقع في الشرق الأوسط؛ وخاصة في مناطق ذات طبيعة معينة، مثل منطقة الشريط الواقع على سفوح جبال زاغروس، الغنية بأشجار السنديان، في كردستان العراق، على ارتفاع أعلى من ٦٠٠ م وحتى ١٣٥٠م. في هذه المنطقة بالتحديد، توفرت أعداد كبيرة من النباتات البرية مثل القمح والشعير وكذلك البقوليات، وتوفرت الهطولات السنوية للأمطار الكافية للزراعة البعلية، واعتماداً على المكتشفات الأثرية من عظام الحيوانات، نجد بأن حيوانات مفيدة مثل الماعز والغنم والخنزير البري والثور البري، كانت تعيش هناك أيضاً، كما ظهرت بشكل جلي وواضح آثار مجموعات الصيد والالتقاط التي تزامنت ورافقت النواة واللبنة الأولى لاقتصاد جديد في خمسينات القرن الماضي في جبال كردستان شمالي العراق، وقد اهتم بذلك عالما الآثار الأمريكيين روبيرت بريدوود و رالف سولينسكي، وقد أثار هذا الأخير، بعد اكتشافه لمدافن النياندرتال في كهف شانيدار، ضجة في الأوساط العلمية، حيث وجد بالقرب من داخل الكهف موقعاً، أو موقفاً للإنسان القديم" زافي جمي شانيدار"، وهو يعود، بحسب تحاليل الفحم المشع، إلى الألف التاسع قبل الميلاد. وكان الشيء اللافت للباحثين هو كثرة عظام الحيوانات في سويات الموقع (الموقف)، وأثبتت التحاليل المخبرية أنّ أغلب العظام هي عظامُ أغنام؛ ثلاثة أخماسها تعودُ لخرافٍ لا يتجاوز عمرها عاماً واحداً، وهذا دليل قاطع على أنّ الأغنام كانت مدجّنة، والخراف الصغيرة كانت تُذبح لأجل الاستفادة من حليب الأم.

كذلك كانت مجموعة أدوات العمل التي اكتشفت في "زافي جمي شانيدار" مثيرة للانتباه، وكانت المطاحن المصنوعة من الأحجار غير مصنوعة بشكل جيد، كذلك البلطات والمناجل التي كانت على شكل شفرات

مصنوعة من الصوان، والتي كانت هي الأخرى تثبّت بواسطة القار في المقبض العظمي.

لا نعرف على وجه التحديد أي النباتات حُصدت بواسطة مناجل سكان هذا المكان أو المحطة، ولا نعلم فيما إذا كانت برية أم مزروعة، ولكن كل الشواهد تدل على أنّ النوع الجديد من الإنتاج الاقتصادي (الزراعي والرعوي) كان موجوداً في هذا الموقع.

كان الشيء الأكثر أهمية هو نتائج أعمال البحث الأثري الذي استمر عدة سنوات من قبل البعثة الأثرية الأمريكية برئاسة روبيرت بريدوود في كردستان العراق، والذي كان جل اهتمامه ينصب على دراسة بذور النباتات القديمة في موقع جارمو. فلأول مرة في تاريخ علم الآثار الشرق أوسطي قام الجيولوجيون، وعلماء المناخ، وعلماء الحيوان، وعلماء النبات بالاشتراك مع علماء الآثار بأبحاث ودراسات مشتركة لدراسة الوسط البيئي للإنسان القديم. وأثبتت اكتشافاتهم بأن البيئة آنذاك كانت مختلفة كلياً عن البيئة في وقتنا الحاضر. يقول بريدوود في وصف طبيعة هذه المنطقة: "هناك عدة أسباب لكي نعتقد بأن تغييرات ما قبل التاريخ المتأخر وبداية الفترات التاريخية (تقريباً نهاية الألف الخامس وبداية الألف الرابع قبل الميلاد) بدأت من مركز أو وسط فلسطين، وعبر سوريا، ومن شرق العراق، وكانت منطقة غابات جبلية كثيفة في بعض المناطق، وأقل كثافة في مناطق أخرى، وكانت كمية الهطولات المطرية في الشتاء كبيرة في منطقة الجبال، وكانت تنمو هنا الأشجار ذات الأوراق الواسعة التي تشكل غابات كثيفة الأشجار، يستحيل العبور من خلالها. تلك كانت الغابات البدائية، التي نجد بقاياها في سفوح الجبال بعيداً عن القرى. وفي سفوح الجبال والسهول، حسب المعطيات، كانت تنمو غابات غير كثيفة أغلب أشجارها من السنديان".

أما فيما يتعلق بعالم الحيوان، وحسب الاكتشافات الأثرية في موقع جارمو، فقد كان بوسع السكان المحليين الصيد في الواحات والمناطق المجاورة والغابات والمناطق العالية في أعالي الجبال. ومن بين عظام الحيوانات المكتشفة في التنقيبات- المنقرضة نهائياً في الوقت الراهن- القط البري وحيوانات أخرى استطاعت أن تتلاءم مع العيش في الغابات، مثل الأيل والفهد، وكذلك الدب الذي هو على وشك الانقراض، لأنّ الغابات لم تعد موجودة تقريباً. وهناك حيوانات موجودة حتى يومنا هذا، على الرغم من استمرار صيدها، مثل الخنزير البري، والذئب، والثعلب، وكذلك الماعز البري والغزال.

يقول بريدوود: "في هذه الأيام، في منطقة جمجمال، التي كانت في الماضي البعيد منطقة غابات، من الصعب أن نصادف أيّاً من تلك النباتات، لا في السهل ولا في الجبال، حتى أنّ السنديان القزم لا يتعدّى طوله المترين؛ إذ يقوم السكان بقطعه من أجل التدفئة. وبما أن الغابات والنباتات الحراجية انقرضت، والأنواع الأخرى تقضي عليها الحيوانات والمواشي في الربيع، وتجرف التربة، فترميها إلى الأنهار لتتحوّل إلى طين، وفي الشتاء تزيل الأمطار هذه التربة من السفوح والمرتفعات. إذاً نستطيع القول إنه رغم إيجابيات الثورة النيوليتية، نجد بأن من سلبياتها أيضاً النشاط المدمر للمجتمعات الرعوية والزراعية للبيئة المحيطة".

جارمــو:

كانت البعثة الأثرية برئاسة روبيرت بريدوود، التي عملت في موقعي كريم شهر وجارمو الأثريين في كردستان العراق، ذات أهمية خاصة بالنسبة لعلم الآثار في الشرق الأدنى.

تقع المستوطنة القديمة كريم شهر، شمال مدينة جمجمال في محافظة كركوك؛ لم يتم تحديد عمر الموقع بشكل دقيق، ولكن بمقارنته مع مكتشفات السويات الأقدم لموقع أريحا في فلسطين، تعود فترة كريم شهر إلى الميزوليت (الألف التاسع قبل الميلاد)، وهي عبارة عن محطة أو موقف مؤقت للإنسان القديم. كان المصدر الأساسي لغذاء سكان الموقع، هو الصيد والالتقاط أو صيد السمك، ولا تُعتبر المناجل ذات الشفرات الصوانية والمطاحن الحجرية سيئة الصنع، في سويات الموقع دليلاً على ظهور الزراعة، فهي كانت موجودة لأجل حصد المحاصيل البرية أو جمعها . وكانت الثقافة الجديدة في صناعة البلطات الحجرية المتقنة، والدمى الطينية متقنة الصنع، من منجزات سكان كريم شهر، وعلى أعتاب هذا الموقع بدأت الثورة النيوليتية.

أما موقع جارمو فنجده يعرض لنا المراحل الأكثر تطوراً من الثورة النيوليتية، وهو يعود إلى الربع الأول من الألف السابع قبل الميلاد. يقول بريدوود: "إنّ موقع جارمو يصنف ضمن المواقع العائدة للمجتمعات الزراعية المستقرة بشكل كامل في منطقة زاغروس".

تبلغ مساحة موقع جارمو نحو هكتار وربع، وهو يقع على حافة ناتئة من الجبل، و يبدو وكأنه معلق في الوادي العميق الذي يقع تحته، وتبلغ سماكة السويات الأثرية في الموقع ٧,٦م، وقد اكتشف المنقبون في الموقع اثنتي عشرة مرحلة من الاستيطان، و يوجد الفخار في الثلث الأعلى من الموقع من ضمن ارتفاع سوياته التي تبلغ حوالي ٨أمتار.

كان الاعتقاد بوجود الزراعة المتطورة في جارمو يعتمد على المكتشفات الأثرية من الأدوات الحجرية التي استخدمت للحصاد وطحن الحبوب، وترسخ ذلك فيما بعد، عندما تم اكتشاف حبوب المحاصيل الزراعية مثل القمح والشعير ذوَي الصفين.

كانت المواقع العائدة إلى فترة جارمو منتشرة في السهول الجبلية العالية، والمناطق الجبلية المنخفضة التي كان بالإمكان ممارسة الزراعة وتربية الحيوان فيها، مثل جارمو وتل شمشارة. ومع مرور الزمن، نجد أن بعض المجموعات الرعوية والزراعية انتقلت إلى السهول المحيطة بالجبال، وأطراف سهول بلاد الرافدين، مثل موقع تمرخان.

لكن يبقى المركز الأساسي والأصلي لهذه الحضارة أو الثقافة هو المناطق الجبلية في زاغروس، التي كانت تنمو فيها المحاصيل البرية، وكانت وفرة الهطولات السنوية من الأمطار تكفي لزراعة القمح والشعير، وهنا أيضا كانت تعيش الحيوانات البرية مثل التيس الجبلي والكبش والخنزير البري، الذي اصطاده السكان المحليون منذ العصر الحجري القديم، وأصبح فيما بعد، أي بعد التدجين، من ضمن قطعان المواشي الرئيسية لسكان شمال بلاد الرافدين.

العلاقة وثيقة بين القديم والجديد، وبين المتطور والعتيق في ثقافة جارمو، كما أن الأدوات الصوانية والعظمية لسكان زاغروس في معظمها هي من مخلفات الميزوليت في كردستان العراق؛ مثل المثاقب والإبر وشفرات المناجل، ولكن المناجل المقوسة كانت هي الأكثر استعمالاً، وليست المناجل ذات الشفرة المستقيمة؛ مثل مناجل القبائل النطوفية في فلسطين في عصر الميزوليت.

ونجد بين تركة الماضي السحيق، الكثير من المكاشط التي استخدمت لتنظيف الجلود، ولكن المظاهر الحضارية لن تستند من الآن فصاعداً إلى الخصائص والعادات القديمة، فقد أدّى الانتقال إلى الزراعة، إلى نشوء حياة الاستقرار وظهور البيوت والمساكن الطينية، فالبيوت التي شيدت من الطين المخلوط مع القش أصبحت مريحة وآمنة لسكن القبائل المحلية التي تركت مكان السكن السابق في الكهوف والمغارات، بشكل نهائي. وتتسم جميع هذه

البيوت الجديدة بالبساطة، ولكنها تتميز بتوفّر بعض أسباب الراحة، كما أنّ التطلع إلى حياة أفضل واضح أيضاً من خلال طبيعة تلك البيوت.

استخدمت المواقد لتدفئة المنازل وكذلك لصناعة الخبر، وتدل القواعد الحجرية المعقدة، التي استخدمت لتثبيت الأبواب، على استخدام قاطنيها للأبواب الخشبية، وفي كثير من الأحيان، طلوا أرضيات الغرف باللون الأحمر أو بطبقة من الجص، من أجل صناعة الأغذية النباتية التي تتطلب كثيراً من الأواني، ونرى بشكل سريع أن الأواني الفخارية الملساء الخالية من الزخارف، والتي رُسم عليها بخطوط من الطلاء رسومات غير متقنة، حلت محل الأواني الحجرية.

وفرت الطرق الجديدة لتأمين المواد الغذائية، بشكلٍ واضحٍ، الكثير من الوقت من أجل ممارسة أمور آخرى، ومن خلال المكتشفات نلاحظ ظهور أدوات حجرية وفخارية للعب والتسلية في هذه الفترة، وكذلك تماثيل طقوسية لدمى إنسانية وحيوانية مختلفة؛ مايدل على بداية تطور الفن في العصر الحجري الحديث في شمال بلاد الرافدين.

يقول المؤرخ الروسي الشهير ي.م. دياكونوف: "لقد تم تجاوز الحدود في مسألة تأسيس الاقتصاد الإنتاجي في هذه الفترة، وعلى الرغم من أنه كان بطيئاً، إلاّ أنّه مهد الطريق إلى التطور في جميع مجالات الحياة ". وأحد أكثر الشواهد والأدلة على ذلك هو نزول سكان الجبال إلى السهول المحيطة على نطاقٍ واسع، وبداية استثمارهم لأراضي بلاد الرافدين الخصبة، ما أسهم، وبشكل ملحوظ، في بداية ظهور المجتمعات الرعوية والزراعية، التي شكلت بداية أساسية لظهور الحضارة البشرية.

تل المغزلية:

اكتشفت بعثتنا في عام ١٩٧٧م آخر أقدم المواقع الأثرية في الشرق الأوسط وهو تل المغزلية، العائد إلى فترة المزارعين الأوائل. يبلغ ارتفاع هذا التل ثمانية أمتار، وهو يقع على أحد الحواف المرتفعة من جبل سنجار، ويشرف على منظر طبيعي جميل ومنحدر عميق، حفره نهر صغير كمجرى له، قبل أن يتدفق إلى المنطقة السهلية. التهم هذا النهر نصف التل تقريبا، وعلى أكثر من ثلثي الجزء المتبقي منه- وتبلغ مساحته أكثر من هكتار- توجد مقبرة إسلامية معاصرة، لذا كان من المؤسف أن يكون الجزء الذي استطعنا أن نباشر أعمال البحث الأثري فيه، مساحة صغيرة في الجهة الشمالية من المستوطنة، لأن تل المغزلية موقع أثري غير عادي، كوننا لم نجد في سوياته التي بلغت ثمانية أمتار، أية كسرة أو جزءاً من الأواني الفخارية، لذا كل الأدلة والشواهد تقول لنا بأننا أمام موقع عائد إلى فترة النيوليت ما قبل الفخار، أي يعود إلى نهاية الألف الثامن ق.م وبداية الألف السابع قبل الميلاد.

في الحقيقة كان باستطاعتنا الاكتشاف والعمل في هذا الموقع الأثري الفريد سابقاً، لأننا، أثناء استطلاعاتنا الأثرية في الفترة الممتدة ما بين (١٩٧١و١٩٧٣م)، شاهدنا أنا ونيكولاي بدر تلاً عالياً على الجهة الأخرى من المنحدر، ولكننا رجّحنا بأنه عائد إلى فترة حلف أو عبيد، بسبب ارتفاعه ومساحته الكبيرة . ولذلك تابعنا البحث والمضي قدماً في الجبل، آملين العثور على مواقع أكثر قِدماً من المواقع التي كنا نعمل فيها في ياريم تبه /١و٢و٣/ والتي كانت تقع في الجهة الجنوبية الغربية من تل المغزلية، على بعد عشرة كيلو مترات، ولكن مع مرور السنين أصبحنا أكثر تجربة وخبرة وحكمة، فعندما مرّ نيكولاي بدر في إحدى الجولات بالتل المذكور، توقف وقرر أن ينظر إلى الموقع بشكل تفصيلي، وبعد النظرة الأولى في الأماكن

المجروفة من التل، شاهد أساسات حجرية ضخمة للمباني وكثافة من اللقى الأثرية المصنوعة من الصوان والأوبسديان، ولم يجد أية كسرة أو قطعة فخارية. تبادر إلى ذهني على الفور أنه من الممكن أن يكون الموقع عائداً إلى فترة النيوليت ما قبل الفخار. بدأت التقنيات، وظهرت اللقى والاكتشافات الأثرية الفريدة التي لم تجعلنا ننتظر طويلاً؛ بالفعل ليس ثمة فخار في تل المغزلية، ولكن بدا بشكل جلي أنّ الزراعة كانت الاقتصاد الأساسي لسكان الموقع.

في السويات الأثرية للموقع، وتحديداً قرب المواقد، اكتشفنا الكثير من الحبوب مثل القمح والشعير، وحبوباً أخرى يكون لها حضور عادةً أثناء القيام بالزراعة، كما تم اكتشاف ممارسة الزراعة التقليدية، وكذلك المنشآت المساعدة على ذلك، مثل المستودعات المطلية بالجص ومواقد صناعة الخبز، وأيضاً شفرات الأوبسيديان الذي استخدم كنصال للمناجل الخشبية والعظمية، ودمى إنسانية مصنوعة من الطين ترمز إلى الخصوبة. وصادفنا أثناء عملية التنقيب عدداً كبيراً من عظام الحيوانات المختلفة، علماً أنه يتعيّن على علماء الحيوان أن يثبتوا ما إذا كان سكان مغزلية قد مارسوا تدجين الحيوان أولاً؟ وبكلّ الأحوال، فإن ممارسة الصيد كانت تحتل مكانة مهمة في حياة سكان المستوطنة، فكثيراً ما كنا نصادف عظاماً كبيرة لحيوان حمار الوحش، وعلى الأغلب فإنّهم كانوا يستخدمون القوس والسهم في الصيد.

في الطبقات الأثرية، اكتُشف عدد كبير من رؤوس السهام الصوانية ومكاشط لتنظيف جلود الحيوانات المفترسة، ومثاقب من العظم وبلطات حجرية متقنة الصنع، علماً بأن ٩٠ % من الأدوات كانت مصنوعة من الأوبسيديان، الذي تقع مناجمه على بعد بضعة مئات من الكيلو مترات من سفوح جبل سنجار، في جنوب شرق الأناضول (تركية الحالية).

وبكلمة أخرى: إنّ كل الحقائق المتوفرة تعود بنا إلى فترة العصر الحجري وعاداته وتقاليده في صناعة الأدوات الحجرية التي تعود إلى عمق الميزوليت والباليوليت الأعلى، والأواني صنعوها من الحجر والجص (ضمن مجموعة المكتشفات في الموقع أجزاء من الأواني مصنوعة بشكل رائع من حجر المرمر الأبيض والأحمر)، ومع كل هذا فإن كل الشواهد تقول إنهم مارسوا الزراعة وخاصة (القمح القاسي والطري والشعير)، ولكن السؤال المطروح هو هل دجن سكان جارمو الحيوان أولاً؟ يبقى السؤال مفتوحاً، ولكن الغريب في الأمر هو أن سكان هذا الموقع، الذي يعد من أحد أهم وأقدم المواقع الأثرية في الشرق الأوسط، كانوا يعرفون المعدن، لأننا وجدنا بعض القطع من بقايا مثقب معدني.

كانت الأبنية السكنية التي اكتشفت في الموقع خلال التنقيب ذات مساحة واسعة تبلغ نحو ١٠٠م مربع، وقد بُنيت على أساسات حجرية متينة؛ جدرانها من الطين مثل البيوت الحالية في تلك المناطق من العراق، و أرضية الغرف والجدران غالباً ما كانت مطلية بطبقة من الجص، وحسب المعطيات التي اكتشفت في بقايا ومخلفات الأبنية، كانت سقوف البيوت من القش أو الخشب، وكانت مثبتة على أعمدة خشبية، وكان ذلك واضحاً من آثارها الموجودة على أرضيات الغرف في الأبنية السكنية، وكانت توجد مواقد النار ومستودعات الحبوب ومقاعد طينية على طول الجدران من أجل الجلوس، وكان عدد هذه الأبنية نحو سبعة بيوت أو ثمانية ، بينها كانت تقع أبنية المعيشة والتنانير.

من جهة الجرف، كانت الطبقات واضحة من خلال المقطع العرضي الذي بلغ ثمانية أمتار، واستطعنا أن نفرز خمس عشرة طبقة أثرية من السكن، تعاقبت على التل، فإذا افترضنا أن كل بناء من هذه الأبنية استطاع

أن يدوم نحو ثلاثين سنة من دون صيانة، يكون عمر الاستيطان في تل المغزلية قرابة خمسة قرون.

وكما يقول مدير التنقيبات في تل المغزلية نيكولاي بدر، فإنّ آخر الاكتشافات الفريدة في الموقع هو الجدار الدفاعي الضخم المبني من أحجار كبيرة، والتي بلغ طول بعضها نحو ١,٥م، ومن الجهة الشمالية للجدار كانت توجد أساسات حجرية، على شكل نعل فرس، يبلغ قطرها حوالي ٥م؛ ونحن نعتقد بأنها أساسات لبرج. ونعتقد أن مدخل المستوطنة كان من جهة الغرب، لأن في هذه الجهة كانت توجد آثار بوابة كبيرة على أساسات حجرية ضخمة.

إنّ ظهور تحصينات دفاعية معقدة في تلك الفترة القديمة تنتظر دراسة وتحليلات جادة من قبل علماء الآثار، كونها اكتشافات مماثلة تحت مستوطنات عائدة إلى فترة المزارعين الأوائل في الشرق الأوسط، مثل أريحا وبيرا ورأس شمرا وشاتل هيوك.

من الواضح أن سبب ظهور هذه التحصينات كان الخوف من خطر الهجوم على هذه البؤر المتطورة من الثورة النيوليتية، من قبل الجيران الأقل تطوراً (الذين يمتلكون موارد غذائية أقل)، والذين بقوا معتمدين على الاقتصاد البدائي مثل الصيد والالتقاط، وظهور هكذا مستوطنات محصنة كانت انطلاقة مرحلة جديدة، وهي انتهاء الثورة النيوليتية وبداية نوع جديد من الاقتصاد في الألف السابع و السادس قبل الميلاد، وانتشر هذا الاقتصاد بعيداً عن المناطق التي نمت فيها الحبوب البرية لأول مرة، وحلت بشكلٍ تدريجيٍّ، مكان المستوطنات المنعزلة في مناطق محددة، مئات المستوطنات للمزارعين الأوائل.

نتائج الانتقال إلى حياة الاستقرار كانت ثورة حقيقية:

أولاً: التغيير الذي حصل في كمية وعدد السكان في المناطق التي انتصر فيها النوع المتطور من الاقتصاد. فبحسب إحصائية روبيرت بريد وود، فقد كانت نسبة السكان في عموم الشرق الأوسط، خلال فترة العصر الحجري الأعلى، تبلغ ٣ أشخاص في كل ١٦٠ كم٢، أما في فترة الميزوليت، أي الألف العاشر قبل الميلاد، بلغت نسبة السكان المختصين في الالتقاط والتجميع ١٢,٥ في كل ١٦٠ كم٢، أما في المجتمعات العائدة لفترات الاستقرار، فقد أصبحت النسبة ٢٥٠٠ في كل ١٦٠ كم٢؛ أي أن عدد السكان ازداد أكثر من ٢٠٠% مقارنة مع المجتمعات المذكورة سابقاً.

ثانياً: مع ظهور الزراعة وتربية الحيوان ازداد فائض الإنتاج على نحوٍ غير مسبوق؛ وكان لذلك دوراً رئيسيّاً في تطور المجتمعات البشرية، وظهور الطبقات، والدولة والحضارة المدنية.

بدأ الإنسان بالتأثير على البيئة المحيطة به وغيرها، وطور جميع النواحي الحياتية، بفضل الانتشار الاصطناعي للحبوب المفيدة، وتدجين الحيوانات، والمضيّ بها من مناطق ظهورها الطبيعية (البرية)إلى مناطق وأراضي جديدة، توسع فيها واحتلها. ومن خلال نظرة، وأنت تقف على سفح جبل سنجار، من موقع تل المغزلية، ترى المساحة الواسعة من سهول سنجار التي تنتشر فيها تلال صغيرة وكبيرة، ومن بينها التل الصغير "سوتو" وعشرات التلال الأخرى؛ كلها تشهد على الاستيطان الكثيف للإنسان القديم، الذي نزل من الجبال إلى السهول في بلاد الرافدين.

حالياً لا نستطيع أن نتكلم عن تاريخ الانتقال من النيوليت إلى الحضارة المدنية، لأن المعلومات المستقاة نادرة، وليست كثيرة، ولكننا أصبحنا نعرف أكثر، بفضل الأبحاث النظرية القديمة القائلة بأن حضارة سومر تطورت في مكان غير معلوم، وأتت إلى بلاد الرافدين وهي متطورة ، والآن وبعد التعمق في تاريخ بلاد الرافدين، نجد أن بعض مظاهر الحضارة قد أتت من

الخارج، ولكن أغلبها كانت نتيجة التطور المحلي، ونابعة من الثقافات الزراعية القديمة، التي تعاقبت على بلاد الرافدين خلال ثلاثة آلاف سنة، وهي حسونة وحلف وعبيد.

ثقافة حسونة:

سميت هذه الثقافة أو الفترة الزمنية من تاريخ بلاد الرافدين الشمالي بهذا الإسم، نسبة إلى تل حسونة الذي يبعد عن الموصل مسافة ٣٥ كم من جهة الجنوب، وقد نقبت في هذا التل، بعثة عراقية إنكليزية مشتركة برئاسة فؤاد سفر وستين لويد.

اكتشف المنقبون في السوية السفلى للموقع فخاراً بلون واحد، وأواني حجرية لمستوطنة صغيرة تعود للمزارعين الأوائل الذين عاشوا، أغلب الظن، في مساكن غير ثابتة، مثل خيم مصنوعة من الأغصان والجلود؛ لأنهم لم يجدوا أي أثر لمساكنهم. وفوق هذه السوية توضعت ست طبقات من الأبنية الطينية التي أظهرت التطورات والتغيرات التي حصلت فيما بعد في حجم ونوعية الأبنية وتخطيطها.

من حيث الحجم ومادة بناء هذه الأبنية نلاحظ التشابه الغريب بينها وبين مساكن سكان شمال غرب بلاد الرافدين المعاصرين؛ تحيط ست أو سبع غرف على شكل كتلتين بمساحة فارغة أو بهو داخلي؛ إحدى الكتل هي للسكن، والثانية هي مستودعات معيشة ومطبخ. والجدران مبنية من اللبن الطيني، الأرضيات مسيعة بالطين والقش (التبن)، وكان سكان المستوطنة يحتفظون بالحبوب في أواني طينية ضخمة غير مشوية، ومغروسة في الأرض حتى عنقها، كما صنعوا الخبز في تنانير طينية على شكل قبب، وكانت شبيهة بالتنانير المعاصرة للسكان المحليين. ومن بين المخلفات المادية، أي اللقى الأثرية المكتشفة، كان ثمة مطاحن حجرية، وقواعد

حجرية لتثبيت الأبواب الخشبية، وشفرات مناجل من الصوان وفؤوس حجرية، وفخار، ورؤوس مغازل من الطين، ودمى إنسانية وحيوانية مصنوعة من الطين بغير إتقان.

يقسم المختصون فخار حسونة إلى ثلاثة أنواع أو مراحل وهي: "حسونة عتيق"، و "النموذجي"، و"فخار سامراء". إن طريقة حياة الحسونيين الأوائل تجعلنا نفهم لماذا توسعت ثقافتهم بشكل سريع على مساحات تقدر بآلاف الكيلومترات، ولا نستبعد أن يكون الحسونيون قد تركوا أماكنهم الأصلية، بسبب استهلاكهم للأراضي الزراعية لمئات السنين، ما أدى إلى ضعفها أو عدم خصوبتها، ولهذا السبب، أو بسبب تزايد السكان، اضطروا إلى النزوح نحو مساحات أخرى غير مسكونة.

استقر المستوطنون الجدد في الأماكن الجديدة الأكثر خصوبة لفترة طويلة، أما الأماكن التي كانت أقل خصوبة أو كانت شروط الحياة فيها قاسية، فلم يستقروا فيها طويلاً، وبعد جني المحاصيل مضوا إلى أماكن أخرى جنوباً.

كانت مستوطنات حسونة (الألف السادس قبل الميلاد) منتشرة بشكل واسع، وهي موجودة على أراضي شمال شرق سوريا وفي العراق، وحتى المناطق الغربية من إيران، وتصل حدودها الجنوبية حتى مدينة بغداد، ولكن مركز هذه الثقافة يقع دائماً في بلاد الرافدين، وتحديداً شمال غرب بلاد الرافدين، فقد جاء الحسونيون سائرين بمحاذاة مجرى نهري الفرات ودجلة، حتى وصلوا في نهاية المطاف إلى المنطقة غير المستقرة زراعياً؛ أي ذات الهطولات المطرية غير الكافية لممارسة الزراعة غير المستقرة، ففي الوقت الراهن لا تتجاوز نسبة الهطولات السنوية في منطقة بغداد ١٨٠مم، وهذا ما دفع الإنسان، لأوّل مرّة في التاريخ على وجه التقريب، لممارسة عملية الري الاصطناعي للمزروعات، وكانت تتمُّ أغلب الظنّ، من خلال

حجز المياه في المستنقعات وإنشاء سدود صغيرة، كما تمّ شق قنوات غير طويلة للمرّة الأولى. واكتشف الآثاريون خلال التنقيبات الأثرية في موقع تل صوان، الواقع على الضفة الشرقية لدجلة، وعلى بعد ١١كم جنوب سامراء، كمية كبيرة من الحبوب، ومن ضمنها أربعة أنواع من الشعير وثلاثة أنواع من القمح، واكتشاف سنابل الشعير ذات الصفوف الستة، يدل على أن المزارعين استخدموا الري الاصطناعي؛ كون هذا النوع من الشعير لا ينمو إلا بالري.

اكتشف الآثاريون في موقع شوغا مامي بقايا قنوات ريٍّ عائدة إلى الألف السادس ق.م، ولم يكن إنشاء أقنية الري في المناطق الواقعة وسط مجرى نهري دجلة والفرات بالعمل السهل؛ كون هذين النهرين يمتلكان قوة مميتة أثناء الفيضانات الربيعية الهائجة، بسبب المستويات غير المتوقعة لمياهها، ففي الوقت الحاضر يصل ارتفاع مياه دجلة في بعض الأعوام خلال يوم واحد إلى ١٢م.

عدا عن ذلك، فإن هذين النهرين العظيمين يجلبان معهما آلاف الأطنان من الطمي الذي يترسب في قعر المجرى، ففي نهر دجلة بالقرب بغداد، يحتوي المتر المكعب من المياه على ٧٨٧ غراماً من الطمي، وفي كل ثانية يجري من خلال نقطة المراقبة الموجودة على النهر ١٢٤٠م٣ من المياه. يجلب نهرا دجلة والفرات معهما إلى الخليج الفارسي سنوياً حوالي ثلاثة ملايين طن من التربة. وبسبب ذلك نلاحظ تغيّر مجرى النهرين لمرات عديدة، والابتعاد عن المجرى السابق، وهكذا كانت تأتي المياه إلى مجتمعات زراعية جديدة، وفي المقابل تنتهي عند مجتمع آخر.

ولكن لم تكن الحرارة العالية والنهران الهائجان العقبة الوحيدة أمام استيطان الإنسان القديم، فقد كانت ضفاف نهري دجلة والفرات في الشمال مغطاة بالغابات، وفي الجنوب كان يوجد جميع أنواع النباتات الحراجية

الكثيفة، وكانت تعيش حولهما أنواع مختلفة من الزواحف؛ مثل الضب والتماسيح، ونعرف ذلك من خلال الأساطير السومرية، وكذلك الخنازير البرية والأيائل والأفاعي، وكانت أعدادٌ لا تُحصى من الحيوانات تنتشر في المناطق المحيطة بمجرى النهرين، مثل حمار الوحش والغزال والكبش البري، وكذلك الفهود والأسود. وكان من الصعوبة بمكان أن يلاقي الإنسان الأرض المناسبة للزراعة في هذه المناطق ذات القيظ الحارق والفيضانات المدمرة.

هلكت هنا بعض المجموعات البشرية القادمة من الشمال، بسبب الفيضانات المفاجئة، أو الحيوانات المفترسة أو بفعل الجوع والمرض، ولكن البعض ممّن نجوا واستقروا في هذه السهول والبلاد الحارة، جنوا مواسم وفيرة من الحبوب، بعد ممارسة الري الاصطناعي. ورغم اصطدامهم مع الظروف المناخية غير المألوفة لهم نجد بأن المزارعين الحسونيين خرجوا منها منتصرين، وهذا الانتصار مهد الطريق واسعاً أمام المجتمعات المحلية إلى قمة الحضارة.

إن سكان المستوطنة الحسونية الواقعة في ياريم تبه١ في سهول سنجار، كانوا الأوائل في صناعة واستخدام المعدن (في سويات الألف السادس قبل الميلاد، وجدت أدوات زينة وبقايا معدنية)، وبنوا المواقد المعقدة ذات القمرتين لشيّ الفخار، وزرعوا الحبوب في أرضهم، مثل القمح الطري والعادي والشعير متعدد الصفوف، وكانوا يملكون قطعاناً كبيرة من المواشي المدجنة، وإذا كان علماء الآثار في السابق قد حددوا بأن البقر تم تدجينه في الألف الرابع، نجد الآن بأن هذا الحدث قد تم قبل ألفي سنة من التاريخ المذكور أي (الألف السادس).

أما عن التطور الذي وصل إليه الحسونيون الذين سكنوا في المناطق الجنوبية، فتشهد عليه المواد المكتشفة في مستوطنة تل الصوان، حيث

اكتشف الآثاريون على هذا التل، الذي تبلغ مساحته ٢,٥ هكتارا، خمس طبقات، تم ترقيمها من الأسفل إلى الأعلى؛ تعود الطبقة الأولى منها إلى ٥٦٠٠ ق.م، وكانت المستوطنة القديمة محاطة بخندق عميق يبلغ عرضه حوالي ثلاثة أمتار، وكان متصلاً بالنهر ليتمّ ملؤه بالمياه أثناء الخطر، وبعد الخندق كان ثمة جدار دفاعي ضخم من الطين على شكل مربع، واكتشف الآثاريون في الطبقة الأولى ذاتها مبنيين يعدان الأضخم في بلاد الرافدين في فترة الألف السادس قبل الميلاد؛ كانت توجد في أحدهما ١٤ غرفة على أقلّ تقدير، بينما كان عدد الغرف أكثر في المبنى الآخر، وكان السلم الداخلي قد بقي محفوظاً، ومؤدياً إلى الأعلى، ما يدلّ على وجود طابقٍ ثانٍ.

كان الجزء الشرقي من المبنى الأول عبارة عن معبد يتألف من أربع غرف، واكتشفت في إحداهما معالم طقوسية في الجدار، وأمامها دمية من حجر الألباستر لربة المعبد، ووجدوا وفي غرفةٍ أخرى دميتين متشابهتين من الطين.

في الكثير من القبورالموجودة تحت أرضية المعبد والغرف السكنية، اكتشف عدد كبير من الدمى الأنثوية، وبعض الدمى الذكورية، وكانت أغلب هذه الدمى مصنوعة من حجر الألباستر ذي اللون المائل إلى الصفرة، وقد تمت صناعتها في المستوطنة، وكانت عيونها مثبتة بالقار (الزفت).

في هذه المدافن اكتشف خرز وموس معدنيّان، وكؤوس وصحون من حجر الألباستر، وأدوات عمل ومطاحن للحبوب من الحجر الأسود المثبت. في الطبقات الدنيا (١-٢) كان عدد القطع الفخارية قليلاً. في الطبقة الأولى كان الفخار يشبه فخار حسونة العتيق، وفي الطبقة الثانية ظهرت الأواني المزخرفة، أما في الطبقة الثالثة والرابعة كانت الأواني السامرائية هي السائدة.

يبدو أن الفخار السامرائي المزخرف في المنطقة القديمة من المستوطنة استُخدم للدفن مع الموتى كأوانٍ طقوسية؛ هذه الأواني كانت مشوية كثيراً؛ حيث كان لونها ورديا فاتحاً، ويميلُ لونها في الغالب إلى الخضرة، وهي ملونة ومزخرفة بأشكال جدائل كالسلال، و كانت هذه الأواني متعددة الأشكال؛ فكانت هناك صحون، وطاسات، وزباديّ، وأكواز.

كانت زخارف الأواني الفخارية الحسونية هي الأكثر تعقيداً وجمالاً، من حيث التركيزعلى رسم الطيور، والماعز، والنسوة بشعرهنّ المسدل، والعقارب، بالإضافة إلى أشكالٍ هندسية مثل الشبكة، والمربعات، وما إلى هنالك. بكل تأكيد كل هذه الرسومات كانت ذات خلفية متعلقة بالسحر، وكانت مرتبطة بطقوس جنائزية خاصة بالدفن.

يعتقد ي. م. دياكونوف بأن مجموعة "القبائل السامرائية هي التي طورت المرحلة الأخيرة من تاريخ بلاد الرافدين، وهم الذين تقدموا إلى الجنوب بمحاذاة دجلة والفرات واستوطنوا في الجنوب".

خلال التنقيبات التي جرت في مستوطنة أبو شهرين (أريدو القديمة) الواقعة في أقصى الجنوب من سهول بلاد الرافدين على ساحل الخليج الفارسي، أثبت الآثاريون بأن أقدم سوياتها (١٥- ١٩) موازية لفترة ثقافة حسونة، وهي شبيهة جداً بالفخار الحسوني– السامرائي المحلي القديم، مثل الأكواب المزخرفة والصحون والطاسات.

وهكذا، فإن امتلاك المزارعين الأوائل القادمين من الشمال، لأراضي بلاد الرافدين السفلى وتطوريها، قد تم في نهاية الألف السادس وبداية الألف الخامس.

لغز عبيد:

وهكذا نرى بأن الاكتشافات الأثرية في الفترة الماضية، في أقصى جنوب بلاد الرافدين تظهر بأن المنطقة المستوية والحارة قد استقر فيها الإنسان لأول مرة في تلك الفترة، حيث كانت الثقافة الحسونية والسامرائية والحلفية سائدة في المناطق الشمالية من بلاد الرافدين.

وهناك علامات عديدة تؤكد ذلك، مثل التشابه الكبير بين الفخار المزخرف، الذي اكتشف في موقع يسمى قلعة حجي محمّد، الواقعة بالقرب من المدينة المشهورة (أوروك – وركاء)، وفخار سامراء وحلف، من حيث التقنية والزخرفة في شمال وشمال غرب بلاد الرافدين. ما يميز هذا الموقع (قلعة حجي محمّد) هو أنّه كان مطموراً تحت طبقة من الطمي النهري (الفرات)، وارتفاعه البالغ ثلاثة أمتار، لذا كانت أعمال التنقيب تجري في الموقع عندما يكون مستوى مياه الفرات في أدنى مستوياته. وبعد ذلك تتابعت الاكتشافات في أريدو (مستوطنة أبو شهرين)، وحسب المعلومات المستقاة من نصوص الرقم الطينية، فقد كانت أريدو واحدة من أهم وأقدس المدن القديمة في بلاد الرافدين، وكانت هذه المدينة، بحسب هذه النصوص، مكان إقامة الإله أو الرب أنكي– إله المياه الباطنية، وأحد أهم الآلهة في البانثيون السومري.

في وقتنا الراهن، فإنّ منظر أريدو هو عبارة عن مجموعة من التلال الاصطناعية والكثبان الرملية، تعلوها، في منظرٍ مهيبٍ، الزقورات– وهي عبارة عن برج على شكل درج من اللبن الطيني، و قد تم تشييد هذا الصرح، وفقاً للنصوص الموجودة على اللبن الطيني، من قبل ملوك السلالة أور الثالثة، في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد.

كم كان استغراب فؤاد سفر (رئيس البعثة المنقبة) وزملائه كبيراً عندما كانوا ينقبون في أساسات المكان؛ إذ وجدوا في إحدى زواياها سلسلة من المعابد الأكثر قدماً، وكانت تنحدر نحو الأسفل، ووصل عددها إلى ١٧ معبداً، بيد أن السكان المحليين كانوا يعتقدون بقدسية هذا المكان، لذا نرى بأنّهم قد بنوا معابدهم في نفس المكان، خلال ألف سنة تقريباً. كانت المعابد الثلاثة الواقعة في السويات الدنيا، والمبنية من اللبن الطيني، تتألف من غرفة واحدة مربعة، و في وسطها يقع المعبد.

كانت هذه السويات تحتوي على فخار مزخرف يذكرنا كثيراً بفخار سامراء المتأخر وفخار حلف، وعلى أية حال، كانت هذه بعض البقع المحددة من المجتمعات الزراعية القادمة من الشمال. ولا يوجد لدينا، حتى الآن، تاريخ محدد لظهور هذه المستوطنات الصغيرة في المجرى السفلي لنهري دجلة والفرات، ولكن بالمقارنة مع المواصفات العامة لفخار المناطق الشمالية، فإنها تعود إلى نهاية الألف السادس وبداية الألف الخامس قبل الميلاد، وكانت عبارة عن محاولات خجولة لبداية الانتشار الكبير، واستثمار مساحات واسعة من المناطق الجنوبية لبلاد الرافدين، و يرتبط ذلك بظهور ما يسمى بقبائل الثقافة العبيدية في بلاد الرافدين، التي سادت المنطقة في الفترة الممتدة ما بين٤٥٠٠ و ٣٥٠٠ ق.م، وقد استمدت هذه الثقافة اسمها من موقع صغير يسمى العبيد، وهو يقع بالقرب من مدينة أور.

في نهاية عشرينات القرن الماضي، عملت بعثة إنكليزية في تل العبيد، واكتشفت تحت بقايا معبد سومري، قطع فخارٍ مزخرفةٍ غير معروفة، تعود إلى فترة أقدم من فترة المعبد، وكانت ذات لون أخضر داكنٍ ومشوية في درجات حرارة عالية، ومزخرفة برسومات هندسية واضحة، مطلية باللون البني الداكن أو الأسود. فيما بعد تم اكتشاف مساكن بسيطة، تحت طبقات الطمي النهري المتشكل من الطين والقصب، تعود للسكان الأوائل لهذه

المستوطنة، وتحتوي على نفس نوع الفخار المزخرف المذكور، وهكذا ظهرت في علم الآثار الرافدي ثقافة أخرى لا تُعرف خصائصها وتاريخها، سبقت حضارة سومر المشهورة.

كان العمل في مواقع عبيدية في جنوب الرافدين خلال عشرات السنين يُعدُّ على أصبع اليد الواحدة، وكان الغموض وعدم الوضوح في كثير من المسائل المتعلقة بهذه الثقافة أكثر بكثير مما اكتشف من المعلومات في هذه المواقع. وقبل كل شيء، فإنّ ما حير الباحثين في هذا المجال هو ندرة المواقع العائدة إلى فترة ما قبل العبيد في جنوب بلاد الرافدين، وهذا ما أدى إلى حدوث اختلاف في آراء علماء الآثار كما هو معتادٌ في مثل هذه الحالات. فقال بعض علماء الآثار: إنّ هذه المنطقة، قبل فترة العبيد، كانت مغمورة بمياه الخليج الفارسي، ولهذا استطاع الإنسان أن يستقر ويسكن هذه المنطقة بعد انحسار المياه بعيداً إلى الجنوب الشرقي من الحدود الحالية. وقال البعض الآخر: إنّ ثمة مواقع أثرية عائدة إلى فترة ما قبل العبيد، ولكنها مطمورة تحت طبقات كبيرة من الطمي النهري، إلا أن الأبحاث البيئية والأثرية التي جرت في السنوات الأخيرة أثبتت عدم صحة هذه النظرية.

ومن هنا يبدو أنّ الاستقرار المتأخر للمجتمعات الزراعية في المنطقة له أسباب أخرى، كالظروف الطبيعية والمناخية غير الملائمة للحياة هناك، وعدم توفّر ضروريات الحياة من المواد الأولية للسكن مثل أنواع متينة من الحجارة والمعادن...إلخ، ولكن حتى الآن لا يوجد جواب نهائي لهذه الأسئلة.

ومن الأسئلة الأخرى التي لا توجد لها أجوبة؛ ما هو أصل ثقافة عبيد؟ وإذا كانت لا توجد في جنوب بلاد الرافدين مواقع عائدة للفترة الباكرة لثقافة عبيد، فمن أين أتت هذه الثقافة؟ وكيف وصلت إلى هناك؟

ربما حاول علماء الآثار أن يثبتوا بأن أصل "عبيد" هي من الهند أو فلسطين، في حين أن إيران هي المنطقة الأقرب إليها من أجل البحث عنها هناك، ومع مرور الزمن، ظهر المؤيدون لهذه النظرية التي تقول بأن إيران هي المكان الذي قدم منه العبيديون الأوائل، ولكن الأبحاث الدقيقة لجميع المناطق السهلية والجبلية في إيران لم تثبت ذلك.

في السنوات الأخيرة تمكن الباحثون من اكتشاف عدد من المواقع الأثرية في الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية في السعودية؛ الأمر الذي فتح باب التساؤل حول حدود انتشار ثقافة العبيد، ولكن المقارنات والتحليلات الأولية للقى الأثرية للمنطقتين أثبتت بأن اللقى المكتشفة في شبه الجزيرة أحدث عمراً من لقى بلاد الرافدين، وهكذا نرى بأن السؤال عن أصل الثقافة العبيدية يبقى مفتوحاً، وفقاً للمعطيات المتوفرة في وقتنا الراهن، على الأقل ؛ إذ يعتقد بعض الباحثين بأنها ظهرت في الثلث الأخير من الألف الخامس قبل الميلاد في جنوب بلاد الرافدين، على الأساسات الثقافية للمستوطنين الأوائل في هذه المنطقة (مواقع طراز حجي محمّد – أريدو)، وبالتأكيد فإنّ المسألة الأخرى تكمن في ظهور المواقع الأولى المعروفة في وقتنا الراهن، في جنوب بلاد الرافدين؛ إذ نلاحظ فيما بعد بأنّ حاملي هذه الثقافة يتزايدون في المناطق الشمالية من بلاد الرافدين، نظراً لأن العبيدين تقدموا بمحاذاة ضفتي دجلة والفرات إلى الشمال حتى وصلوا إلى المناطق المأهولة بالقبائل الحلفية، ومن المؤكد بأن مصير الحلفيين كان محتوماً، فقد تمّ القضاء عليهم أو إخراجهم من شمال بلاد الرافدين في نهاية الألف الخامس قبل الميلاد، و كان النصر للعبيديين في نهاية المطاف.

وهكذا، وللمرّة الأولى في تاريخ بلاد الرافدين، نجدُ ثقافةً واحدةً تسودُ في الشمال والجنوب، فإذا كان مركز التطور الثقافي، فيما مضى، يقع في

المناطق الجبلية والمناطق المحيطة بالجبال (زاغروس وسنجار) شمالي بلاد الرافدين، فإنّنا نجد الآن أنّ الواقع التاريخي قد تغيّر بدرجةً كبيرة.

في مطلع الألف الرابع قبل الميلاد، بات جنوب بلاد الرافدين يؤدي الدور الرئيسي في التطور الحضاري للمجتمع الرافدي؛ عبيد ومن بعدها أوروك (جمدة نصر)، وأخيراً فإن أهمية ثقافة عبيد تكمن في أنها حملت بين ثناياها بذور التطور الحضاري اللاحق في حضارة سومر؛ أي التوارث والتطور التدريجي لحضارة بلاد الرافدين.

لم يحقق العبيديون هذه النجاحات، ولم يحرزوا التطورات بسهولة، نظراً لأنّ المنطقة المحيطة بهم لا يمكن تسميتها جنات عدن، بل على العكس؛ فالحر القاتل في أشهر الصيف، والأمطار المناخية النادرة، والشتاء البارد نسبياً، والفيضانات المناخية المدمرة، وشحّ المياه في فترة نضج المواسم؛ كل هذه الأسباب جعلت من الصعب ممارسة الزراعة، وما تزال تحوّلاتُ الطبيعة السريعةُ في هذه المنطقة تشكّل تحدّياً قوياً أمام الإنسان.

وهنا، نجد بأن العبيديين هم أول من وقف في وجه هذا التحدي، وخطا الخطوات الأولى في اجتياز هذا التأثير السلبي للطبيعة والمناخ المحلي الذي كان يقف عائقاً أمام المجتمعات البشرية، فسكنوا بمحاذاة مجرى الأنهار وروافده والبحيرات، واستخدموا الري الطبيعي والاصطناعي بطرق بدائية جداً في سقاية مزروعاتهم. لقد حصل الباحثون على المعلومات العامة عن ثقافة عبيد وطريقة عيش مجتمعه، من خلال عدد من المواقع الأثرية التي خضعت للبحث الدقيق في جنوب وشمال بلاد الرافدين، وإحدى هذه المستوطنات هي تل عقيرة القريب من العاصمة بغداد، والذي عمل فيه علماء الآثار العراقيون عام ١٩٤٠م، ففي الوقت الذي كانت فيه المساكن في عبيد قد شيدت من القصب المسيّع بالطين، نجد أنّ الأبنية مشيّدة من اللبن الطيني المربع في تل عقيرة. وهنا اكتشف الآثاريون جدارين بارتفاع ١م

تقريباً، لذا يمكننا بكل سهولة معرفة شكل ومساحة المنازل في تلك الفترة، أي منذ أكثر من ٦٠٠٠ سنة مضت. وقد اكتشف علماء الآثار هنا أيضاً شارعاً عريضاً، يمكن لحيوان محمّل عبوره! وكانت ثمة منازل على جانبي الشارع، أبوابها من القصب أو الخشب، مثبتة على قطع دائرية من الحجر لسهولة الدوران عند الفتح والإغلاق، ولا شكّ أنّ أسطح هذه المنازل كانت مستوية. وكانت تمتدّ من كل منزل أنابيب فخارية إلى الشارع لصرف المياه، وتتألف هذه المنازل من أربع إلى ست غرف تتوزع بشكلٍ معقول، وفي بعض الأحيان كان لها درج يؤدي إلى السطح، وعادةً كانت إحدى هذه الغرف مطبخاً، فيه موقد مقبب (تنور). وفي تل عقيرة أُكتشف موقد مليء بالقواقع النهرية التي كان الناس يستخدمونها بشكل يومي، وقد أثبتت التنقيبات في تل عقيرة وتل عبيد بأن العمل الأساسي للسكان، فضلاً عن الزراعة، كان صيد السمك، وبالنظر إلى النماذج المصنوعة من الطين، كانت سفن الصيادين ذات مقدمة عالية، وكانت تحتوي مخزناً.

اصطاد السكان هنا الأسماك بشباك ذات ثقالات حجرية، كما اصطادوا الحيوانات بواسطة المقلاع والرماح (عُثر في أحد المنازل على قرون ثلاثةٍ من حيوانات الأيل متفاوتة الأعمار)، وحرثوا الأرض بمعاول صوانية، وحصدوا القمح بواسطة مناجل مصنوعة من الطين القاسي المتين والمشوي جيداً.

إن المثاقب العظمية والمغازل، تشهد على تطور عملية الغزل، وتشهد التماثيل والدمى العارية للنساء، وللرجال فيما ندر، على المعتقد الديني لديهم، وتُظهر بعض هذه الدمى والتماثيل، بشكلٍ واضح، الوشم على الأيدي والأكتاف، وتزين الرأس باروكة من القار(الإسفلت)، ولذلك فإن الاكتشافات التي توصل إليها علماء الآثار العراقيون في أريدو (موقع أبو شهرين)، المذكور آنفاً، كانت في غاية الأهمية.

تحت إحدى زوايا الزقّورة تم اكتشاف آثار سبعة عشر معبداً، كما ذكرنا سابقاً، حيث استخدمت هذه المعابد، واحداً تلو الآخر، في هذا المكان منذ قديم الزمان، وفي فترات متعاقبة. كانت المعابد الثمانية في السويات العليا (١ – ٨) أبنية كبيرة عائدة إلى فترات "الوركاء"، وبشكلٍ جزئي إلى فترة العبيد، أما المعابد المكتشفة في السويات (٩-١٤) كانت محفوظة بشكل سيء، وضمت بين أنقاضها الفخار العائد إلى فترة العبيد، وأواني من طراز "حجي محمّد"، وأخيراً، وفي السويات الأعمق ظهرت معابد صغيرة في الطبقات (١٥ – ١٦ – ١٧)، وهذه الأبنية الطقوسية القديمة جداً في جنوب بلاد الرافدين مهمة بالنسبة لنا في أمور وعلاقات كثيرة، كما أنها أدت بنا إلى الاعتقاد بأن الموروث الديني والعقائدي قد تطور بشكل تراتيبي، من نفس الثقافة الدينية في أريدو، بدءاً من نهاية الألف الخامس وحتى الفترة السومرية.

كان الشكل البدائي للأبنية التي سبقت طراز المعبد في الطبقة ١٦ في أريدو عبارة عن غرفة واحدة صغيرة، لا تزيد مساحتها عن ٣ م٢، وكان يوجد فيها منصة لتقديم لقرابين، وكانت تلك المرحلة الزمنية القديمة، بداية دخول هذه المنصة في الشكل العمراني لمعابد بلاد الرافدين، وبقيت مستمرّة من بعدها.

في الطبقة (٩ – ١١) أصبحت المعابد تُبنى بإمكانيات مادية كبيرة ، ينشأ المعبد الرئيسي والأجنحة الجانبية، وتدعم جدرانه الرفيعة المبنية من اللبن بدعائم خارجية، وربما كانت تذكرهم بالمعابد القديمة التي كانت تبنى من القصب والطين. وبعدها تأتي مجموعة من المعابد متقنة العمارة في الطبقات (٨ – ٦) والتي تنتهي في المستوطنة العبيدية.

في الغرفة الطويلة والرئيسية في المعبد أيضاً، كما في المعابد الأخرى، يقع المدخل في الغرفة الجانبية لها، ولكن هنا بنوا مداخل إضافية للمراسم

في بداية ونهاية الطرف الآخر للغرفة (المذبح) على مكان مرتفع. ويوجد هنا وبشكل حر أماكن مرتفعة من أجل تقديم القرابين، وقد يكون السمك من ضمن هذه القرابين، فقد تمّ اكتشاف عظام أو (حسك السمك) في الغرفة المجاورة.

أصبحت عادة تزيين أبنية المعابد من الخارج بدعائم ومساند مبنية من اللبن رائجة في بلاد الرافدين في ذلك الوقت، وفي شمال بلاد الرافدين في موقع تبه كورا العائد إلى فترة العبيد المتأخرة، تم اكتشاف مجموعة مؤلفة من ثلاثة معابد تحيط بها باحة صغيرة، كان نموذج البناء لهذه الأبنية نسخة طبق الأصل عن معابد أريدو. وفي شمال بلاد ما بين النهرين بإمكانك أن تلاحظ وتتعقب عملية تشكل وتطور المعابد الدينية، فعلى سبيل المثال معبد من السوية ١٨ في موقع تبه كورا المؤرخ في بداية الألف الرابع ق.م أبعاده (٧×١١م). وفي النصف الثاني من الألف الرابع ق.م حلّ محله في السوية ١٣ ثلاثة معابد متصلة مع بعضها البعض بمساحة (٩×١٢م، ١٨ ×١٥م، ٢٠×١٧م) وكانت زينتها النفيسة تزين الواجهات التي تحيط بفسحة داخلية بمساحة ١٨×١٥م.

كان مكان إقامة الشعائر الدينية (العبادة) المكان الرئيسي في المعابد الثلاثة، وكان المدخل في الجدار الأكثر عرضاً، بحيث لا تستطيع رؤية المذبح من المدخل. كان المعبد الرئيسي أكثر تعقيداً من حيث الاهتمام والزينة في الغرف الداخلية؛ كان هذا المعبد محافظاً على الرسومات التي رسمت بواسطة طلاءٍ أحمر فاقع اللون، كما ساد اللون الأحمر في طلاء المعبد الشرقي من الخارج. وتم اكتشاف عدد كبير من الأختام في محيط هذا المعبد، عليها رسومٌ للحيوانات، وأحياناً لبشر برؤوس الحيوانات؛ تُشاهد مثل هذه الرسومات في جنوب بلاد الرافدين على هيئة نساء برؤوس

زواحف، ومن الملاحظ أمامنا هيئة الضب الذي كان السومريون القدماء يخشونه، ولكنهم اختاروه كرمز للخصوبة.

كان للإله السومري دوموزي في الألف الثالث اسماً آخر هو (آماوشوفعال) وتعني حرفياً (والدته –تنين)، وفي بلاد الرافدين القديم كانت الضبة البالغ طولها متراً ونصف المتر تسمى تنّين، وقد أصبحت والدة دوموزي، وفي معتقد العبيديين تحول إلى المرأة برأس الضب، ومن الواضح أن مركز الكثير من المستوطنات العبيدية كان عبارة عن معبد على تيرا (مصطبة)، وربّما بدأت تتضح في هذه المعابد، معالم الحياة الاقتصادية والاجتماعية لتلك المجتمعات. فقد وصل معبد أريدو ذروة توسعه وازدهاره في فترة العبيد المتأخرة، خلال النصف الأول من الألف الرابع، متمثلاً بالمعبد (السادس) الذي تم بناؤه على المصطبة، و كانت مساحته (٢٦،٥×١٦م). عاش الناس في أكواخٍ تحيطُ بالمعبد، وكانوا يأكلون من صيد السمك والحيوانات، و زرعوا (القمح البدائي) والشعير والسمسم وأشجار النخيل، وربوا الغنم والماعز والخنازير والحمير و الحيوانات ذوات القرون. واستخدموا في صراعهم السنوي مع فيضانات الأنهار، المياه المتجمعة في الواحات والمناطق المنخفضة بعد الفيضان، وقد استخدموا هنا في جنوب بلاد الرافدين، قبل الفترة العبيدية، لأول مرة طريقة جديدة في ممارسة الزراعة، فقد حفروا في التراب الرخو قنوات صغيرة لاستجرار المياه من أجل الري. وكانت الحياة صعبة في تلك المنطقة، نظراً لوقوعها في المنطقة الصحراوية شديدة الحرارة وكثيرة الأهوار، وكانت دلتا دجلة والفرات- منطقة التقاء النهرين- تعوضهم، أغلب الأحيان، بمواسم وفيرة. سار تطور الحرف في المستوطنات العبيدية بشكل متوازٍ مع تطور الزراعة وتربية الحيوان، ومنها صناعة الفخار العبيدي الرائع الذي يغلب عليه اللون المائل إلى الخضرة بسبب الشوي (في درجات حرارة عالية) والزخرفة الهندسية ذات اللون البني أو الأسود، والمتميزة بأشكالها النموذجية، ومن

الواضح أنّ فخّاريّون محترفون قاموا بصناعتها، فقد استخدموا في شوي الآنية الفخارية مواقد خاصة ذات قمرتين تحافظ على درجة حرارة تصل حتى ١٢٠٠درجة. وفي عام ١٩٨٥م عندما كانت البعثة السوفيتية تعمل في شيخ حمصي (القريب من زمار) في شمال العراق، أُتيحت لي الفرصة بتنظيف أحد هذه المواقد المبنية من الطين، كان قطره حوالي ٢،٥م، وكان قد أُعيد بناؤه عدة مرات آنذاك، وكانت القطع الفخارية منتشرة بداخله ومن حوله، وكانت توجد بقايا أوانٍ، فيها خللٌ معين أو محروقة بفعل درجة حرارة عالية، ما جعلها غير صالحة للاستخدام، وكل تلك الأواني العبيدية كانت ذات لون مائل إلى الخضرة. كما ظهر نوع جديد من الأواني والأباريق، والكسر الفخارية (وكانت ذات مقابض طويلة)، بالإضافة إلى مثاقب عريضة، وطاسات على شكل نواقيس. وفي أواخر العصر العبيدي اكتشفت العجلة (الدولاب) لصنع الأواني الفخارية. وفي عدد من المدافن اكتشف عدد من الدمى على شكل (قارب)، وكان بعض هذه القوارب ذات أشرعة. ولا شكّ أنه كان ثمّة تطور في صناعة الأدوات المعدنية في تلك الحقبة، مع العلم بأنّ المعدن كان نادراً في الجنوب، كما كانت المكتشفات المعدنية نادرة، والأدوات المعدنية التي اكتشفت هناك قليلة (صنارات صيد السمك، مثاقب... الخ)، وكانت عملية المقايضة مع المناطق المجاورة متطورة.

كان الأوبسيديان يجلب من هضبة أرمينيا، والصوان من سوريا الحالية، وأنواع من أحجار البناء من جبال زاغروس في كردستان، واللازورد من أفغانستان...الخ، وهكذا نرى بأن الثقافة العبيدية توسعت وتضخمت باتجاه الشمال والشمال الغربي، فقد وصلت في بداية ٣٥٠٠ق . م إلى شمال سوريا، وكيليكيا (تركيا)، والمناطق الجبلية في زاغروس.

كانت المستوطنات، خلال أغلب فترة الثقافة العبيدية، عبارة عن قرى صغيرة منتشرة بشكل واسع في سهول بلاد الرافدين، بالقرب مصادر المياه الجارية (الأنهار –البحيرات –القنوات)، ولم يتم ملاحظة أي نوع من أنواع السلطات في هذه الفترة.

ولكن الوضع تغير فقط في نهاية فترة ثقافة عبيد، في منتصف الألف الرابع ق.م، وذلك اعتماداً على المكتشفات الأثرية في موقع أوروك (الوركاء)الذي تمّ التنقيب فيه من قبل روبرت ماك أدفر، ففي هذه الفترة، على وجه التحديد، أصبحت أوروك مركزاً مهماً من الناحية الدينية والسياسية والإدارية للمناطق المحيطة بها، كما تظهر بدورها مستوطنات كبيرة (بلدات ومدن صغيرة) تجذب إليها مجموعة من القرى الزراعية، ولكن التغيرات النهائية في مواصفات المستوطنات في جنوب بلاد الرافدين حدثت في الفترة التي تلتها، وفي فترة أوروك (فترة ما قبل الكتابة).

تبين المكتشفات الأثرية العائدة إلى فترة عبيد كيف تطور دور وتأثير المعابد الدينية في حياة المجتمعات الريفية بشكلٍ تدريجيّ، ويبدو أنّ هذه المعابد أصبحت المركز الأساسي من الناحية الاقتصادية والنشاط الاجتماعي في المدن الوليدة في بلاد الرافدين في منتصف الألف الرابع ق.م. ولابد هنا أن نتطرق إلى مسألة علاقة الثقافة العبيدية مع الحضارة السومرية، فهل يمكننا اعتبار الأولى الأساس الذي انطلقت منه الحضارة الثانية؟ ليس من السهل أبداً الإجابة على مثل هذا السؤال، لأننا لا نعلم الكثير عن هذه الفترة الانتقالية بين المرحلتين، ولا نمتلك القدر الكافي من المعلومات (ليس فيما يتعلّق بالمادة الأثرية وحسب، بل أيضاً الوثائق الكتابية والمعلومات الأنتربيولوجية، والمعلومات المتعلقة بدراسة بذور النبات «بليوبتانيكا»).

لكن هنا يجب الاستشهاد بآراء بعض الذين سلطوا الضوء على هذه المسألة المطروحة.

إذ يقول كل من لامبيرغ-كارلوفسكي وج .أ .سابلوف (الأمريكي): "ربما من السابق لأوانه أن نطلق على الثقافة العبيدية اسم الثقافة السومرية، ولكنها، أغلب الظنّ، هي التي وضعت الحجر الأساس للحضارة السومرية، فتطور الحياة الاجتماعية، ومهنة التجارة، وتضخم عدد السكان الذي رافقه ظهور مستوطنات ومدن جديدة، وآثار تعاظم السلطة المركزية في بعض المجتمعات وبعض المجموعات؛ كل هذه الأمور تتحدث عن ظهور بوادر جديدة تفصل، وبشكل قطعي، ثقافة عبيد عن الثقافات التي سبقتها من ثقافات العصر الحجري الحديث".

ومن بين تلك الآراء، وجهة نظر المستشرق المعروف ي. م دياكونوف الذي يقول: "بغضّ النظر عن المؤسس الحقيقي لثقافة العبيد، فإن التطورات التي وصلت إليها هذه الثقافة هي التي دفعت المجتمعات البشرية إلى الخروج من الحالة البدائية. إن تشييد وبناء طرق معقدة للري، والحفاظ عليها، يتطلب تضافر جهود عدة مجتمعات، وعلى الأغلب فإن منظومة المعبد أخذت على عاتقها دور قيادة هذه المجتمعات الزراعية، بشكل جزئي على أقلّ تقدير، وخلافاً لذلك كانت عدة مجتمعات صغيرة قد توحدت في طقوس دينية، ما أدى إلى الاتحاد معاً في معبد واحد. لقد تطور الوضع المادي للجميع بشكل ملحوظ، كما أن تطور التجارة و تبادل السلع أديا إلى ظهور البوادر الأولى لانقسام المجتمع، وهذا أدى بدوره إلى التسريع في التطور الاقتصادي، ولا سيّما عند انفصال الحرفة عن الزراعة".

كل علماء الآثار يعتقدون بالتوارث الثقافي بين عبيد وسومر من ناحية المعابد الدينية، وصناعة الفخار، وبناء البيوت، وطرق الزراعة وأدوات الاستعمال اليومي. وليست مصادفةً أن تكتشف أغلب المدن الرئيسية على أنقاض المستوطنات العبيدية. ويقول دياكونوف: " إنّ التوارث الثقافي- حسب المكتشفات في المواقع الأثرية- يدفعنا إلى القول بأن العبيديين هم من

أسسوا لظهور سومر في جنوب بلاد الرافدين، نهاية الألف الخامس وبداية الألف الرابع ق.م، ومع ظهور الكتابة عند تخوم الألف الرابع والثالث ق.م يكون بين أيدينا الأدلة القاطعة بأن سكان بلاد الرافدين هم سومريون".

وهكذا، في نهاية الفترة العبيدية تطرأ تغيرات نوعية على بلاد الرافدين، وتتجلّى بوضوح حدود الحضارات القديمة .

إذاً، فعملية التطور الاجتماعي والاقتصادي هي في تسارع، فالكثير من المجتمعات البدائية في جنوب بلاد الرافدين اقتربت من تلك الحدود التي تفصل بين الإنسان الحر والمتساوي في الحقوق في مجتمعه البدائي وبين خلفه المباشر الذي كان فرداً عاديّاً في مجتمعه، وبعد فترةٍ وجيزة أصبح في قاعدة الهرم الاجتماعي للمجتمع العبودي في الدولة الطبقية.

الجزء الثاني

التجول في مدن

بلاد الرافدين القديم

الفصل الخامس

بيئة الحضارات الأولى:

الماء، والأرض، والحياة في بلاد الرافدين القديم

وهكذا، أصبحت بلاد الرافدين في نهاية فترة "عبيد" على عتبة الحضارة، وظهرت أقدم الحضارات على وجه الأرض؛ إنها سومر بمدنها، وقنواتها، وأبراجها (زقورات)، صاحبة الدولة، والكتابة، والتقويم، ولكنّ يبقى السؤال هنا؛ لماذا ظهرت المدن، والحضارة الأولى لكوكبنا في هذه المنطقة على وجه التحديد، رغم أنّها لا تتميّز بتلك الطبيعة المميزة وذلك المناخ الفريد؟ يبقى الأمر اللافت في هذه المسألة هو أنّ جميع الباحثين، في وقتنا الراهن، يجزمون بأنّ للطبيعة والمناخ، بالإضافة إلى أمورٍ أخرى، دورٌ رئيسيٌّ في نشوء الحضارة وتطوّرها في هذه المنطقة من العالم، والتي تركت أثراً في حياة مواطنيها القدماء.

يقول العالم الإنكليزي سيتن لويد: "إنّ معالم الوحدة الجغرافية لبلاد الرافدين، غير واضحة بشكل قطعي حتى يومنا هذا، فمن الناحية الجيولوجية، فإنّها تشكل منطقة واسعة تمتدّ من الشمال الغربي وحتى الخليج الفارسي، الذي يعد جزءاً منها، وليس من الصعب تحديد حدودها من الجهتين؛ فمن الشمال الشرقي الأجزاء المنخفضة من الهضبة الإيرانية،

ومن الجنوب الغربي صحراء واسعة يسميها الجيولوجيون الصحراء العربية".

جرت العادة أن تُقسم مساحة بلاد الرافدين إلى منطقتين مختلفتين، بشكل ملحوظ، من الناحية الطبيعية والمناخ؛ فالجزء الشمالي(أو العلوي) يسمى آشور عادة، والجزء الجنوبي (أو السفلي) يسمى بابل، وتمرُّ الحدود الفاصلة بينهما، على وجه التقريب، من مدينة "هيت" الواقعة على نهر الفرات، وسامراء على نهر دجلة. وإلى شمال هذا الخط تقع أراضٍ جرداء تسمى الجزيرة، حيث يضيق مجرى الفرات فيها، على العكس من نهر دجلة، الذي يجري في مناطق جبلية واسعة تنتشر في سفوحها الأراضي الزراعية والمراعي.

هذه المناطق الخصبة كانت تسمى في يوم من الأيام آشور، و تقع جنوب مدينتي هيت وسامراء، وفي المكان الذي يشكّل فيه النهران دلتا مشتركة، تكون طبيعة الأرض مختلفة كلياً؛ فبفضل الطمي الذي كان هذان النهران يجلبانه، تشكلت أرض سهلية واسعة ذات خصوبة عالية لا مثيل لها في الشرق الأوسط. إن أنسب صفة يمكننا أن نطلقها على طبوغرافية العراق، تأتي من هذين النهرين، وبالإمكان مقارنتها مع الصفة التي أطلقت على مصر بفضل نهر النيل، وهي "هبة النيل"، إذا يمكننا القول بأنّ بلاد الرافدين هي "هبة دجلة والفرات "، ولكنّ الفرق هو في عدد الأنهار التي تجلب لها النعم.

منذ الأزمنة القديمة يمدّ نهرا دجلة والفرات الطمي القادم معهما على تلك القاعدة الصخرية من الأرض بين الصحراء العربية وهضبة إيران، ليشكّلا بذلك سهولاً واسعة وخصبة في وسط هذه الصحراء القاحلة.

ينبع النهران من جبال تركيا ويرفدهما الكثير من الأنهار الصغيرة التي تجري في أراضي جبلية نحو الجنوب، ورغم ذلك، فإنّ النهران مختلفان

بشكلٍ كبيرٍ من حيث خصائصهما؛ فنهر دجلة غزيرٌ وشديد الانحدار، وهو يجري نحوالجنوب الشرقي بموازاة سلسلة جبال زاغروس، كما أنّ نهر دجلة غيّر مجراه ، في جزئه السفلي، أكثر من مرة على مرّ العصور، ولهذا السبب لم تظهر على ضفتيه مستوطنات مستدامة. وكان النهر، في بعض الأزمنة، يصب في الخليج الفارسي بشكلٍ مباشر، ولكنّ في وقتنا الراهن، فإنّه يتحد مع الفرات في شط العرب، قبل أن يصبا معاً في الخليج، كما أنّ كلّ روافد نهر دجلة تنبع من المناطق الجبلية، مثل خازر، والزاب الكبير والصغير، ونهر ديالى... إلخ.

أما مسير الفرات فيختلف كلياً عن دجلة؛ بعد تدفقّه من هضبة أرمينيا يتجه نحو الجنوب الغربي، وتصل المسافة في أحد النقاط بينه وبين البحر المتوسط إلى ١٤٠كم، وبعدها يتجه بشكل مباشر إلى الجنوب، وتصبح ضفافه عريضة، ويرفده من جهة اليسار، بعد كركميش، نهران كبيران، هما نهرا البليخ والخابور، وفي منطقة الهيت وسامراء يقترب نهر الفرات من نهر دجلة، ويجريان بشكل متوازٍ تقريباً إلى الجنوب الشرقي باتجاه الخليج الفارسي، وتسمّى المساحة الواسعة من أعالي بلاد الرافدين، والتي تقع بين نهري دجلة والفرات بـ "الجزيرة"، كما أنّ نهر الفرات هو أقلّ غزارةً وتدفقاً مقارنةً مع دجلة.

تفيض الأنهار في بلاد الرافدين في شهري آذار ونيسان من فصل الربيع؛ عندما تذوب الثلوج في أعالي الجبال، وعندما تكون نسبة الهطولات المطرية عالية، حيثُ يفيض نهر دجلة أولاً، بينما يفيضُ نهر الفرات بعد نهر دجلة بأسبوعين، وعلى العكس من نهر النيل، يكون الفيضان في أنهار بلاد الرافدين في وقت نضوج أغلب المزروعات من الحبوب، لذا تكون الدورة الزراعية ناجحة، عندما يكون الفيضان في الوقت المناسب، إذ يقوم

الفلاحون بتخزين مياهها في القنوات والسبخات، لكي يسقوا المزروعات في فصل الخريف أثناء زراعة الحبوب.

يقول دياكونوف:"إنّ ضفاف نهر دجلة عاليةٌ في معظم مجراه؛ لذا لم يتمكّن المزارعون من الاستفادة من مياهه في الزراعة؛ بسبب عدم توفر الآليات والأدوات اللازمة لدفع المياه، لدى سكان بلاد الرافدين منذ الألف الرابع والألف الثالث، بل وحتى الألف الثاني قبل الميلاد، يضاف إلى ذلك أيضاً شدّة غزارة نهر دجلة، ولذلك لم يستخدم الإنسان مياهه في سقاية المزروعات لفترة طويلة، في حين أن المستوطنات الأولى، وكذلك المدن، ظهرت في بلاد الرافدين السفلى على ضفاف الفرات، وروافده، والقنوات الاصطناعية، وعلى ضفاف نهر ديالى".

يقول و.غ غيراسيموف: "يعد نهر دجلة أكثر أنهار العراق فيضاناً، وعندما يفيض ويخرج من مجراه ويغمر مساحات واسعة من الأراضي الزراعية الواقعة على جانبيه بالمياه، فإنّه يهدم البيوت الطينية ويقضي على الحيوانات. والمعلومات التي وصلتنا عن مستوى مياه الفيضان في فصل الربيع، تذكرنا بالمعلومات والمشاهد التي تخلّفها المعركة من دمار وتخريب، وكذلك منظر النهر الهائج الذي يدمر مزروعات الناس، بعد أن تعبوا في زراعتها، وكذلك بيوتهم".

لقد شاهدتُ فيضان نهر الدجلة الربيعي في منطقة الموصل، وأستطيع أن أوكد ما قاله غيراسيموف دون أي مبالغات، وكان آخر فيضان مدمر لنهر دجلة في سنة ١٩٥٤م، وقد ألحق أضراراً كبيرة بعاصمة البلاد بغداد ومدن آخرى. استطاع الإنسان أن يتحكم بالمياه المدمرة لنهري دجلة والفرات، عندما بدأ بإقامة السدود بالقرب من سامراء، وفي الكوت، ولعلّ الأمر اللافت هو أنّ وصف الدمار الذي يخلّفه نهر دجلة، والذي جاء على لسان البابليين قبل أربعة آلاف عام، ينطبق اليوم أيضاً على هذا النهر؛ فقد قالوا:

-لا أحد يستطيع إيقاف المياه التي تبتلع كلّ شيء.

-عندما ترعد السماء وتزلزل الأرض.

-عنما يغطي الأمهات والأطفال ظلام مخيف.

-عندما تتمايل الأشجار تحت ضربات أغصانها.

- وتموت المحاصيل الجاهزة للقطاف.

كانت الفيضانات المتأخرة تغمر الأراضي بالمياه؛ الأمر الذي كان يلحق الضرر بالمواسم، ولم تكن مدة جفاف هذه المستنقعات في الأراضي الزراعية معروفة؛ ما كان يؤدي إلى إعادة توزّع السكان المرة تلو الأخرى. ومن الخصائص الأخرى لهذين النهرين، هو أنّ الطمي الذي كان النهران يجلبانه، كان أقلّ خصوبةً من طمي النيل، كما أنّ هذا الطمي كان يسدّ قنوات الريّ التي تستجرّ المياه إلى داخل البلاد، لذا كان يتوجّب تنظيفها بين الحين والآخر.

جغرافية المناطق الثقافية في بلاد الرافدين:

يقول عالم الآثار سيتون لويد: "إن الدور الرئيسي في تطور الحضارات الأولى في الشرق الأوسط، لعبه ذلك الشريط الذي يحيط بالمناطق الجبلية في فلسطين، وسوريا، وأرمينيا، وإيران، أو ما يسمى بالهلال الخصيب. وفي الجبال الغربية التي على شكل نصف حلقة (من الجهتين) وفي الشرق (فقط من الجهة الداخلية) توجد مناطق مرتفعة تغطيها نباتات حراجية تصلح لتطوير الزراعة وتربية الحيوان....

إنّ الأجزاء العليا من نهر دجلة (الذي يشكل الحد الفاصل بين هضبة أرمينيا وبلاد الرافدين والجزء الشرقي من الهلال الخصيب) تتفرع إلى فرعين على شكل قرنين. وتمتد الأرض الصالحة للزراعة إلى الجنوب من

إحدى الجهات مع مجرى نهر دجلة وروافده، الزاب الكبير والزاب الصغير وديالى، والسهول الجبلية، ومن الجهة الأخرى، مع مجرى نهري الفرات والخابور، وبعد ذلك تمتد على شكل شريط ضيق مع مجرى نهر الفرات باتجاه الجنوب. كانت كل هذه البلاد مغطاة بنباتات قليلة الارتفاع في الأزمنة القديمة، أما المناطق الجبلية فكانت مغطاة بالأشجار. وكان الجزء الباقي من الهلال الخصيب، في الجنوب الشرقي أو الجزء السفلي لمجرى نهري دجلة والفرات، يسمى بلاد الرافدين السفلى. إن كامل المساحة المحصورة بين نهري دجلة والفرات، أي بلاد الرافدين من الشمال إلى الجنوب، تنقسم إلى عدة مناطق طبيعية في المنطقة الجافة وشبه الاستوائية، وتتكون بلاد الرافدين العليا من منطقتين طبيعيتين هما: المنطقة الجبلية، وتقع شمالاً، وهي تجلب الرياح والرطوبة من البحر المتوسط، وهي ذات نسبة هطولات مطرية كافية للزراعة المبكرة، وكانت الكثير من النباتات البرية تنبت فيها خلال الأزمنة الغابرة، و إلى الجنوب منها تقع المنطقة الثانية، وهي سهول جافة، ولكن هنا أيضاً في الشريط المحاذي للأنهار والمناطق ذات المنافذ الجبلية التي تسمح بمرور الهواء الرطب، يمكن إلى حدٍّ ما زراعة القمح بدون استخدام الري، وفي السهول تنمو الأعشاب التي تسدّ حاجة الحيوانات للعلف.

تمتد معظم هذه المساحة الجنوبية على أطراف جبل سنجار، وهي أيضاً تُعتبر مناطق صالحة للزراعة بسبب توفر الرطوبة اللازمة، و يُعتبر جبل سنجار الحد الفاصل بين المناخ شبه الاستوائي والمناخ الاستوائي الجاف، أما المنطقة الثالثة لبلاد الرافدين فهي تبدأ من جهة الجنوب، وهي صحراء جصية ذات نسبة نادرة جداً من الهطولات المطرية السنوية، وهي تمتد بموازاة الفرات على مسافة تبلغ نحو ٢٠٠ كم، وتبدأ المنطقة الرابعة بعد هذه المناطق الصحرواية الجصية ومدينة بغداد، وهنا يقترب نهرا دجلة والفرات من بعضهما البعض، وقد كانا في القديم يجريان بشكل متوازٍ،

ولهذا غالباً ما كانوا يسمون بلاد الرافدين السفلى ببلاد النهرين (أو جنوب بلاد النهرين)، خلافاً لتسمية بلاد مابين النهرين أي العليا- الجزيرة العليا.

لم يطرأ على المناخ في بلاد الرافدين، منذ القديم وحتى وقتنا الراهن، أيّ تغييراتٍ تُذكر، وذلك بشهادة الجيولوجيين. ففي الصيف تتراوح درجات الحرارة بين٣٠ - ٥٠ درجة مئوية في الظل، و ينقطع هطول الأمطار قرابة ثمانية أشهر خلال السنة، وفي نهاية موسم الجفاف تصبح الأنهار عبارة عن شريط مائي رفيع أو جدول صغير في جريانه. يعقبه الشتاء، حيث الشمس لا تدفئ، وفي الليل يكون الجو بارداً، وتهطل أمطار مصحوبة بعواصف ورياح في بعض الأحيان.

ولا تمتلئ أودية الأنهار إلا في الربيع، عندما يبدأ ذوبان الثلوج على قمم جبال زاغروس وطوروس، ويغذي روافد النهرين، ويبدأ الفيضان الربيعي، الذي كان يعتقد قبل أقل من ١٠٠ عام بأن الإنسان لا يستطيع التحكم به، وكان يبث الرعب في نفوس سكان سهول جنوب البلاد على مرّ الزمان. ولكن اللافت هو أن الفيضان يبدأ في نيسان و يستمرّ حتى نهاية أيا، أي يكون متأخراً جداً على المحاصيل الزراعية، حيث لا يستفاد منه في سقي المحصولات. لقد كانت ظروف الحياة صعبة جداً في تلك الأزمنة الموغلة في القدم في منطقة جنوب بلاد الرافدين، فالزراعة لم تكن ممكنة قبل كبح جماح الأنهار، كما أن الأهوار كانت مملوءة بالطين والبحيرات المتشكلة من مياه الخليج المالحة، بفعل الرياح العاتية، بالإضافة إلى كثرة الحيوانات المفترسة، والحشرات المنتشرة بين النباتات، والشجيرات الكثيفة.

يقول ي٠م دياكونوف: "ولكن بسبب تطور تربية الحيوان وممارسة الزراعة بدأ سكان الهلال الخصيب بالتزايد، وبدأت المستوطنات الزراعية تتقدم باتجاه السهول. واتجهت مجموعة من القبائل، غير المعروفة، باتجاه جنوب بلاد الرافدين (بلاد الرافدين السفلى)، وبسبب تراكم الخبرة الزراعية

السابقة شقوا قنوات للري ، فبدون الري الاصطناعي لم يكن الإنسان قادراً على العيش في هذه المنطقة، وعلى الأرجح، فإن الإنسان الأول وصل إلى هذه المنطقة (بلاد الرافدين السفلى) عبر سهول ديالى أو الجارة عيلام".

يقول المؤرخ والمستشرق الروسي المشهور م٠ف نيكولسكي: " في الحقيقة، من الصعب أن تجد منطقة آخرى بهذا المناخ القاسي". ويصف هذه المنطقة قائلاً: "اذا اتيت إلى هنا في الخريف أو الشتاء سوف تجد صحراء رملية جرداء، أو سبخات طينية لا يمكن العيش فيها، وتجد القرى العربية الفقيرة منتشرة في جزر صغيرة. لا توجد حياة في المناطق الرملية، فهناك تهب الرياح الجنوبية الغربية حاملةً غيوماً من الرمل من شبه الجزيرة العربية، و تشكل تلالاً وكثباناً يصعب المشي عليها، وفي أرضٍ كهذه يمكن أن تنمو النباتات الشوكية فقط، وفي الليل تُسمع أصوات بنات آوى والضباع الجائعة.

البخارُ يعلو المستنقعات، لكن حول هذه المستنقعات تنتشر الحياة، وتحوم فوقها أسراب الطيور، كما تنتشر الشجيرات القصيرة في المناطق المحيطة بها وتنمو أشجار النخيل، إلّا أنّ الرمال في هذه المنطقة هي أكثر من الطين، وتهطل الأمطار لستة أسابيع فقط، خلال السنة (في الشهر الحادي عشر والثاني عشر)، وتتوسع بعض المناطق على حساب الصحراء وهكذا هي الحال أيضاً في سينارا (سور – بلاد الرافدين الدنيا) خلال الربيع والصيف، وعندما تبلغ الحرارة أعلى درجاتها، كما هي عليه الحال في الخريف والشتاء، تتحول البلاد إلى صحراء رملية، بينما تكون على شكل صحراء مائية في الربيع والصيف".

في بداية آذار يفيض نهر دجلة بسرعة، وفي منتصف آذار يبدأ فيضان نهر الفرات، وفي نيسان تتجمع مياه النهرين الفائضين وتتحول البلاد إلى بحيرة.

إنّ هذا الصراع الدائم ما بين قوى الطبيعة في جنوب بلاد الرافدين، حال دون شعور الإنسان بالأمان على مرّ الزمان، وترك تأثيراً في حياته الدينية قبل أيّ شيء آخر، ففي الأساطير المختلفة والتراث القديم، على سبيل المثال، نشأت أسطورة ولادة الكون في سومر وبابل، وترتبط هذه الأسطورة بظاهرتين طبيعتين محليتين، هما: تغير حدود شواطئ الخليج الفارسي وتحركه باتجاه البحر، والفيضانات السنوية لدجلة والفرات، ويقول نيكولسكي في هذا الخصوص: "كان السومريون ينظرون إلى هاتين الظاهرتين على أنهما صراعٌ محتدمٌ بين اليابسة والماء، مع العلم أنّ اليابسة كانت هي المنتصرة على الدوام، على الرغم من شراسة البحر".

الهجومُ القويّ لأمواج البحر على الشاطئ؛ الأمواجُ تغمر مساحات واسعة منه، ما يعطي انطباعاً بأنّ الأمواج تبتلع الشاطئ، لكن العاصفة تمر، والأمواج تهدأ وتنحسر عن الشاطئ، وما ذا بعد؟

لم تنتصر اليابسة على البحر، لكنها اكتسبت مساحات جديدة بفعل هيجان البحر، والأمواج الهائجة جلبت معها كميات كبيرة من الرمل والطمي من عمق البحر، ووضعتها على الشاطئ، بعدها تعود المياه إلى البحر، وتترك وراءها ما تمّ جلبه، وهكذا اليابسة تقدمت اليابسة على حساب البحر.

كان الصراع يتجدّد كل سنة، على هذا النحو، في حوض النهرين العظيمين (دجلة والفرات)، وتكون النتيجة هي ذاتها؛ تهطل الأمطار الشتوية ستة أسابيع، فتتحول المستنقعات إلى بحيرات، وتمتلئ القنوات والأنهار بالمياه وتخرج من وديانها. ثم تنتهي الأمطار وتسطع الشمس الربيعية، ولكن تتجلّى ملامح مأساةٍ مائية، إذ يفيض دجلة والفرات مرة أخرى بعد أمطار الشتاء، بعد أن كان الماء قد عاد إلى جريانه الطبيعي في مجراه، وتتحول البلاد من جديد إلى بحر لمدة ستة أشهر أخرى.

يخيّل إلينا أنّ كلّ المساحة المغمورة، قد اختفت تحت المياه إلى الأبد ، لكنّ أشعة الشمس الساطعة تفعل فعلها بتؤدة، ودون مقاومة تُذكر. تنحسر المياه وتسلّم مكانها للأراضي التي جفت للتوّ، لتخضرّ وتسري الحياة في عروقها، لأن هذه الكارثة المائية كانت منتصرة عليها.

كان السومريون يفسرون هذه الظواهر الطبيعية بأنّها من فعل الآلهة، وبأنّها شكل من أشكال الصراع فيما بينهم، فمن غير "إنليل"؛ إله الكون واليابسة، بإمكانه أن يدافع عن اليابسة، وينصرها على الكوارث المائية؟

وتبدو الكارثة المائية ذات طابعين؛ من جانبٍ هي من تجلب الدمار، وتهدد الإنسان والكائنات الأخرى، وتتسّرب تحت معابد الآلهة المبنية على التلال والمرتفعات وتهدمها، لتبدو كعدوٍ لدودٍ للبشر والآلهة على حدٍّ سواء. ومن جانبٍ آخر تحمل الكارثة المائية بداخلها بوادر الحياة؛ فهي تسقي الأراضي وتجعلها خصبةً، وعقب فيضان دجلة والفرات تنمو النباتات وتعيش الحيوانات.

في الوقت نفسه، كانت هذه الكارثة الرهيبة تحمي أنواعاً كثيرة من الكائنات، وكان السومريون أيضاً يعتقدون أنّ لها قوّة الإله، وعلى الرغم من أنها رهيبة وقاتلة، إلّا أنّ تدخّل "إنليل"، كان من شأنه القضاء على شرورها والدمار الذي تخلّفه، حتّى يبدو "إنليل" وكأنه يبقي على صفاتها المنتجة فقط.

إنّ طريقة تفكير الإنسان القديم هذه، كانت السبب في نسج الأساطير عن صراع "إنليل" مع الشريرة "تيامات" ووقوفها في وجه خلق الكون. ورد في هذه الأسطورة القديمة جداً: "عندما كان الظلام والمياه في كل مكان، كانت تعيش في الماء كائنات غريبة ومخيفة؛ بشرٌ برؤوس حيوانات، وحيوانات برؤوس بشر، ووحوش بأجساد أحصنة وذيول أسماك، وأفاعٍ، وأسماك ذات أشكالٍ مخيفة".

كانت "تيامات" تتحكم بكل هذه المخلوقات الرهيبة، وعندما أتى "إنليل" شطر جسد "تيامات" إلى قسمين؛ ليصنع السماء من نصفها و الأرض من النصف الآخر، وبعد ذلك خلق من دمه البشر والحيوانات، وكذلك المجرة والشمس والقمر والكواكب. هكذا صنع الكون، ولكنه لم يقضِ نهائياً على المخلوقات الرهيبة التي تعيش منذ البدء في غياهب البحر، وتحاول هذه المخلوقات، كل عام أن تقضي على الكون الذي خلقه "إنليل"، وكل عام تغمر الأمواج اليابسة بالمياه، ولكنّ هذا الإله العظيم ينتصرعلى القوى الشريرة".

ولكننا لاحظنا لوحة مغايرة كلياً في شمال بلاد الرافدين، الواقعة في منطقة جافة شبه استوائية في الشمال، حيث تقع الأراضي الجبلية التي يهب عليها الهواء الرطب الآتي من البحر المتوسط، والذي يجلب معه الأمطار السنوية النافعة جداً للمحاصيل الزراعية الباكرة، إذ كانت الأعشاب والنباتات البرية تنبت نتيجة هطولها في العصور القديمة، وإلى الجنوب قليلاً، تقع المنطقة الثانية ـ السهول الجافة ـ ولكن هنا أيضاً، في المناطق المحيطة بالجبال والمرتفعات يمكن، إلى حدٍّ ما، زراعة القمح، دون الحاجة إلى الري الاصطناعي، وفي السهول ينمو ما يكفي من الأعشاب لرعي قطعان الحيوانات، وتتمّ سقاية الحدائق والمزروعات من مياه الأنهار أو الآبار.

في معظم أوقات السنة، تكون التضاريس جرداء ويكون المنظر رتيباً، لكن في الربيع تصبح السهول مكسوة بالنباتات والأزهار. وأخيرا؛ من الشمال والشرق، وخاصة فوق السهول المرتفعة في "بلاد الجبال" التي تسمى كردستان العراق، والتي على شكل هلال، ينتهي أحد أطراف هذا المنظر، عند مدينة خانقين، وينتهي الطرف الآخر عند معبر دجلة القريب من فيش خابور، عند الالتقاء بالحدود السورية. في شرق تركيا، تتألف

القرى من بيوتٍ مبنية من الأحجار، ملاصقة للجبل، ويُزرعُ التبغ والكروم في المصاطب الجبلية، و تغطي سفوح الجبال أشجارُ سنديانٍ وبلوطٍ قصيرة.

وهكذا، على الرغم من التشابه - من الناحية الطبيعة والجغرافية في العراق، بلد النباتات- يمكننا اعتبارالسهول في الشمال والسبخات الطينية في الجنوب حالة فريدة، ولا سيّما في سهول بلاد الرافدين العظيمة، ولكن الاختلاف الموجود بين الشمال، الواقع قرب سفوح الجبال، وبين سهول الجنوب من حيث المناخ والتضاريس والغطاء النباتي، هو اختلاف كلي (هذا إذا لم نستثنِ سلسلة جبال زاغروس في كردستان العراق)، ويمكن أن نلاحظ بشكل جليّ الصراع القائم بين الشمال الرافدي وجنوبه، والذي يعود إلى آلاف السنين، لاسيما إذا استخدمنا المفردات التاريخية بين سومر (بابل) من جهة وأكاد (آشور) من جهة أخرى.

من جهة ثانية، يجب التحدث هنا عن حالة مهمة جداً، وهي المقارنة بين حالة المناخ والطبيعة في الوقت الحاضر، وحالتهما في العصور القديمة (على الأقل مع حالة المناخ في الألف الرابع ـ الألف الثاني قبل الميلاد). يعتقد أغلب العلماء، أن المناخ الحالي في بلاد الرافدين قريب جداً إلى المناخ في الماضي، ولكن، بشكلٍ عام، ثمة استثناءان مهمان في هذا الاعتقاد الصائب، وهما:

الأول: يجزمُ العلماء في الوقت الراهن، بأن مجرى نهري دجلة والفرات وروافدهما قد تغيّر مرّاتٍ عديدة، وهذا ما أدى إلى تغيير المجتمعات القديمة لمواقعها. والثاني: حتى الآن لم يتم التأكد من الحدود الشمالية لشاطئ الخليج الفارسي القديم.

لنتطرّق الآن إلى هاتين المسألتين بشكل مفصل.

دجلة والفرات: كان النهران يجريان معاً حتى الألف الرابع قبل الميلاد، وتختلط مياههما، مشكلةً عدداً من السيول والأنهار في الجزء الشمالي من

السهول الجبلية، وفيما بعد ابتعد نهر دجلة شرقاً، إلى حيث مجراه الحالي على وجه التقريب، وتحول القسم الأكبر من الأرض الواقعة بينهما إلى صحراء ميتة.

يقول سيتون لويد: "في الطريق عبر العراق، قبل أن تصل إلى خط، أو حدود مدينتي هيت- سامراء، يجري نهرا دجلة والفرات في واديهما اللذين شقهما النهران في تلك الأرض الرملية القاسية، لذا فمن المستبعد أن يكونا قد غيّرا مجرييهما منذ فترة ما قبل التاريخ، ولهذا نجد أنّ مدناً مثل كركميش، ونينوى، ونمرود، وآشور هي التي تقع على ضفافهما في الوقت الحاضر(أي في الأماكن التي تم بناؤها لأول مرة). إلى الجنوب من هذا الخط، نلاحظ مشهداً مغايراً تماماً، فالنهران هنا يمران في السهول، وغالباً ما يغيران مجرييهما ويجريان في عدد من الأودية الصغيرة المتفرقة، عدا عن ذلك فهما كسائر الأنهار؛ إذ يؤدي الطمي وانحدارهما غير الشديد إلى تراكم طبقات الطمي، ما يؤدي، مع مرور الزمن، إلى ارتفاع قاع مجرى النهرين. وفي حالات الفيضان وخروجهما عن مجرييهما، قد تتشكّل بحيرات كبيرة وسبخات ضيقة، وفي بعض الأحيان يغيّر النهر مجراه من تلقاء نفسه دون وجود أي عامل خارجي، ولهذا السبب نجد أنّ بعض المدن الرافدية العظيمة، التي كانت تقع يوماً ما على ضفاف نهري دجلة والفرات، هي الآن عبارة عن أطلال ضخمة في الأراضي الجافة في عمق الصحراء.

قام العالم الأمريكي روبرت ماك أدمز بعمل بحثي كبير في ستينات وسبعينات القرن الماضي، من خلال دراسة المستوطنات القديمة في جنوب بلاد الرافدين، وتركيبة البيئة التي عاشت فيها تلك المجتمعات، وذلك في عدة كتب مثل "الأرض الواقعة ما وراء بغداد"، وكتاب "الوركاء ومحيطها"، و"جوهر المدن"، التي اكسبته شهرة كبيرة .

قدّم ماك آدمز دراسة معمقة، ووصف الظروف البيئية من جميع النواحي الطبيعية والجغرافية في العراق، التي كانت السبب المباشر وراء تطور مدن الممالك، وحلل الأنواع المختلفة من الأعمال الزراعية، من ضمنها ممارسة الزراعة المروية، وصوّر لنا بمهنية عالية وأسلوبٍ فنيّ، كيف ظهرت حضارة بلاد الرافدين وتطوّرت؛ بالاعتماد على الخريطة الطبوغرافية، والصور الجوية، وبيانات استطلاعاته الأثرية، وتوزع المستوطنات القديمة في أماكنها.

برهن آدمز بشكل مقنع أنّ الظروف الطبيعية في جنوب العراق القديم تختلف بشكل واضح عن الظروف الطبيعية في الوقت الحالي، و أنّ مجرى الأنهار ووديانها كانت في مواقع أخرى غير التي نجدها الآن، والكثير من المناطق البعيدة عن دجلة والفرات كانت متصلة بها عن طريق قنوات كثيرة، لم تعد موجودة.

فالطمي وتغير ديناميكية كمية المياه في الأنهار، وتشكل الضفاف، والفيضانات الدورية المتكررة.... إلخ. سمح لعالم الآثار ر.ماك أدمز، وبمساعدة الصور الجوية والخرائط الطبوغرافية الدقيقة، أن يوضّح التغييرات العامة في المناخ والطبيعة، في المنطقة الواقعة بين بغداد و الخليج الفارسي، ويعيد هيكلية الأحداث في عصور وأزمنة محددة، ويعرّفنا إلى الأهمية الكبيرة لنهر الفرات في حياة سكان بلاد الرافدين القديم، كما أنّه شرح لنا بشكل مستفيض سبب هذه الأهمية؛ إنه متعلّق بمنسوب المياه غير المرتفع كثيراً، وبطئ الجريان، والضفاف الواسعة، والتفرعات العديدة في مجراه الرئيسي. أما النهر الأكبر والأكثر غزارة فهو دجلة، الذي بدأ الإنسان باستخدام مياهه في الري في الفترات المتأخرة فقط؛ بدءاً من الفترة البارثية (القرن الأول قبل الميلاد ـ الثالث بعد الميلاد)، ولا سيّما في الفترة الساسانية (القرن الثالث بعد الميلاد ـ السابع بعد الميلاد).

لا يُعتبر الفرات أكبر نهرٍ في العالم من حيث غزارة مياهه، فتوأمه دجلة، هو أكثر عنفواناً وغزارةً منه بضعفين أو ثلاثة أضعاف، كما أنّ الفرات أقل غزارة من نهري الراين والنيل، و غزارته أقلّ بعشر مرات من غزارة نهري دوناي وفولغا.

يقول ماك آدمز: "ولكن هذا لا يقلل من أهمية الفرات، فلا يوجد نهر آخر في العالم، لعب دوراً مهماً طويل الأمد في تاريخ البشرية مثله".

الفرات، هذا النهر الواسع ذو اللون البني، الذي جلب و ما يزال يجلب الحياة إلى مناطق جنوب بلاد الرافدين الصحراوية، وبدون هذا العامل الرئيسي لا يمكن فهم لغز ظهور وتطور الحضارة المدنية الأولى على الأرض (ممالك المدن السومرية).

توصّل ماك آدمز إلى حقائق معيّنة حول المساحات المروية بمياه الفرات، وذلك من خلال مراقبة النهر في الوقت الحالي في فصل الشتاء، أي في فترة نضوج المزروعات، حيثُ تتراوح المساحة المروية في الحالات العادية ما بين (٦ و ٧) آلاف كم٢، وقد تصل إلى ٣٦٠٠٠ كم٢، وذلك بحسب مدى غزارة النهر (الغزارة القصوى هي في نيسان).

يبلغ متوسط مساحة الأراضي المروية في بلاد الرافدين، بحسب ماك آدمز، نحو ٨٠٠٠كم٢، وفي مساحةٍ تقاربها، تنمو المزروعات نتيجة التبخّر والرطوبة، ومن الممتع أن نقارن هذه المعلومات مع المعلومات التي حصلنا عليها من المصادر الكتابية من لاغاش؛ أحد أكبر ممالك المدن السومرية . هذه الدولة الذاتية الإمكانيات والمنشأ، كانت مساحتها حسب ي. م دياكونوف حوالي ثلاثة آلاف كم مربع، وكانت المساحة المروية لا تقل عن ثلث المساحة العامة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار، أنه في القرون الأولى من الألف الثالث قبل الميلاد، كانت توجد في سومر حوالي خمس عشرة مملكة من المدن، وكل واحدة منها كانت تملك ما لا يقل عن ألف كم مربع

من الأراضي المروية، مثل لاغاش، حينها سنجد أن نظرية ماك أدمز مقنعة جداً، ومع ذلك فهو يحدد المواقع الكبيرة لعملية الري في بلاد الرافدين، وقبل كل شيء ترسّب الطمي في الأراضي وغمرها، ويعتقد ماك آدمز أنّ السبب وراء ذلك هو بطء جريان المياه في الأودية وقنوات الري، وعملية تبخر المياه، بسبب الطقس الحار والجفاف، وأيضاً وجود الملح في مياه النهر...إلخ.

خلافاً للرأي السائد، لا يعتقد ماك آدمز أن سهول بلاد الرافدين هي ذات طبيعة جغرافية واحدة، فهو يقسمها إلى منطقتين طبيعيتين؛ المنطقة الأولى: وهي ذلك الشريط الأخضر المحاذي لنهر الفرات، حيث الأراضي الزراعية المروية بمياه النهر، والتي يستوطنها السكان المستقرون (الحضر).

المنطقة الثانية: هي تلك الأراضي الواسعة التي تقع بعد المنطقة الأولى على جانبي النهر، والتي لم تصل إليها يد الإنسان، وهي أرضٌ بِكر؛ حيث السبخات والطين المترسب بفعل الفيضانات، والمناطق التي جفّفتها أشعّة الشمس، والسهول التي ينمو فيها القصب والنباتات البرية، وقد ساعدت هذه الظروف على تطور الصيد وتربية الحيوانات... وما إلى هنالك.

وهنا عاشت القبائل المتنقّلة وشبه المتنقّلة، وغالباً ما كانت هذه القبائل على علاقة وثيقة مع سكان الحضر في المدن والقرى في المنطقة الخضراء؛ أي المدن والقرى الأولى.

لغز الخليج الفارسي:

أحد أكثر المسائل تعقيداً، أو المتعلقة بالبيئة في بلاد الرافدين، هي مسألة تشكل جيولوجية دلتا نهري دجلة والفرات في المنطقة الجنوبية.

اعتقد العلماء لفترة طويلة بأن أغلب سهول بلاد الرافدين المعاصرة، تشكلت بفضل الطمي الطيني الذي جلبته الأنهار، وهذا ما أدى إلى دحر

الشاطئ الشمالي للخليج الفارسي نحو الجنوب بشكلٍ تدريجي، وعلى نحوٍ لا يقبل الشكّ فيه، يبدو أن هذه العملية قد حدثت منذ زمن موغلٍ في القدم؛ ذلك أنّ غالبية التلال الأثرية القديمة تتوزّع على مساحة هذه السهول،

ويعود ظهورها إلى ما قبل نهاية الألف السادس. لكن، في أقصى جنوب سهول بلاد الرافدين، عند مدينة أور القديمة (بالقرب من مدينة الناصرية)، تقع حدود غير مرئية، وإلى الجنوب منها لا توجد تلال أثرية، وتوجد بين هذه الحدود والخليج الفارسي منطقة واسعة شبه خالية من السكان، وهي عبارة عن مستنقعات وبحيرات وسبخات يكثر فيها الطين.

عندما ظهر الاعتقاد القائل بأنّ مدينة "أور" كانت تقع يوماً ما على الخليج الفارسي- وهذا ما تؤكده المعطيات الأثرية والألواح الكتابية- فإنّ مدينة "أريدو" السومرية، التي اعتبرها سكانها أقدم مدينة في العالم، كانت موجودة على ساحل البحر، في الألف الثالث، وذلك وفقاً لما وصلنا عنها من كتابات.

كان يوجد في مدينة "أور" القديمة، التي تبعد عن "أريدو" بضعة كيلومترات، ميناءٌ شحن للمراكب البحرية القادمة من البلدان البعيدة مثل "ديلمون" و"ماغان" و"ملوحة"، وذلك استناداً لما ورد في الكتابات السومرية، وعلى مقربةٍ من هذه المدينة، وتحديداً في "ديكديكاخ" اكتشف علماء الآثار ثلاث قطع طينية على شكل مثلث، عليها كتابة تعود لحاكم أورنامو (نهاية الألف الثالث قبل الميلاد) تتحدّث عن نقطة لتسجيل وتفتيش السفن من قبل الحاكم "أورنامو"، وكانت هذه السفن قادمة من بلاد "ماغان" التي تقع على ساحل البحر؛ أي الخليج الفارسي في الوقت الراهن.

إلّا أنّ هذا الاعتقاد السائد تمّ دحضه عام ١٩٥٢م من قبل الجيولوجيَين الإنكليزيين "ليز" و"فيلكون" اللذين أثبتا، بعد دراساتٍ مطوّلة، أنّ الشريط الساحلي للخليج، بما فيه الساحل الشمالي، لم يطرأ عليه أيّ تغيير منذ بداية

الألف الثالث قبل الميلاد، وقد تعرّضت هذه النظرية بدورها إلى الكثير من الانتقادات من قبل علماء الطبيعة وعلماء الآثار في وقتنا الراهن، والذين استندوا في انتقاداتهم إلى الحقائق والوقائع البيئية والتاريخية.

الخليج الفارسي هو حوض شاسع المساحة، ولكنه غير عميق، وما يميّز هذا الساحل الشمالي، هو أنه يتأثر بشكل كبير بتغيّر مستوى مياه المحيطات العالمية جراء التغيرات المناخية؛ إذ لا يتجاوز عمق الخليج ١٠٠م. وقبل خمسة عشر ألف عام، كان النهران المعاصران حينها، دجلة والفرات، يصبان في خليج عدن الذي يقع على بعد ٨٠٠كم جنوب شرق شط العرب المعاصر (دلتا الفرات ودجلة)، ولم يكن للخليج الفارسي وجودٌ آنذاك.

في الحقيقة، ليس من السهولة بمكان تعيين حدود شواطئ الخليج الفارسي عبر مختلف الأزمنة، ولا سيّما تلك الموغلة في القدم منها، ولهذا نجد أنّ رأي "ليز" و"فيلكون" الجازم، والذي يقول بعدم تغيّر حدود شواطئ الخليج منذ القدم ليس دقيقاً، ففي الوقت الراهن، تفيد معلومات بأنّ الشواطئ الشمالية اتسعت بشكلٍ لافتٍ في نهاية البليستوسين.

من جهةٍ أخرى، واستناداً إلى أعمال الجيولوجيين "لارسن" و"إيفانس" يمكننا القول بأن الحدود الشمالية لشواطىء الخليج، خلال الخمسة آلاف سنة الأخيرة، قد تراجعت باتجاه الجنوب، حتى وصلت إلى حدودها الحالية. والآن تتضمّن المراجع العلمية المتعلقة ببلاد الرافدين إجماعاً اقترحه المؤرخ ت . ياكبسون، الذي يعتمد على اللقى الأثرية في مدينة أريدو السومرية، وأثناء التنقيبات التي جرت في معبد الإله إنكي، حيث اكتشفت عظام ضخمة لحيوان بحري؛ بل لنوع يستطيع العيش في المياه قليلة الملوحة فقط، مثل مياه الدلتا التي تختلط مع مياه الخليج أثناء المد.

وليس من المستبعد أن تكون تلك المساحة المنخفضة والشاسعة، التي تقع فيها مدينة أريدو القديمة، جزءاً من سلسلة بحيرات تربطها ببعض روافد

عميقة، في نقطة التقاء الفرات مع الخليج. هكذا تماماً كانت مدينة أور ؛ كانت تقع على المجرى القديم لنهر الفرات، وتقع جنوبها سلسلة من البحيرات والسبخات الطينية الممتدة حتى الخليج الفارسي، وكانت هي أيضاً ميناءً نهرياً مثل أريدو، ولم تكن ميناءً بحرياً، رغم أنّها كانت متصلة بشكل مباشر مع مياه الخليج.

يقول س .لويد: "تختلف بلاد الرافدين اليوم، اختلافاً جذريّاً عمّا كانت عليه في الماضي، فسواحل الخليج ابتعدت كثيراً باتجاه الجنوب، ولم يعد الفرات ودجلة يجريان بمحاذاة بعضهما البعض كما كانا في الماضي، وتجدهم يبتعدان عن بعضهما البعض جنوبيّ بغداد، ثمّ يقتربان من جديد بعد قطعهما مسافةً محدّدة، وهكذا نشاهد الجزء العلوي والسلفي من بلاد الرافدين، على شكل الرقم 8، وبعد ذلك يتحد النهران في شط العرب، الذي يصب في الخليج الفارسي، وتصبح الأرض المحصورة بين دجلة والفرات صحراء قاحلة؛ مرة بسبب دمار قنوات الريّ، ومرة أخرى بسبب جلب الطمي والطين إلى الأراضي الزراعية منذ الأزمنة القديمة.

هكذا كان المشهد العام للبيئة التي جرت على مسرحها الأحداث المتعلقة بولادة الحضارة المدنية الأولى على كوكبنا.

الفصل السادس

أور– مدينة سومر الضائعة:

في أيار عام ١٩٨٠م بعد أن انتهينا من الموسم التنقيبي الأخير في ياريم تبه، وأثناء وجودنا في بيت البعثة الأثرية العاملة في نينوى في الموصل، فاجأنا رئيس البعثة العراقية في آشور، السيد طارق مدلون وعدد من أعضاء البعثة بمجيئهم إلينا؛ طارق شخص متوسط الطول، نشيطٌ و ذو بشرة سمراء، كان يعرف عدداً من أعضاء بعثتنا منذ المواسم الأولى التي عملت فيها البعثة في بلاد الرافدين المشمسة، وكان دائماً يُدير مشاريع التنقيبات الأثرية الضخمة التي تنفذها المديرية العامة للآثار والمتاحف العراقية، وكان يعتبر من أكثر الآثاريين في العراق خبرة وعلماً.

جاء طارق إلى الموصل قاطعاً ١٤٠كم، فقط ليدعونا إلى مشاهدة آشور القديمة، وأعمال التنقيب الجارية فيها، وكانت دعوةً مغرية، ومع أنّنا كنا متعبين، ونقوم بحزم الحقائب قبل السفر إلى بغداد، قررنا أن نجمع بين المفيد والممتع، وتحرّكنا بسياراتنا، مصطحبين معنا جميع أمتعتنا، باتجاه آشور لنمكث فيها يوماً، ومن ثمّ ننطلق من هناك إلى عاصمة البلاد.

آشور هي المركز الأقدم للآشوريين (المدينة المذكورة في النصوص والرقيمات العائدة إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد)، وهي على شكل لوحة جميلة تستقرّ على منحدر كبير في الضفة اليمنى لنهر دجلة. المياه غزيرةٌ في هذا المكان والنباتات تنمو على نطاقٍ واسعٍ. ينحرف النهر بشكل

كبير، مشكلاً بحيرة غير عميقة في الوسط، ثمّ يتفرّع عنها، ليتدفّق جارياً، في منظرٍ مهيبٍ، باتجاه الجنوب، حيث الخليج الفارسي.

دعانا مضيفونا الكرام بدايةً إلى رؤية بيت البعثة، الذي يشبه قلعة محصنة على ضفاف النهر مباشرة، كان أمامها مصطبة مفتوحة رائعة؛ تبين لاحقاً أن هذا البيت قد بناه، في نهاية القرن التاسع عشر، "والتر أندري" الذي ترأس أعمال تنقيب البعثة الألمانية لعدة سنوات؛ هذا البناء تعرّض للهدم خلال الحرب الكونية الأولى، وتم ترميمه في سبعينات القرن الماضي، واتخذه زملاؤنا العراقيون بيتاً للبعثة العراقية.

كانت الأماكن الممتعة في آشور القديمة لا تُعدّ ولا تُحصى؛ كانت عيوننا تنتقل بشكل جنوني سريع، من موقع ممتع إلى آخر. هذا القصر مكتشف ومرمم بشكل رائع؛ إنّه يعود إلى نهاية الألف الأول قبل الميلاد (الفترة البارثية)، وهذا بيت الكاهن، وهو يعود إلى الفترة الآشورية، هنا أيضاً مدرسة الكهنة المستقلة، ومكان الصلاة، ومذبح مخصص لتقديم القرابين، ويبدو واضحاً المجرى المخصص لصرف دماء الحيوانات التي تُقدّم كقرابين، إلى الخارج، ولكن الانطباع الأقوى للقائنا بالماضي كان ينتظرنا فيما بعد.

على إحدى القطاعات الرئيسية في المدينة القديمة (الموقع الأثري) قرب ضفة نهر دجلة، أخذت الفيضانات الربيعية، على مدار سنوات طويلة، جزءاً كبيراً من السويات الأثرية المطلة على مياه النهر بشكلٍ مباشر.لا يقلُّ ارتفاع ضفاف النهر هنا عن ١٢ إلى ١٥ متراً، وفي هذا الجزء المتآكل بسبب المياه، نجد في مقطعه العرضي (البروفايل) آثار حياة الإنسان العائد إلى فترات مختلفة من العصر الحجري الحديث- النيوليت (حلف أو العبيد الباكر – الألف الخامس قبل الميلاد)، وحتى الفترات الإسلامية في العصور الوسطى. ومن الطبيعي أن يكون علماء الآثار هنا، قد استفادوا

من هذه المقاطع الحاضرة في عملهم، فنظفوا المقاطع المطلة على النهر، الواصلة حتى الأرض البكر بعمق يقارب ٢٥ إلى ٣٠ متراً، وحصلوا بذلك على مقطع عرض رائع، يبين الترتيب الطبقي بشكل ممتاز، ويقال بأن هذا العمل الصعب بدأه العالم الألماني والتر أندري، ويتابعه الآن أعضاء البعثة العراقية.

اقتربنا من الحافة الاصطناعية العالية، ووجدنا في العمق السفلي كيف تجري المياه البنيّة لنهر دجلة، نظرت إلى الجدار (المقطع العرضي للموقع) بتمعن وانبهار؛ رأيت أمامي مباشرة تاريخ البلاد على شكل لوحة حية من أعلى المقطع بشكل عمودي، كانت السويات المتراكمة تظهر آثار أزمنة وثقافات آلاف السنين. وفي جميع أنحاء المقطع أجد الآن أمامي الأواني الفخارية الكبيرة التي كان يُحفظ فيها السمن والقمح والبيرة، ومواقد وأفران مخصصة لشيّ الأواني الفخارية، وبقايا جدران الأبنية المبنية من اللبن والحجر، بالإضافة إلى عظام بشرية ومدافن كاملة ذات توابيت طينية.

لم أشاهد طوال حياتي مثل هذا المنظر الرائع الذي ترك لديّ انطباعاً لن أنساه ما حييت؛ كل تاريخ بلاد الرافدين الطويل ظهر أمامنا في هذا المقطع العرضي؛ البارثيون ، والفرس ، والبابليون ، والأشوريون ، والسومريون وأسلافهم الذين لا أسماء لهم، من الثقافات الزراعية الأولى؛ كلهم مروا على آشور وتركوا وراءهم آثاراً حقيقية. عاشوا وماتوا، شعوب كاملة ازدهرت واضمحلت، وحلت حضارة مكان أخرى، وفي كل مرة في مكان مدينة الأموات، تظهر مدينة الأحياء.

بالوقوف أمام هذا المقطع العرضي(البروفايل) المخيف سوف نعرف أكثر من أي وقت مضى، وبشكل واضح، سرعة مرور الوقت والزمن، وثقل القرون الموحشة التي وضعت حجر أساس حضارتنا المعاصرة.

في الجزء الأخير من الأرض المطلة على مياه النهر، تبدو وبشكل غير واضح، عظام بشرية، وعدد من القطع الفخارية الخشنة (هذه بداية آشور، قالها "طارق مدلون"؛ إنها بقايا عظام بشرية عائدة إلى عصر النيوليت- الألف الخامس وبداية الرابع قبل الميلاد). بعيداً، وبمحاذاة جزيرة على شكل شريط ضيق، وسط مياه دجلة، انتهت مجموعة من الفلاحين المحليين، والذين كانوا يرتدون ثياباً بيضاء طويلة، من جمع القصب والزل والأعشاب، وتحركوا باتجاه القارب الذي ينتظرهم، وبالنظر إلى هذه الأشكال والأطياف البشرية، كان من السهل أن نتصور السلسلة الطويلة للأجيال السابقة التي حملت أعباء العمل الشاق للإنسان عبر ضباب الماضي؛ سبعة آلاف مرة زرعوا القمح، وسبعة آلاف مرة حصدوه، منذ ذلك الوقت الذي سكن فيه أسلاف العراقيين المعاصرين، في هذه الضفاف العالية بقرب آشور.

ما هو النتاج الأول لعصر الحضارة؟ كماهو معلوم فإنّ أقدم الحضارات ظهرت على كوكبنا في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، وكانت تعود للسومريين، غير أنّ السومريين لم يمتدوا إلى ما بعد بغداد الحالية، من جهة الشمال، وفي الشمال كانت تصل بضائعهم عن طريق القوافل التجارية، وهي لا تظهر على هذه اللوحة التاريخية الآن، كما إنّه من غير الممكن أن نجد سوية سومرية صِرفة. وفي هذه اللحظة التي كنت أفكر فيها بهذه النقطة، أشار"طارق مدلون" بإصبعه إلى السوية الثالثة السفلية وقال: "تجدون هناك بقايا ثقافية توازي، من حيث الفترة الزمنية، فترة أوروك الجنوبية في سومر". كان هذا جواباً على سؤالي، ففترة أوروك في تاريخ بلاد الرافدين (منتصف نهاية الألف الرابع قبل الميلاد) كانت توازي تماماً ظهور مدن الممالك السومرية الأولى.

في حقيقة الأمر، لقد شهد تطوّر المجتمعات القديمة الطويلة حدوث قفزة ثورية، فيما يتعلق بالسكن في الكهوف والمساكن البسيطة والبيوت الطينية البدائية، فقد انتقل سكان جنوب بلاد الرافدين إلى السكن في البيوت الكبيرة في المدن، حيث القصور والمعابد والحرف المتطورة والتجارة والكتابة والفن المتطور. تزامن هذا الانتقال مع ظهور الدولة الطبقية الباكرة، رغم أن هذه الدول والممالك كانت قليلة جداً، وكانت على شكل جزر محيطة بمياه البحر الواسعة، وحولها الحياة البدائية البربرية.

كلمة عن سومر:

" أوه سومر! أعظمُ أرضٍ في الكون، مضاءة بنور لا يخبو، يا من حددت القوانين الإلهية لكل الشعوب، من المشرق إلى المغرب ". كلماتٌ أنشدها شاعر سومري ذات يوم، يؤكّد فيها، بطريقةٍ شاعرية، تفوّق سومر على كل الشعوب المجاورة لها، على الصعيد الثقافي والعسكري.

في الواقع، سومر ليست بلاداً كبيرة، فمساحتها أكبر بقليل من بلجيكا المعاصرة. كانت حياة السومريين كلها متمركزة حول الأنهار والقنوات، ولهذا نجد أنّ مهد الحضارة يقع، عملياً، على شريط ضيق من الأرض، يبدأ من بغداد، ممتداً حتى المستنقعات الآسنة على سواحل الخليج الفارسي، وكانت هذه المساحة مقسمة بين عدة ممالك (دول).

يقول العالم الإنكليزي المشهور غوردن شايلد: "بعد مرور ٣٠٠٠ سنة، تكشفُ لنا الوثائق الكتابية الأقدم، اللوحة الاجتماعية والاقتصادية لسومر وآكاد، حيثُ كانت البلاد مقسمة بين خمس عشرة مدينة ومملكة (دولة)، وكان لكل واحدة منها نظامٌ سياسيٌّ مستقلّ، لكن كانت تجمعهم لغة واحدة وثقافة مادية ودينية مشتركة، وكانت كلها مرتبطة ببعضها من الناحية الاقتصادية".

تخبرنا نصوص الرقيمات الطينية بأنّ قرابة خمس عشرة مدينة (دول غير كبيرة)، كانت موجودة، على امتداد مساحة سومر في بلاد الرافدين؛ دجلة والفرات، بدءاً من بغداد وحتى البصرة، وذلك في بداية الألف الثالث قبل الميلاد، وكان لكلّ واحدةٍ منها سلالتها الحاكمة الخاصة بها.

تفيد المصادر المتعلقة بفجر السلالات الباكرة التي تعود إلى عام (٢٧٥٠ق.م) بوجود ثلاث عشرة مدينة أو دولة في المساحة ذاتها، أو على الخريطة الجغرافية الحالية (سيبار، كيش، آكشاك، لارك، نيبور، أداب، أوما، لاغاش، بادتيبيرا، أوروك، لارسا، أور، أريدو).

إذا اعتمدنا على أساطير السومريين وتراثهم، نجد أنّ الآلهة السماوية هي التي بنت المدن الأولى، وليس من الغريب أن تسمّى معابدَ في النصوص القديمة، إذا كانت مراكز المدن الخمس الأولى قد ظهرت بهذا الشكل الغريب (بنيت على يد الآلهة)، والتي بدأت منها عبادة أهم الآلهة في البانثيون السومري.

عندما هبط المُلك من السماء

عندما هبط العرش الملكي من السماء

أسس (الربّ) الطقوس والقوانين الإلهية العليا

هو الذي أسس خمس مدن في ....أماكن مقدسة.

هو الذي منحها الأسماء وجعل منها المعابد الرئيسية...

هذه المدن هي: أريدو، بادتيبيرا، لاراك، سيبار، شورباك. ولعلّ الشيء اللافت هنا هو أنّ هذه المدن الخمس الأولى، ذات الأهمية الأكبر، لم تكن في يوم من الأيام مدناً كبيرة، أو مراكز ذات ثقل سياسي، في تاريخ ميزوبوتاميا.

وبغض النظر عن عدم وحدتها كدول ذات ثقافة واحدة بشكل كامل (كان لكل واحدة منها إله محلي، وأساطير محلية، وصفات محلية تطلق على التماثيل، ومصنوعات طينية، وفنون ذات طابعٍ خاص، ولهجاتٍ محلية)، فإنّ كل الدول السومرية كانت متقاربة من الناحية الثقافية.

أولاً: كان لهم جميعاً اسم واحد وهو "الرؤوس السود" (سانغ نيغ أوغا).

ثانياً: كل ميزوبوتاميا كان لها كبير آلهة، إله الهواء هو إنليل في نيبور.

ثالثاً: وحدة تقنية البناء والرموز الدينية (حسب الأختام الأسطوانية).

رابعاً: كانت طريقة الكتابة واحدة في كل أرجاء سومر، وكانت المدينة في سومر مركز الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

يقول المؤرخ الأمريكي المشهور صومائيل ن. كرامر: "كانت الحضارة السومرية بشكل عام ذات طابعٍ مدني، مع العلم أنها اعتمدت، في غالبها، على القاعدة الزراعية لا الصناعية".

في الألف الثالث قبل الميلاد تكونت سومر من زهاء عشرين مدينة ومملكة مسورة بجدران، ويحيط بها عدد من المستوطنات والقرى الصغيرة، وكان ما يميّز كل مدينة هو وجود معبد مشيّدٌ على مصطبةٍ أو تلّ مرتفعٍ، يتحوّل مع مرور الزمن إلى برجٍ ضخمٍ ذي درج (زقورة).

ومع ذلك يجب التنويه مرة أخرى بأن هذه المدن القديمة هي ذات خصوصية مختلفة عن المدن المعاصرة، إذ يقول ي.م. دياكونوف: "يجب علينا الأخذ بعين الاعتبار أنّ المدينة القديمة لم تكن مركزاً لحرفة أو تجارة بشكل قطعي، بقدر ما كانت مركزاً للإنتاج الزراعي".

أور الخلديين:

كانت مدينة "أور" أشهر المدن السومرية على الإطلاق، وليس مصادفةً أن نجد اسم مدينة "أور" يردُ كثيراً في ملاحم وأناشيد تلك الفترة، وقد بقي سكان "أور" فيها لفترة طويلة جداً؛ منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد وحتى عصور دارا والأسكندر المقدوني، ولم تستطع الغزوات والحروب والكوارث الطبيعية أن تحرك سكان المدينة المستوطنين فيها منذ قرون عديدة.

ولكن ما لم تستطع الحروب وهجوم الأعداء فعله، فعلته الطبيعة، فقد غيّر الفرات مجراه بشكلٍ مفاجئ، وابتعد لحوالي ١٦ كم شرقاً، عن أسوار المدينة. كان من المستحيل العيش ليوم واحد في هذه السهول القاحلة بدون الماء، وسرعانما تحولت "أور" إلى أنقاضٍ وتلالٍ رمادية، وأصبحت جزءاً من الصحراء.

ومع مرور الزمن، لم يطوِ النسيان صفحاتٍ كثيرة من تاريخ المدينة وحسب، بل شمل ذلك موقعها أيضاً، وحتى وقتٍ قريبٍ لم تكن لدينا معلومات عن مدينة "أور" باستثناء تلك المعلومات الضبابية المستقاة من الإنجيل والنصوص الطينية العائدة إلى الفترة الآشورية والبابلية، التي أتت بعد دولة السومريين بقرون كثيرة، فقد عرفنا مثلاً، من خلال الكتابات المتأخرة، بأنّ الملك البابلي حمورابي قمع بوحشيةٍ العصيان الذي شهدته المدينة في القرن السابع عشر قبل الميلاد، وتخبرنا أغنية "رثاء أور" عن هذه الحادثة المحزنة التي تشبه عاصفة غضب إنليل على سكان المدينة.

"العاصفة، التي أتت بسبب غضب إنليل

العاصفة، التي دمرت البلاد

غطّت أور مثل منديل، ولفّتها مثل الكفن.

أوه! أيّها الأب نانا، لقد تحولت هذه المدينة إلى خراب".

ويبدو أنّه خلال هذه الأعوام تحديداً، خرج إبراهيم وعائلته من "أور" ، فقد جاء في العهد القديم: "ومات والد آران في عهد فاري، في مسقط رأسه في أور الخلدية- عندها آخذ فاري ابنه إبراهيم ، ولوط، وابن آرانا، حفيده، وخرج معه من أور الخلدية، لكي يذهب إلى أرض الحنانين... "، بعد ذلك لا يذكر الإنجيل أور ابداً.

بدأ د.ي. تيلور، القنصل الإنكليزي في البصرة، البحث عن المدينة، في القرن التاسع عشر، في سنة ١٨٥٤م، وعرف بأن التل والأطلال المعروفة بين سكان البدو المحليين يحمل اسم تل المقير، وهي أور القديمة. وأكدت ذلك الرقم الطينية المكتشفة، ولكن التنقيبات والأبحاث الواسعة بدأت بعد سنين طويلة من ذلك، ففي عام ١٩٢٢م بدأ العالم الإنكليزي ليونارد وولي أعماله، التي استمرت إثني عشر موسماً في مركز المدينة القديمة، في أساسات القصور الفارهة، والجدران الضخمة للمعابد، والأبراج المدرّجة (الزقورات)، وأخيراً في المدافن الملكية الغنية بشكل أسطوري، والتي ظهرت في أعماق الأرض، واللقى الأثرية الثمينة التي كانت تعد بالآلاف، والتي حُفظ القسم الأعظم منها في المتحف العراقي في بغداد، في قاعة خاصة بالحضارة السومرية.

جئت إلى هذه القاعة عدة مرات ، وفي كل مرة كنتُ أنظر فيها إلى هذه المصنوعات الذهبية والفضية من خلف الزجاج، لم تكن تفارقني فكرة أنّ إخراج هذه اللقى والقطع الأثرية من مكانها شيء مزعج للغاية. ليس بوسعنا الآن سوى أن نتخيّل شكل هذه القطعة أو تلك، عندما تم اكتشافها في المدفن، ونتأمّل خلفية تلك الألوان الزاهية، التي أتتنا من الزمن السحيق، واللون الأخضر الفاتح للمعدن المؤكسد، واللون الأحمر لأكسدة المعادن على القطع أو اللقى الخشبية، كذلك اللون الأصفر الناشف، للعظام والجماجم البشرية،

وكما يقول المثل: "أن ترى مرّةً واحدةً فقط، خيرٌ من أن تسمع عشرات المرّات".

إنّ أسماء القادة السومريين والملوك والكهنة هي معروفةٌ بالنسبة إلينا، ولكن هل من الممكن أن تعطينا الأسماء المتوحشة أي انطباع عن عصرهم وحقيقتهم؟

لا شكّ أنّه إذا أردنا تصوّر ذلك المحيط، والأبطال الأسطوريين في ذلك الزمن السحيق، وتلمّس الخلفية التاريخية لهم، لا شكّ أنّ ثمة طريقة واحدة لذلك؛ أن نمضي إلى المدينة القديمة لنشاهد عن كثبٍ تلك التحصينات الضخمة والمعابد الكبيرة والقصور الفارهة، التي تتحدّث عنها نصوص الرقيمات الطينية الرافدية.

ها نحن ذا في إحدى صباحات آذار الباكرة في سيارة بعثتنا (الواز) بضجيجها وصوت محركها، نسير على مرتفع في دربٍ ترابيّ، ويبدو لنا من الخلف، الشريط الأزرق لمياه الفرات، وما بقي من آثار أور القديمة، وعلى السهول الصفراء القاحلة، وعبر السراب، بدت لنا عدة مجموعات من التلال الكبيرة والصغيرة، حيث لم يكن هناك ما يشير إلى أنّه في يوم من الأيام كانت توجد هنا التحصينات الرهيبة للمدينة والأسوار المسننة والأبراج، كما أن المعابد والقصور اختفت من دون أثر، وكذلك القبب العظيمة لمدافن الملوك، التي تم التنقيب عنها منذ أكثر من خمسين عاماً، من قبل ليونارد وولي.

زقورة أورنامو:

ورغم كل ذلك، فقد بقيت بعض الآثار محفوظةً في "أور" التي كانت تشبع رغبات أكثر الناس المتعطشين للآثار، ففي الأفق، وفوق المنظر المحيط بالأرض الجرداء، والأجزاء الباقية من تلك التلال، والبقايا القديمة

للتنقيبات، والحفر التي حفرها لصوص الآثار، يطل شاهقاً كالسراب، برجٌ مدرّجٌ أصفر اللون؛ إنها هي، زقورة أورنامو الشهيرة، وهي الجزء الأساسي من معبد المدينة الذي تم بناؤه تمجيداً لإله القمر "نانا"، والذي عثر عليه الإنكليز، ورمّموه في عشرينات القرن الماضي، وهو يتميّز عن جميع خرائب أور، بكمال أجزائه ودرجة محافظته على نفسه.

الزقورة مبنية من اللبن الطيني، و هي مغطاة من الأعلى بطبقة من القرميد تبلغ حوالي ثلاثة أمتار، تمّ تثبيتها بمادة الزفت (القار)، و تبلغ أبعاد قاعدتها (٦٠ × ٤٥م)، وكانت الزقورة قديماً تتألف من ثلاث شرائح أو طوابق، ولكن في الوقت الحالي لم يبق منها سوى الطابق الأول، وجزء من الطابق الثاني. هذه الكتلة الطينية الضخمة، تمنحُ الناظر إليها شعوراً بالخفة والأبهة، وذلك بفضل التناسق التام بين أجزائها وخطوطها شبه الدائرية، وكان يسود اعتقادٌ، لفترة طويلة، أن هذه الطريقة في البناء هي من ابتكار الإغريق، الذين ابتكروها أثناء بنائهم لـ "البارثينون" المعبد الشهير في أثينا، ولكن في الواقع فإنّ هذه الطريقة في البناء سبقتها بنحو ألفي سنة.

في الماضي، كانت المساحة الفارغة لمصطبة مدرج الزقورة مزروعة بالشجر، وقد تمّ جلب طبقة من التربة الخصبة لأجل ذلك، وتم بناء منشآت لحفظ مياه الأمطار من أجل سقاية النباتات. كان الجبل الأخضر للزقورة يرتفع ويطل على الجدران المسننة للمدينة، وكانت تُشاهد من بعيد، وتبدو شديدة الوضوح في السهول الرافدية الصفراء.

زقورة أورنامو هي إحدى الشواهد المتبقية من الماضي إلى يومنا هذا، وتبدوعليها الآثار التي خلّفها غضب التاريخ، و قد أضاف جميع ملوك وحكام "أور" شيئاً ما على بنائها، لكي يخلّدوا أعمالهم، فكان كل ملك منهم يستعجل لترك شاهد كتابي على جدرانها المسننة، لكي يُظهر إنجازاته أمام الأجيال القادمة: "في مجد مولاه نانا، أعظم أبناء إنليل، زوج أورنامو

الجبار، حاكم أوروك، ملك أور، ملك سومر وآكاد، شيد إيمينيغورو معبده الحبيب".

تقع الزقورة في مركز المدينة القديمة، في المجمع المقدس أو الديني، المخصص للمعابد والقصور الملكية؛ أساساتها عميقة في الأرض، وقمتها تعانق السماء، وكانت صورتها تنعكس في مياه الفرات الهادئة، لقد كانت مفعمةً بالحكمة مثل أبي الهول، وخارج سلطة الزمن مثل أهرامات الفراعنة. لقد مرّ كلّ تاريخ "أور" منذ بدايته الغامضة وحتى نهايته الدراماتيكية، من أمام هذه المنشأة الهرمة؛ كان بإمكانها أن تحكي عن جمال وثراء الملكة بوسابي، والانتصارات الحربية لمسكالا مدوغا (بطل البلاد المعطاء) الذي توّج بالتاج الذهبي نظراً لشجاعته، وعن الحماس لشق القنوات الجديدة، وعن المعابد والقصور في فترة حكم سلالة "أور" الثالثة؛ أورنامو وشولجي (نهاية الألف الثالث قبل الميلاد)، وازدهار عظمة مملكة "أور".

لكن مجد المدينة انحدر تدريجياً نحو السقوط؛ سقطت "أور" بيد الأعداء، وربّما سقط آخر المدافعين عن المدينة على عتبة الزقورة بسهم عيلامي، وهو ينزف دماً.

عندما أتوا (العيلاميين) دمروا كل المحيط
وقضوا على كل شيء؛ مثل فيضان غاضب
لمَ رُسم لكِ هذا القدر يا سومر؟
طردوا القديسيين من المعابد
المدينة مهدمة والمحراب محطم
وامتلك العيلاميون كل البلاد... "نشيد سومري"

بعد الغزو العيلامي لـ"أور"، في بداية الألف الثاني، عاشت المدينة فترة من الزمن على أمجاد الماضي، وبدأ أفول نجمها، إذ استمرّت لنحو خمسة عشر قرناً، وفي القرن الرابع قبل الميلاد توقفت الحياة في المدينة بشكل نهائي، وأصبحت أطلالاً، ولم تعد تذكر في الكتابات القديمة. ولكن الزقورة، التي أعيد بناؤها وترميمها من قبل ملوك بابل؛ نبوخذ نصر ونابونيد، في القرن السادس قبل الميلاد، قاومت بشكل مدهشٍ عوامل الزمن، ووصلت إلى أيامنا هذه، كشاهد على فن العمارة السومرية.

تيمينوس أور (المنطقة المقدسة في أور):

ارتفعنا، على مهلٍ، مع الدرج الواسع المؤلف من مائة درجة، إلى الساحة في أعلى الزقورة؛ كان الجو حاراً وخانقاً، وبالكاد كنت تشعر بهبوب نسمة هواءٍ هناك، تحت شمس الظهيرة التي لا يمكن تحملها، ولكن من هذا المكان، وعلى ارتفاع حوالي عشرين متراً، يبدو أمامك المنظر الرائع للمدينة القديمة والمنطقة المحيطة بها.

على اليمين، عند قاعدة الزقورة، بدت بشكل جلي أساسات وجدران مجمع قصور الحكم في عهد شولغي، الذي عاش في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. غير بعيد عنها، آثار الحفريات القديمة التي قام بها ليونارد وولي، وكذلك المدافن الملكية، وبعدها، خارج مركز المنطقة الإدارية والطقوسية في "أور"، تبدو، بشكل ضبابيٍ، المنطقة السكنية ببيوتها الصغيرة وشوارعها الضيقة، كل الذي شاهدناه الآن يعود إلى فترات زمنية مختلفة؛ ما بين الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، ولكن أغلبيته يعود إلى فترة نهاية الألف الثالث قبل الميلاد؛ عصر الازدهار أو فترة حكم سلالة "أور" الثالثة، ففي غضون ما يقارب مائة عام (٢١١٢- ٢٠١٥ ق.م) أصبحت "أور"

عاصمة دولة قوية مترامية الأطراف، وكانت تأتي إليها كلّ غنائم الحروب، وبنى حرفيوها المعابد الجديدة والقصور والصروح دون كللٍ أو ملل.

في الحقيقة، كان الملوك ينسبون الكثير من تلك الأبنية العظيمة إلى أنفسهم، ولا سيّما ذائعو الصيت منهم؛ مثل أورنامو. "من أجل عظمة مجده نينغل، أورنامو، الرجل العظيم، ملك أور وملك سومر وآكاد شيد غيبار الرائعة"، هذه الكلمات مكتوبة على إحدى اللوحات الطينية، التي كتبت بمناسبة بناء معبد جديد. وتابع أعمال البناء وتشييد القصور حكام آخرون من السلالات الثالثة..

ولهذا، ليس غريباً أن نجد مدينة أور في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، مليئة بالأبنية الرائعة، وتخبرنا الكتابات بأن أورنامو شيد جدار أور "يشبه الجبال الصفراء ". في تلك الفترة كان مخطط مدينة أور على شكل قوس طوله كيلو متر واحد، وعرضه سبعمائة متر، ويحيط بها جدار شاهقٌ مبني من اللبن الطيني، من الجهة الخارجية.

كانت مياه الفرات تحيط بها من الغرب والشمال، ومن الجهة الشرقية كانت أور محمية بقناة عميقة وواسعة، وهكذا نجد بأن أور كانت محاطة بالمياه من ثلاث جهات، وكانت الجهة الجنوبية، هي المدخل الوحيد الذي كان بالإمكان التقدم عبره والدخول إلى المدينة.

كان مركز المدينة عبارة عن منطقة مقدسة واسعة تضم المعابد والمقرات المقدسة لإله القمر نانا –حامي أور، ومساكن الكهنة، والمستودعات ووُرش الحرفيين وقصور الحكام. حول هذه المنطقة المقدسة (تيمينوس)، في الجهة الشمالية والغربية من المدينة، كانت تتلاصق بيوت عامة الناس، وبالقرب من نهر الفرات، كانت تقع المراكز التجارية الرئيسية لأور. وبينما كنتُ أجول ببصري من فوق خرائب أور العالية وأطلق العنان لخيالي، تغير الطقس بشكل مفاجئ، فقد هبت الرياح الجنوبية الغربية

(الخماسين) القادمة من شبه الجزيرة العربية والمحملة بالغبار والرمال، وحجبت الشمس، ولكن ازدادت الحرارة، وبات التنفس أكثر صعوبة، و صارت الرؤية شبه معدومة، وأصبح التصوير ومشاهدة المدينة أمراً صعباً للغاية. هذه الحقيقة، هي العاصفة التي تحدث عنها أحد شعراء سومر المجهولين: "العاصفة غطت أور مثل منديل ولفته كأنه٠٠". في الأسفل عند درج الزقورة، كنت أسمع صراخ دليل رحلتنا المتطوع، حارس الموقع أحمد، وهو يدعونا للاستعجال قبل أن تشتد العاصفة، لكي يرينا، على الأقل، الجزء الرئيسي من الموقع. تعثرنا بقطع اللبن الطيني، ونحن نهرعُ إلى الجهة التي دعانا إليها الحارس، وبدأت الرياح تضرب وجهنا بالرمل، والغبار يدخل العيون والآذان والأفواه.

في الجزء الذي تقع فيه القصور والمعابد بالقرب من الزقورة، فقط كانت أجزاء من أساسات الجدران الطينية تبدو واضحة، فحتى فترة قريبة كانت أرضيات الغرف المربعة والمستطيلة كثيرة الشكل، ومصنوعة بمادة مثبتة. كل الأبنية الضخمة أيضاً هنا تعود إلى فترة سلالة أور الثالثة؛ هنا في هذا الجزء اكتشفت قصور الملوك والكهنة؛ هنا كان يُكافَأ المتفوق والمتميز ويُعاقَب المذنب، وكانت تُتخذ قرارات السلم والحرب، وكل هذا في سبيل نان وزوجته نينغل.

عودة الأموات- قدوم الأموات:

أثناء صفير العاصفة التي بدأت تشتدّ، خرجنا إلى الجهة الشرقية من المنطقة المقدسة (تيمينوس) في منطقة المقبرة الملكية، وهنا اكتشف ليونارد وولي ستة عشر مدفناً لحكام المدينة الذين حكموا في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، وحتى فترة ملوك سلالة أور الثالثة؛ هذه المكتشفات لم تخلّد اسم الباحث (ليوناردوولي) وحسب، وإنّما أدخلت

خزائن ملوك أور إلى علم الأثار العالمي وجعلتها خالدة. وكل المواد المكتشفة في هذه القبور موجودةٌ الآن في متحف بغداد ولندن وفيلوديفيا.

وفي بعض المواقع من أور، نُحتت بعض المدافن العائدة إلى الفترة المتأخرة من سلالة أور الثالثة، وهي مبنية من الآجر المشوي للمدافن القديمة، ونجد فيها الحفر العميقة فقط؛ حيث نزلنا بواسطة الدرجات العمودية المبنية من اللبن إلى داخل إحدى المدافن، في عمق يبلغ حوالي عشرة أمتار، حيث توجد غرفة الدفن؛ كان الجو فيها بارداً ورطباً، ولا يوجد أي أثر لمظاهر الأبهة والغنى السالفة.

ولكننا نتذكر على الفور الوصف الرائع للمكتشفات في المقبرة الملكية في أور، والتي قرأنا عنها في الكتب والتقارير العلمية السابقة.

* أشهر مدفنين عائدين إلى السلالة الأولى:

مدفن مسكلام دوغا، ومدفن الكاهنة أو الملكة التي لا نعرف قراءة اسمها بشكل نهائي، فإذا ما قرأناه بالسامية فهي تلفظ هكذا "بو أبي". بو أبي مدفونة تحت الأرض في حفرة من الآجر، وموضوعة على قطعة خشبية في قفطان مزركش ومزين بخرز اللازورد الأزرق، وهي تعتمرُ قلنسوةً رائعة من أوراق ذهبية وأغصان، وأدوات للتثبيت، على شكل أزهارحول الهيكل العظمي للملكة، وفي حفرة أخرى ذات مساحة كبيرة كانت توجد عشرات الهياكل العظمية لنساء يضعن أشرطة فضية على شعرهن، مرتدياتٍ معاطف ملونة؛ يبدو أنهنّ موسيقيات دُفنّ مع الملكة بعدما سممن أنفسهن بشكل طوعي أو تم تسميمهن.

هنا أيضاً اكتشفت أعمال فنية رائعة، مثل رؤوس ثيران من الذهب والفضة ولحى من اللازورد (هيئة إله القمر نان) أو البقرة المقدسة للإلهة نينغل، وأدوات تجميل نسائية، وقطعة خشبية للعب (تشبه النرد)، وقطعة

منقوشة من المعدن الثمين، وفي الدرج المؤدي إلى غرفة الدفن، اكتُشف عدد من الهياكل العظمية لمحاربين، كانوا يرتدون لباساً حربياً وخوذاً، بالإضافة إلى هياكل عظمية لنساء كنّ يحمين المدخل؛ كل هؤلاء الذين رافقوا "بو أبي" إلى الحياة السفلية لم يكونوا عبيداً قطّ؛ "لأن السومريين كانوا يعتقدون بالحياة الآخرة، لذا كانوا يبعثون مع الحكام أو الحاكمات، الناس الذين يجب أن يرافقوهم دائماً"، هكذا وصف دياكونوف هذا المدفن.

كان في انتظار الآثاريين أيضاً اكتشاف مبهر في مدفن ماسكالام دوغا. يقول ليونارد وولي: "كانت الجثة ممددة في وضعية عادية لنائم، وعلى الجنب الأيمن حزام واسع من الفضة معلق به خنجر من ذهب وعقد من اللازورد على حلقة من ذهب، وعلى مستوى البطن وُضع عدد كبير من الخرز المصنوع من الذهب واللازورد، وبين يدي الميت وجدنا كأساً من الذهب وبجانبها كأس أخرى ولكن أكبر حجماً، وعلى الكتف الأيمن وُضعت فأس ذات حدين، وكانت مصنوعةً من الذهب والفضة... كانت عظام الهيكل هشة لدرجة أنّه لم يبقَ منها شيء، وكانت على شكل رماد بني، وبواسطة هذا الرماد استطعنا معرفة الوضعية التي دفن بها الميت، وعلى هذه الخلفية، كان الذهب نظيفاً ولامعاً، حتى يخالُ المرء أنّه قد وضع للتو. وأكثر ما كان يلمع هو الخوذة الذهبية التي حافظت على الجمجمة؛ الخوذة المصنوعة من الذهب الخالص، على شكل باروكة، موضوعة على الرأس بحيث تحمي الرأس والوجنتين من خلال قطع زائدة كانت تغطي الوجه، وكانت توجد عليها آثار خصلات شعرالميت على شكل شرائط رفيعة... وآثار الخصلات المتبقية. وعلى الصفيحتين اللتيين تحميان الخدود والوجه يتضح لنا بأن الميت كان له سالفان. حتى إن لم يبقَ من الفن السومري أي شيء فإن هذه الخوذة تكفي لأن تضع الفن السومري القديم في مكانة مرموقة بين الشعوب المتحضرة". كما عُثرعلى إنائيين ذهبيين وعلى شمعدانات في هذا المدفن، وكان مكتوباً عليها هذه العبارة: "مسكالام دوغ، بطل البلاد المعطاءة". إن

ثراء المدفن منقطع النظير، واللقب الرفيع (بطل البلاد المعطاءة)، يجعلنا نعتقد أنّ مسكالام دوغ كان أميراً من السلالة الملكية، ولكنه لم يجلس على العرش الملكي.

إنّ أحد أهم اللقى الأثرية التي تم اكتشافها أثناء تنقيبات الجزء الملكي من المدينة هو "الشعار"، وهو عبارة قطعتين خشبيتين مستطيلتين طولهما ٥٥سم وعرضهما ٢٢,٥سم، عليهما رسومات على هيئة أشجار على خلفية زرقاء، أما أشكال الرسومات البشرية فكانت معقدة، وكذلك مناظر الحياة العادية في وقت السلم (عودة النبلاء)، والعمليات العسكرية (الملك على عربة حربية يجرها حماران، ومنظر الأسرى، وحروب الأعداء.... الخ).

يقول ي . تسيرون: عندما فتح ليونارد وولي المدافن الملكية في أور حاول مِراراً أن يفهم كيف كانت تتم مراحل دفن الموتى في الألف الثالث قبل الميلاد، وهكذا كانت تجري عملية الدفن، بحسب اعتقاده: "عندما يموت الملك أو الملكة، قبل كل شيء يجب أن تحفر حفرة مستطيلة بعمق حوالي ٩-١٠ أمتار، في إحدى جوانبها حفرة على شكل درج للنزول من خلاله إلى القبر أو المدفن، وفي زاوية من القبر يبنى مكان الميت؛ تابوت حجري محاط بشكل متين باللبن، وفي إحدى الجدران الطويلة يترك مدخل، وبعد أن تأتي الجموع، أو الموكب الجنائزي إلى القبر، ومعهم جثة الملك الميت، يأخذ بعض المقربيين من الملك مكانهم بجانب جثته في التابوت الحجري، ومن الواضح أن هؤلاء الناس كان يتم تسميمهم بنوع من السم، وبعد انتهاء طقوس الدفن، يتم إغلاق مدخل القبر(المدفن)، ليبدأ الجزء الثاني من الطقوس، وهي عملية دفن الحاشية؛ الخدم، مروضو الخيول، العربات، المحاربين، والنساء...الخ، وكانوا يتقدمون إلى الحفرة، وينزلون إلى داخلها، وهم مُطرِقون، ويضعون الأزهار على المتوفى، وكانت النساء يرتدينَ الثياب الحمراء الزاهية، ويتزينّ بالحليّ الثمينة. بينما كان قادة الجيش

يسيرون بإشاراتهم التي تميّزهم عن الآخرين، والموسيقيون بأدواتهم التي كانت تنقلها عربات تجرها الثيران، وفي النهاية يجلس كل واحد في المكان المخصص له بشكلٍ مسبق، وكان المرافقون والحراس يدخلون أخيراً، حيث ينهون مراسم الدفن، ويقفون لحراسة الباب من الجهة الداخلية للمدفن.

كانت توجد طاسة صغيرة، في أيدي جميع النساء والرجال، حيث كانوا ينهون بواسطتها طقسهم الجنائزي، وكان يجب على بعض الضحايا تنفيذ وظيفة معينة حتى اللحظة الأخيرة من حياتهم الدنيوية، وما نعرفه هو أن الموسيقيين كانوا يعزفون على آلاتهم حتى لحظات حياتهم الأخيرة، وكانت أياديهم تضغط بلهفةٍ على أوتار قيثاراتهم... وبعد مضيّ آلاف السنين، وعقِب فتح المدفن، عثر علماء الآثار في إحدى المدافن على آنية معدنية كبيرة في منتصف الحفرة، والظاهر أنها كانت لوضع السم فيها؛ حيث كانوا يتناولون المادة السامة معاً. وبعد ذلك يأخذ كل واحد مكانه المخصص في انتظار الموت، والانتقال إلى الحياة الأخرى مع الملك أو الملكة. فيما بعد تبدأ عملية ذبح القرابين من الحيوانات، وعملية وضع الآلات الموسيقية على أجساد الموسيقيين، وإهالة التراب من الأعلى على الأشخاص الذين كانوا يصارعون الموت حتى تمتلئ الحفرة بالتراب بشكل كامل.

في ضيافة الناصر:

إنّه صوت أحمد من جديد، إنّه يطلب منّا الاستعجال، لأنّ العاصفة بدأت تشتد، وأصبحت الرؤية صعبة بسبب الرمال والغبار، بعد عدة خطوات مسرعة، أصبحنا في أزقة المدينة القديمة أور، وفي أحيائها السكنية. كانت جدران البيوت الطينية ما تزال قائمة في الكثير من الأماكن، وكان يبلغ ارتفاعها حوالي المتر ونصف المتر، وكانت الشوارع طويلة ولكنها ضيقة جدّاً. كنت أمد يدي وأضع راحتيّ على جدران البيوت التي تقع على طرفي

الشارع، كان ذلك يمنحني شعوراً خيالياً؛ كأنك تخترق الزمن وتقف في المدينة القديمة آنذاك. هذا مدخل لبيت مطليٌّ باللون الأبيض، يليه الباب الذي يوجد في زاويته الحجر الدائري لتثبيت الباب الخشبي، ويأتي بعده حوش صغير. بين هذه الأنقاض والخرائب المتأثرة بالرياح والمطر، تشعر بأنفاس الحياة التي كانت هنا ذات يوم. ولكن اهتمامنا كان ينحصر أكثر بالأحياء السكنية لأور التي كانت تقع شرقيّ المنطقة المقدسة، لأنها تُعتبر المصدر شبه الوحيد لاستقاء المعلومات، واعتماداً عليها يمكننا أن نعرف طريقة بناء البيوت في مدن ميزوبوتاميا.

في الموسم التنقيبي ١٩٣٠-١٩٣١م قرر ل. وولي أن ينهي العمل في القبور ومدافن ملوك سلالة أور الثالثة لينتقل إلى أحد الأحياء السكنية للمدينة. في القطاع الذي اختاره وولي أُكتشفت البيوت العائدة إلى فترة لارسي وإسينا، التي سبقت إنهيار أور وسقوطها على يد الملك البابلي حمورابي في /١٧٨٠/ قبل الميلاد. كانت مساحة التنقيبات حوالي ٨٥٠٠م٢، ويعمل فيها ١٥٠ عاملاً، وهكذا حصلنا على معلومات كافية عن صفات وطريقة بناء البيوت في أور.

يقول ليونارد وولي: "تم بناء أور دون أي مخطط، فقد كانت الشوارع ضيقةً بين البيوت، وهي كانت حسب أهواء وإرادة أصحاب البيوت ومالكي الأرض. كانت الأحياء كبيرة وواسعة، والأبنية متلاصقة وقريبة من بعضها البعض، بحيث لايمكن الوصول إلى البيوت التي تقع في مركز الحي إلا عبر أزقة ضيقة مغلقة.

كانت البيوت السكنية متشابهة، وهي عبارة عن حوش داخلي متصل بشارع، عبر ممرٍّ محاط ببيوت سكنية، مع درج يؤدي إلى الطابق الثاني، وهذا هو النموذج العام للأبنية المختلفة الأحجام والأشكال، وبين البيوت السكنية توجد بعض الأبنية صغيرة الحجم، وبكل تأكيد هي عبارة عن

دكاكين، يتألف أصغرها من غرفتين؛ بدايتها مطلة على الشارع على شكل غرفة للبيع، وتتبعها غرفة طويلة على شكل مستودع، كما أنّ جدران جميع الأبنية مبنية من اللبن، وصنعت الأساسات من الآجر (اللبن المشوي)، بينما القسم العلوي من الجدار مبني من اللبن الطيني، والجدران مسيّعة بطبقة من الطين ومطلية باللون الأبيض.

لم تكن الشوارع معبدة ، لكنها كانت مفروشة بطبقة من الطين المدكوك، حيث تتحول في الطقس الماطر إلى طين يصعب المشي عليه، كما أنّ عرض الشارع لم يكن يسمح بمرور العربات، وكانت الحمولة تنتقل في المدينة بواسطة الحمالين أو الحمير. في الواقع كانت أور مدينة شرقية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. كما إن الصرف الصحي لم يكن يُصرف في الشارع، بل في قناة مخصصة بجانب الشارع، أمّا القمامة الناشفة، فكانت ترمى في الشارع بين أقدام المارة".

نقّب ل٠وولي عن حوالي خمسين منزلاً ودكاناً على جانبي ستة شوارع، كانت تعود لسكانٍ ذوي حالة مادية متواضعة (كتاب، تجار صغار... الخ)، وتم معرفة ذلك بواسطة الرقيمات الطينية التي كانت تتضمّن كتابات، والتي اكتشفت في كل بيت تقريباً ، وتم معرفة اسم ومهنة صاحب البيت ومصيره في بعض الحالات، بفضل اللوحات الطينية، كما اكتشفت هنا كتب الديون، ودفاتر مدرسية، ولكن كانت هنا مراسلات تجارية لشركاء أيضاً، كما في بيت الناصر على سبيل المثال؛ هذا البيت، مثل الكثير من البيوت الأخرى، كان يقع في نهاية زقاق، وكانت جدرانه الجانبية مشتركة مع بيوت الجيران، وكان متوسط الحجم، بحسب المقاييس الحديثة والقديمة أيضاً. وتقدّر مساحة الطابق الأول بنحو ١٤٠م٢ والطابق العلوي نحو ٩٠م٢، وكانت الفسحة الداخلية (الحوش) تتوسط خمس غرف.

بيّن علماء الآثار أنّ البيت كان أكبر في بداية الأمر، ولكن فيما بعد تم عزل غرفتين وضمهما إلى بيت الجيران، ويبدو أن الناصر لم يكن ناجحاً في الأعمال التجارية، لذا اضطر إلى بيع جزء من بيته للجيران. ويردُ ذكر اسم الناصر في ١٨ رقيماً، اكتشف أغلبها في بيته. وبحسب هذه النصوص، فإنّ الناصركان يعمل وسيطاً في تجارة المعدن، وأغلب النصوص كانت عبارة عن رسائل تجارية، وتطلب نقل كمية محددة من المعدن من مستودع فلان إلى مستودع فلان، وكانت بعض الرسائل عبارة عن نصوصٍ تجارية بحتة، وأخرى شديدة اللهجة، بسبب تأخّر تاجرنا الناصر، وبيعه سبائك ذات نوعية سيئة.

وكان أحد الأشخاص، ويُدعى "الثاني"، غاضباً جدّاً: "لقد قلت عندما أتيت، بأن "تيميل سين" سوف يأخذ سبائك جيدة؛ هذا كلامك، ولكنك خالفت قولك، أعطيت رسولي سبائك رديئة الصنع، وقلت له: إن شئت خذها وإن لم تشأ فلا تأخذها، من أكون أنا، حتى تُعاملني بهذا الاستعلاء؟ ألسنا نحن الإثنان من الأسياد ؟.."، ومع أنّ هذه المعلومات تعود إلى فترات أحدث نوعاً ما (بداية الألف الثاني قبل الميلاد)، إلّا أنها تتوافق بشكل كامل مع الحياة في أور، في فترة سيادة سلالة أور الثالثة.

في أعقاب الطوفان العالمي:

لقد حان وقت العودة، كنا قد حدّدنا البرج المدرج لزقورة أورنامو نقطة علّام، وكنا نراها بصعوبة من خلال الجو السديمي الذي أحدثته العاصفة الرملية. في طريق العوة اصطدمنا بحفرة ضخمة جداً، لا يقل عمقها عن عشرين متراً. "هذه ليست حفرة طبيعية، إنها حفريات ليوناردوولي التي وجد فيها آثار الطوفان المذكور في الإنجيل"، قالها زميلنا البروفيسور نيقولا ميربيرت الذي زار الموقع سابقاً، تسمّرنا في مكاننا بشكلٍ عفويّ. كيف

حدث ذلك؟ إن الذي أمامنا ليس من ألاعيب الطبيعة، إنه من صنع يد الإنسان؟ الحفريات تشبه وادياً عميقاً. لقد فهمنا الآن لمَ عمل ليوناردوولي مدة ١٢ موسماً، وأحرز لقب "سير" من قبل الملكة البريطانية.

في عام ١٩٢٧م في هذا المكان بالضبط، وعلى عمق عشرين متراً، تم العثور على طبقة من الطين المترسب بسماكة تبلغ ٢,٥ م، وفوق هذه الطبقة وتحتها، كانت توجد اللقى الأثرية بكثرة، أما طبقة الطين هذه فكانت خالية تماماً من أية لقى أو أي أثر للإنسان.

ونظراً لحجم وسماكة طبقة الطين فإنّ شيئاً واحداً فقط بإمكانه أن يبرهن على هذه الحقيقة العجيبة، ، وهي الفيضان أو الطوفان الذي كانت نتائجه كارثية. وهنا يذكر وولي قصة الطوفان المذكورة في الإنجيل: "انزاحت كل مصادر الكون العظيم، وانفتحت شبابيك السماء وانهمرت الأمطار على الأرض أربعين يوماً بلياليها، وأصبحت المياه على الأرض قوية ١٥٠ يوماً".

كان انهمار الأمطار الغزيرة في هذه الأرضي السهلية في جنوب بلاد الرافدين، يجلب معه دائماً خطر فيضان نهري دجلة والفرات، وغمر مساحات واسعة من الأراضي، ولكن هنا -كما يعتقد بعض العلماء- حدث شيء غريب، وهو هطول الأمطار على مدار شهر ونصف دون انقطاع، ويبدو أنها تزامنت مع هبوب الرياح الجنوبية القوية، والتي أخرجت قسماً من مياه الخليج الفارسي من شواطئها باتجاه الشمال.

كانت نتائج هذه الصدمة مرعبة، فقد بقيت أجزاء كبيرة من سهول جنوب بلاد الرافدين، مع مدنها وقراها تحت المياه لبعض الوقت. ألا يشهد كل هذا على آثار الطوفان الذي اكتشف في أور، وهو الذي ذُكر بالضبط في الإنجيل؟ نعم، التشابه كبير، لكن الطوفان جرى في أور مثلما أكّد العلماء في بداية الألف الرابع ق.م في فترة ثقافة عبيد. ومن دون شك إن الكارثة

الطبيعية كانت ضربة قاسية لمستوطنات العبيد في جنوب البلاد، ولكنها لم تكن مميتة، ومن جهة آخرى تتحدث ملحمة جلجامش السومرية أيضاً عن فيضان رهيب في نهاية الألف الرابع– بداية الألف الثالث قبل الميلاد، وتتشابه تفاصيلها مع الطوفان المذكور في الإنجيل. وجوهر القصة هو أن آلهة سومر قررت إنزال عقوبة عظيمة بالبشر(الطوفان العالمي) والقضاء على الجنس البشري، وقد تم إعلام رجل واحد فقط قبل الحدث، وهو اوتنابيشتم (زيورودرا)، والذي صنع سفينة بدوره ، وحمل فيها أمواله وأهل بيته، وبشكل مطابق لما حدث، تم وصف الطوفان في الملحمة:

- عندما لاح الصباح
- ظهر في الأفق البعيد، في كبد السماء غيم أسود
- أطلق الرعد وعيداً من خلالها
- شولات وحينيش يمشيان أمامه
- يمشيان على الجبال والسهول
- إيراغال يمزق الصواري
- تذهب نينورتا لفتح السدود
- الأنوناكي رفعوا المشاعل
- لكي تضيء بنورها كل الأرض
- قصف الرعد بلغ السموات
- انقلب النور ظلاماً
- الأرض انفطرت مثل آنية
- اليوم الأول تعصف الرياح الجنوبية– تهب بسرعة تغمر الجبال – كالحرب نزلت على الناس

- تهب الرياح ستة أيام وسبع ليالي
- الطوفان غمر الارض

ومثل نوح المذكور في الإنجيل، والذي نجى بسفينته، فإن السومري أوتنابيشتم يطلق الطيور بحثاً عن اليابسة، وأخيراً يأتي الغراب بخبر طيب، وتظهر الأرض، وتبدأ المياه بالانحسار.

قدم أوتنابيشتم القرابين والأضحية للآلهة العظام، وأصبح أبا الجنس البشري، وهكذا نرى بأن مجرى الأحداث يتوضح بشكل جلي. ففي بداية الألف الرابع قبل الميلاد عصف الطوفان بقبائل عبيد في جنوب بلاد الرافدين، محدثاً خراباً قلَّ نظيره، وتداول السكان المحليون قصة الطوفان بشكل شفهي، حتى تم تدوينها من قبل الكهنة السومريين في نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد. ومن خلال بابل وآشور وصلتنا هذه القصة بأشكال مختلفة، حتى الألف الأول قبل الميلاد، واعتماداً عليها ذُكرت هذه الأسطورة عن الطوفان العالمي في الإنجيل. نعم، التاريخ أيضاً لم يرمم أغلب المباني العظيمة والجميلة لأور القديمة، فقد اختفت نتيجة عوامل الجوّ أو بسبب الحروب، ولكن هذا القليل المتبقي منها، حتى يومنا هذا، كافٍ لمعرفة جمال وثراء حضارة سومر المندثرة.

الفصل السابع

بابل- بوابة الآله:

"إحدى عجائب الدنيا السبع"

طوال عملي في العراق، لم تسنح لي الفرصة لزيارة بابل؛ مدينة ميزوبوتاميا القديمة، ولكن تفاصيل الزيارة الأولى التي قمت بها في عام ١٩٧١م ما تزال ماثلةً أمامي، وكأنّ الزيارة كانت البارحة. هذه المدينة الضخمة والغنية بشكل يفوق الخيال- هي إحدى عجائب الدنيا القديمة السبع، ويأتي ذكر المدينة في الإنجيل عدة مرات، وفي أعمال عظماء الكتاب الإغريق، نظراً لروعتها وجمالها الآسر، وقد تحدّث عنها معاصروها على مدار عدّة قرون دون كللٍ أو ملل؛ بعضهم يتحدث عنها بانبهارٍ وتعجّب، وآخرون يتحدثون عنها بحقد وكراهية، وهنا ينبغي القول إنّ جميع هذه الآراء المتختلفة كانت تستند إلى جزءٍ من الحقيقة.

عندما زار هيردوت بابل في القرن الخامس قبل الميلاد، وهي فترة أفول مجدها وعظمتها، أكّد أنّ "بابل لم تكن مدينة كبيرة جداً وحسب ، وإنما كانت أجمل المدن على الإطلاق". ويذكر الشاعر اليوناني انتيباترسيدونسكي (القرن الأول والثاني قبل الميلاد) عجائب الدنيا السبع في أحدى قصائده:

بابل، رأيت جدرانك الواسعة

رأيتُ العربات، ورأيت زيوس في جبل الأوليمب

وأعجوبة الحدائق المعلقة في بابل، وعجلات غيليوس

والأهرامات ذلك العمل العظيم والشاق.....

إننا نعرف قصص وأساطير الإنجيل المتعلقة بهذه المدينة العجيبة، نعرفها منذ سنوات الدراسة في المدرسة والجامعة، فقد قرأنا عن بناء أبراج بابل، واللغات المختلفة، وعن غنى وثراء حكامها المنغمسين في الخطيئة والمجون. وليس من الصعب أن نلاحظ بأن كتبة الإنجيل لم يستلطفوا بابل، وأكثر من ذلك فهم يتذكرون الهجوم المدمر لملوك الخلديين على فلسطين، كما يتهجم الرسل الإنجيليون على المدينة المكروهة، ويتهمونها بجميع أنواع الذنوب المعقولة وغير المعقولة ويلعنونها.

ومثلاً، هكذا سوف يكون مصير بابل الرهيب، حسب نبوءة الرسول عيسى في العهد القديم؛ حيث يقول عيسى: "وبابل المملكة الجميلة وفخر الخلديين، نزل عليها غضب الله مثل سودوغومارا، لن يسكن فيها أحد أبداً، وجيلاً بعد جيل سوف تكون خالية من البشر، لن يضع البدوي خيمته، ولن يرتاح الرعيان مع قطعانهم هناك، ولكن سوف تعيش فيها وحوش الصحارى، وستسكن بيوتها بنات آوى والضباع، لتصدح بالعواء في شوارعها وفي بيوتها التي كان يملؤها المرح، وعمّا قريبٍ سوف تكون نهايتها".

على العكس من مدينة نينوى عاصمة الآشوريين، والتي كانت أيضاً ملعونة في الإنجيل، فإن بابل، ورغم تعرضها لكل أشكال المآسي والدمار والحروب، إلا أنها عاشت حتى القرون الأولى الميلادية، ولا يرتبط زوالها البطيء بأي شكل من الأشكال، بما جاء في الإنجيل من أحداث درامية وقاسية تنبّأت بمصير بابل، وسقوطها بشكل سريع.

قبل أن تغادر هذه المدينة العجوز والحكيمة مسرح التاريخ بشكل نهائي، تركت وراءها أجزاء كثيرة من حضارتها الغنية، بحيث أثّرت على جميع

الأجيال اللاحقة التي سكنت سهول جنوب بلاد الرافدين. كل شيء هنا يذكرك ببابل في كل خطوة تخطوها في العراق، فعندما كنا في بغداد- العاصمة، كان ثمة في أحد شوارعها (شارع سعدون) دار سينما اسمها بابل، وكانت الرسومات الموجودة على واجهاتها، عبارة عن مقاطع من الحياة في بابل القديمة، كما يوجد هنا أيضاً فندق باسم بابل.

في سوق بغداد القديم للحرف، نجد موضوعات التاريخ في الجزء المخصص لصناعة التحف المعدنية، وقد أصبحت عندهم شيئاً عادياً. هاهو الملك المشرع حمورابي يقف أمام إله الشمس (شمشيم)، وهي النسخة المنحوتة "ستيل سوز"، وهذه نسخة من بوابة عشتار، التي تدخل عبرها إلى بابل، وعلى ذلك الصحن المصنوع من المعدن الأحمر صورة الأسد البابلي المشهور...، ومن أي مكتبة في بغداد يمكنك شراء دليل مدينة بابل، الذي كُتب فيه بشكلٍ مفصّل عن أعمال التنقيب، والأبنية الأثرية، والأحداث التاريخية للمدينة، وصورها، ومخطط الأبنية.

نعم، الوصول إلى بابل سهل جداً في أيامنا هذه، وهو عبارة عن مسير حوالي ساعتين بالسيارة على طريق إسفلتي رائع، يتجه إلى جنوب العاصمة العراقية بغداد. وها نحن ذا مستقلين سيارتنا (الجيب واز) التي تسير بحذر مع قوافل السيارات الأخرى في سهول بلاد الرافدين المُجدبة، والمستوية مثل طاولة. كأن الجذور المتينة للحياة في هذه الأماكن تمتدّ إلى أيام السومريين؛ فعلى جانبي الطريق، نشاهد الحقول وقنوات الري وعدداً كبيراً من القرى الطينية، ونشاهد حميراً محمّلةً تسير، ونسوةً يهرعن إلى مكان ما؛ تغطيهنّ الثياب السود من الرأس حتى القدم، ويُسمع نباح الكلاب.

في القرى هناك الكثير من الدكاكين والمحلات التي تبيع المشروبات الباردة للمسافرين، وبجانب البيوت غالباً ما ترى أشجار النخيل. لم نشعر بالتعب بعد من الطريق. عندما وجدنا، على يميننا، لوحة مكتوب عليها

(بابل) وخلفها مساحة واسعة من الأشجار والخضرة والأبنية الحديثة، ركنّا سيارتنا في الموقف المخصص للسيارات، وتابعنا سيراً على الأقدام. لقد بنت السلطات العراقية في بابل متحفاً طبيعياً مفتوحاً، وعند المدخل توجد حديقة ظليلة، وهي المكان المفضل للاستراحة لدى السكان المحليين والبغداديين، ولولا وجود هذه الحديقة، فلا شيء يشعرك بأنك في محيط المدينة التاريخية العظيمة، حيث توجد فيها أشجار النخيل نفسها، والبيوت الصغيرة الطينية، وبحيرات صغيرة أو أحواض من الماء في الأراضي الطينية (أي غير المعبدة).

تقدمنا إلى الأمام، ولاح لنا، من بين الأشجار، برجا البوابة الرائعان؛ لمعان لونها الأزرق يعكس نور الشمس، ويبهر البصر؛ إنها بوابة الربة عشتار، الملبّسة بالموزاييك الأزرق الفاقع، وعليها رسومات ملونة لحيوانات مختلفة؛ حيوانات واقعية وأخرى خيالية (ثيران، وأسود، وتماسيح). في الماضي، من هنا بالضبط، كان يبدأ الدخول الاحتفالي إلى قلب المدينة، والجدير ذكره أن اسم المدينة "بابل" يعني بالأكادية بوابة الآلهة– بوابة الرب، ويعتقد بأن هذه التسمية تعود لزمنٍ أقدم من زمن بابل، وهي آتية من التسمية السومرية "كادينكير"، أي بوابة الآلهة.

يقترب النهار من منتصفه، الشمس الحارة تسلط أشعتها اللاهبة على رؤوس السواح الذين يتزايد عددهم بشكل عجيب (محليون ،عراقيون وأجانب). يقترب منا الدليل السياحي، ويدعونا للدخول بإشارةٍ من يده، وقفت عند الجدران الزرقاء لبوابة الرب عشتار، التي تبهر العيون من شدة لمعانها. أمعن النظر في الحيوانات المفترسة المنحوتة على الجدار؛ إن منظر الدراغون الخيالي هو الأكثر تأثيراً؛ له مخالب النسر، وذنب الأفعى، وجسمه مغطى بقوقعة من الحراشف الضخمة، ورأسه صغير مسطح وله قرنان، ومن بين أنيابه يخرج لسانٌ رفيع وطويل ومزدوج في نهايته.

لا شكّ إنّ البوابة رائعة، ولكن، بكلّ أسف، هي عبارة عن صورة مصغرة من البوابة الأصلية التي تم التنقيب عنها في بداية القرن الماضي، من قبل البعثة الألمانية التي نقلتها إلى برلين. في الجزء الداخلي من بوابة عشتار، بني متحف صغير لعرض النسخ غير الأصلية من تحف بابل، والمخططات والصور التي تتحدث عن آلاف السنين من تاريخ بلاد الرافدين، وتكمن مكانة بابل في هذا التاريخ، ويوجد أيضاً بعض القطع الأصلية، مثل الفخار، وبعض الدمى، وعدد من الرقم الطينية، التي اكتشفت أثناء التنقيبات في المدينة القديمة.

عند خروجنا واجتيازنا أحد المرتفعات، وجدنا شيئين مهمين؛ على بعد أمتارٍ أمامنا، وجدنا في الأسفل طريق المسيرات المشهورة، إنه الطريق الاحتفالي الرئيسي للمدينة القديمة، وهو عبارة عن شارع مرصوف بالألواح الحجرية الكبيرة، و قد تمّ وضع الآجرّ على جانبي أساساتها بواسطة الأسفلت اللاصق. يصل عرض الشارع إلى ٢٦م، ويحيط به من الجانبين جدران عالية من اللبن والأبراج، التي كانت فيما مضى ملبسةً أيضاً بالموازييك الأزرق، وعليها منحوتات للحيوانات، مثل بوابة عشتار، أما الآن تجد جدراناً من اللبن تظهر في أجزاء منه، ونادراً ما تجد بقايا بارزة لمنحوتات ثيران أحصنة ووحيد قرن. كان الهواء الساخن وكأنه يجلب أكياس من الغبار والرمل إلى هذه الحفر.

من جديد، نحثّ الخطى نحو الأعلى، باتجاه الساحة التي تطل على المدينة عند بوابة عشتار، وعلى يسار طريق المراسم المذكور آنفاً، وعلى مساحة حوالي ٥٤٠ ألف متر مربع ، تقع بقايا وأنقاض القصر الجنوبي القديم، ومجموعة فخمة من الأبنية المبنية من اللبن، وتحيط بها خمس فسحات مفتوحة. وجدنا أمامنا بقايا أساسات لجدران شبه ممحوة، مبنية من اللبن والطين، لكنها متماسكة بفضل أعمال الترميم. بعد هدوء وسكونٍ تام،

تبيّن لنا بأنه لا يوجد شيء يوحي بالمجد الزائل. "وهذه حدائق سميراميس المعلقة "، قالها الدليل فجأةً مشيراً بيده إلى مكان ما في الزاوية الشمالية الشرقية للقصر، وظهر لنا عدد من التلال الصغيرة العارية مع بقايا من الجدران؛ كان ذلك أشبه بسخريةٍ صِرفة.

حتى نحن الآثاريين المحترفين، الذين أمضينا حياتنا في المواقع والأطلال الأثرية، وبقايا الأبنية القديمة، تفاجأنا بذلك، فما بالك بالسائح العادي! ولكن مع الأسف قطع الواقع القاسي مجدداً أجنحة أحلامنا برؤية جزء صغير من ذلك المجد التليد لبابل، الذي كتب عنه المؤلفون القدماء. مازلنا نتقدم إلى الأمام في طريق المراسم ذاته، وشاهدنا على يميننا معبداً متوسط الحجم، مرمماً بشكل كلي، لربة نين- ماش مساحته (٥٢ ×٢٥ م٢)فقط، وحول الفسحة الداخلية تقع الأماكن المقدسة والمستودعات وسكن الكهنة، بشكلٍ دائري. كان المعبد جديداً، وكأنه قد تمّ بناؤه البارحة، وكان نظيفاً بشكل غريب ومطيّن بشكل جيد، بحيث لا توجد فيه بقعة يرتاح عليها البصر، وبالنظر إليه يصبح كل شيء واضحاً، وهو عبارة عن نسخة حديثة عن الأصل القديم.

كان الطريق الرئيسي إلى المدينة القديمة يؤدي بنا، في الوقت نفسه، إلى أطلال قصر نبوخذ نصر الثاني، الذي نقبت عنه بعثة روبرت كلدوي بشكل جزئي. هنا بالضبط، كان العاهل الرهيب لبابل يحتفظ بمجموعته الشهيرة من التحف التي جمعها من أصقاع إمبراطوريته، وقد وُضِعَ القسم الأكبر من هذه الخزينة، مثلها مثل جميع محتويات قصره والرقم الطينية، بعد التنقيبات، في متحف برلين. وفي حفرة قديمة، بين حطام وبقايا القصر، تم اكتشاف التمثال البابلي المشهور المصنوع من حجر البازلت، وللأسف، حتى هذا التمثال الموجود هنا، هو نسخة عن الأصل الموجود في لندن الآن.

ما يعدل مزاجنا السيّء بشكل عام، هو المسرح الإغريقي العائد إلى زمن الإسكندر المقدوني، و هو عبارة عن نسخة طبق الأصل، عن المسرح اليوناني في باليستر، وتتطابق الصفوف المنظمة لصحن المسرح، ومنصاته الرائعة، بشكل مدهش، مع خصائص العمارة الشرقية.

هنا ينتهي القسم المنقب عنه من بابل، تبدأ بعده، على امتداد عدة كيلومترات، المنطقة المحيطة بالسهول القاحلة، و تتضمّن قرى نادرة، وأشجار نخيل دائمة الخضرة. ومن العبث أن تبحث أبصارنا عن تلك العجائب والعظمة التي تحدث عنها المؤرخون الإغريق بشوقٍ كبير، أو تلك التي تحدث عنها مؤسسو الإنجيل دون أيّ إعجاب. الشيء الوحيد الذي تراه بكثرة هو التلال بأحجامها الكبيرة والصغيرة، وتنتشر فوقها قطع اللبن والكسر الفخارية للأواني القديمة، ووفقاً لما يقوله العالم والمستشرق الروسي م .ف .نيكولسكي فإن "هذه التلال هي مدافن الحضارة البابلية". وتحت كل تلة تقع بقايا قصر فاره، ومعابد جميلة، وسكن، ودكاكين ومحلات الحرفيين البابليين القدماء.

نعم، لقد قضى الزمن والحرائق والحروب وفيضانات الفرات على معظم أعمال وصناعات بابل الرائعة، ولكن يوجد لدينا ما يكفي لتشكيل تصوّر عن غِنى تاريخ وأحداث بابل، منذ بدايتها المظلمة وحتى الغزو العربي، ولذلك يجب فقط الانتباه إلى اكتشاف علماء الآثار، الذين ينقبون في المدينة منذ أكثر من مئة عام، والعدد الكبير من المراجع التاريخية من الحقب القديمة من الرقم الطينية لبلاد الرافدين، وحتى شواهد المؤلفين الإغريق والرومان.

روبرت كلدوي يفتتح بابل:

في نهاية عام ١٨٩٧م اقترح عدد من متاحف برلين على روبرت كولدوي أن يترأس بعثة للتنقيب في بابل القديمة، وقد وافق كولدوي، مقابل

شرطين اثنين؛ الأول، أن يعمل مدة لا تقل عن ٥ سنوات، والشرط الآخر هو أن يخصص للبعثة مبلغ نصف مليون مارك ذهبي، وكان مبلغاً ضخماً آنذاك. تمت الموافقة على الشرطين، وتوجه مجموعة من العلماء الألمان، برئاسة روبرت كولدوي إلى بابل، وبدأت التنقيبات في ربيع عام ١٨٩٩م، وحتى ذلك الحين كان العديد من الباحثيين الأوروبيين قد زاروا موقع المدينة القديمة، لأن موقعها كان معلوماً منذ القدم، وفي العصور الوسطى، لم يقلل العلماء الاهتمام ببابل يوماً، بفضل الإنجيل. في القرن السابع عشر زار الموقع، الرحالة الإيطالي بيترو ديلافالي لعدة أيام، ووصف التل العالي لبابل، وحسب وصفه، فإنّ معالم البرج المستطيل تظهر بوضوح، وعقِب ذلك، في القرن الثامن عشر، زار الموقع، الفرنسي أبات بوشان، الذي أخذ من الموقع اللبن البابلي وعدداً من الرقم الطينية.

كانت المحاولة الجادة لدراسة ووصف أنقاض بابل في بداية القرن التاسع عشر هي للإنكليزي ريتش، وفي الأعوام ١٨٥٢-١٨٥٤م قامت أيضاً بعثة أثرية فرنسية بزيارة الموقع، برئاسة فرينل وأوبرت، لكن كل هذه الأعمال كانت جزئية وغير مكتملة، وحدها البعثة الألمانية كانت تمتلك الكوادر والموارد المالية، لحل المسائل الصعبة في دراسة بابل.

كان أول ما لفت نظر كولدوي هو التلال الأربعة، بل الجبال المكونة من بقايا الأبنية والتراب في مركز المدينة القديمة، وقد سميت هذه التلال من قبل السكان المحليين بأسماء خاصة: جمجمة (وجدوا هنا، في وقتٍ سابق، ثلاثة آلاف رقيم طيني، وصلت في نهاية المطاف إلى المتحف البريطاني)، قصر بابل، وعمران بن علي. اختار كولدوي القصر كموقع ومكان رئيسي لتنقيباته، ولم يخب ظن كولدوي، حين كتب في الخامس من نيسان ١٨٩٩م إلى صديقه بوفشتين في برلين: "مضى على أعمال التنقيب أربعة عشر يوماً، وقد وفقت في الاختيار. هل تعلم أني اقترحت التنقيب في القصر

بسبب أشكال لبناته؟ و قد عثرنا عليها الآن. يتألّفُ القصر من برجين دائريين، والجهة الشمالية منه مزينة بأشكال طبيعية، وهي محاطة بجدران ضخمة؛ الجهة الخارجية للجدران ملبسة بآجر مشوي مثبت بواسطة الأسفلت، ومن الداخل فهي مملوءة بالرمل النهري. ويبلغ عرض تلبيسة الجدران حوالي ٧ أمتار، وعرض الجزء المملوء بالرمال، في الوقت الحاضر، حوالي ١٠ أمتار، وهكذا يصل عرض الجدار إلى حوالي ستة عشر متراً، وحتى الآن لم يتم اكتشاف شيء من هذا القبيل".

لا شكّ أن العلماء الألمان كانوا محظوظين؛ لأنهم اكتشفوا، في المحاولة الأولى تقريباً، الشارع الرئيسي للمدينة القديمة المرصوف بالحجارة، وإلى الآن توجد على بعضها كتابات عائدة للملك نبوخذ نصر الثاني، الذي حكم في القرن السادس قبل الميلاد.

كل النصوص تؤكد بوضوح أنّ طريق المراسم المشهورة ظهر مجدداً، وهو عبارة عن شارع المسيرات الاحتفالية التي كانت تقُام على شرف الإله مردوخ (سيد بابل المؤله)؛ كان اللبن منتشراً في كل مكان، وكان مطلياً باللون الأزرق، ومزيناً بأشكال الحيوانات العادية والأسطورية.

عانى الكثير من علماء الآثار من قسوة المناخ المحلي، ففي الأيام الحارة كانت درجة الحرارة تصل إلى ٥٠ درجة في الظل، وغالباً ما كانت تهب العواصف الرملية من الجنوب؛ من شبه الجزيرة العربية، لكن أعمال التنقيب كانت مستمرة بكل تصميم، وقد كتب كولدوي في تقريره في ١٩ تموز ١٩٠٠م إلى برلين: "أرجو عدم القلق على صحتنا، فنظام حياتنا مهيّأ على أفضل وجه لمقاومة الحرارة المحلية وظروفها المناخية. على أيّة حال لقد اتخذنا كلّ التدابيرالاحترازية، وإلى الآن ليس هناك ما يدعو للتوقف عن العمل". يتحمل العمال الحرارة بشكل جيد، ويعملون بمعدل إحدى عشرة ساعة في اليوم. ظروف العمل سيئة في تل عمران شتاءً؛ لأن أعمال التنقيب

تتم في خندق عميق كثير الغبار والأتربة، وكذلك صعود ونزول الناس يؤثر على إنجاز الأعمال، حينما تكون هذه الأعمال جارية في عمق كبير تحت أنقاض تل قصر بابل وعمران بن علي. كما اكتشف علماء الآثار أيضاً بوابة عشتار، وبقايا قصرين لنبوخذ نصر الثاني، وعدداً من المعابد، و أهمها إساغيل (معبد الأله مردوخ)، وأتميناكيس (برج كبير مدرج- زقورة). كانت النجاحات كبيرة، ومع أن الأعمال الصعبة المعقدة دامت ثماني عشرة سنة، إلا أنها كانت تستحق كل هذا العناء، فقد تم إخراج شواهد التاريخ القديم الرائع من تحت الأرض، الواحدة تلو الأخرى؛ كان الكثير منها مذكوراً في الإنجيل وفي أعمال المؤلفين الإغريق، ولكن كلما توسع علماء الآثار في أعمال التنقيب، تيّقنوا من حقيقة جليّة، وهي أنهم كانوا ينقبون فقط في بقايا وأنقاض مدينة نبوخذ نصر الثاني (المملكة البابلية الحديثة)، لا شكّ أنّهم كانوا يصادفون طبقات أقدم أثناء التنقيب، ومن ضمنها طبقات الألف الثاني قبل الميلاد (عصر حمورابي)، ولكن المياه الباطنية التي تظهر بشكل فجائي كانت تعيق عملهم، لذا كان علماء الآثار ينتقلون إلى مربعات آخرى.

أزمنة الاضطراب:

إذا أجرينا مقارنةً عامّة، نجد أنّ عصر المملكة البابلية الحديثة (القرن السابع- السادس قبل الميلاد) هو فترة أوج ازدهار بابل، على الرغم من قصرها، لكنها صفحة رائعة من تاريخ المدينة الطويل، وهي تظهر على الأقل في السويات الأثرية في بابل، والتي توجد فيها آثار النشاط البشري التي تصل إلى أكثر من ٢٠م ، ومع أن دراسة أغلب هذه الطبقات غير ممكنة، إلا أننا نعلم، اعتماداً على اللقى الأثرية المحددة والنصوص المكتوبة على الرقم الطينية، بأن تاريخ بابل استمر في التطور لأكثر من ألفي سنة دون انقطاع، وذلك "بفضل عدّة أجيال من علماء الآثار والمتخصصين

بالآشوريات، من مؤرخين وفقهاء لغويين، ممّن عملوا على فك رموز اللغة القديمة /ف.غ/"، كما تقول المختصة بالآشوريات إيفلين كلينغل برانوت، وتضيف "اليوم نستطيع أن ننهي رحلتنا في بابل القديمة، نحن مدينون لهم، فبفضل عملهم المضني أصبحنا نعرف حياة وطبائع الناس في تلك الحقبة القديمة". إذاً، هيّا بنا إلى هذه الرحلة الشيقة عبر آلاف السنين والتي سنبدأها من أقدم صفحات تاريخ بابل.

متى تأسست المدينة المشهورة ومَنْ أسسها؟ لا يعرف أحدٌ هذا الأمر، ولكن تمكنّا، من خلال النصوص القديمة، من معرفة أنه في عصر سرغون الأكادي (القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد)، كانت توجد مدينة صغيرة باسم "كاد ينغير" (والتي تعني باللغة السومرية بوابة الآلهة)، وكانت على مقربةٍ من مدينة كيش السومرية المعروفة، وكسائر المدن الأخرى في ذلك العصر، كان يحكمها كاد ينغير، الذي كان يتبع في البداية، لملوك السلالة الآكادية، ثم أصبح فيما بعد تابعاً لملوك سلالة أور الثالثة.

لم يكن ثمة أية علامات في الأفق، تشير إلى أن القدر يخبئ لهذه المدينة الصغيرة ذلك المستقبل العظيم، الذي سوف نعرفه فيما بعد. سرعانما حل الآكاديون محلّ السومريين، وتحول اسمها القديم "كاد ينغير" إلى اسم آخر، هو بابيلي أو بابيلو الذي يعني المعنى القديم ذاته "بوابة الآلهة". وفي حوالي ٢١٥٠ق.م أُحتلت المدينة من قبل قوات القبائل الأمورية، وقائدها سومو آبي، الذي أصبح مؤسس سلالة ملوك البابليين الأوائل. على أية حال، هذه بداية متواضعة جداً، لأن بابل لم تستطع قط، أن تنافس في تلك الفترة جيرانها العريقين سيبار، وكيش، ونيبور.

تغيرت الحالة السياسية كلياً بعد الغزو العيلامي لسومر، فقد قضت الحرب على مدن الممالك العظيمة، في حين أن البلدة الصغيرة غير الملحوظة، لم يتعرض لها أحد. لقد استفادت بابل من هذه الأحداث، فقد كان

إفلاس أخواتها من المدن الآخرى يصبّ في مصلحتها، حيث استغلّ الملوك الأموريون الصغار الأوضاع القائمة، وقاموا بضم أراضي تلك المدن التي أصبحت ضعيفة وعاجزة، مثل كيش، وكازاللو، وبازري، وبالتوازي مع ضمهم لكل هذه المدن، كانوا يبنون، في الوقت نفسه، عاصمتهم ويحصنونها.

حمورابي:

بدأ ازدهار بابل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، عندما حكم الملك السادس في السلالة البابلية؛ الملك المشرع حمورابي، وبدأت المدن المشهورة في جنوب بلاد الرافدين بالخضوع والاستسلام الواحدة تلو الأخرى؛ أور المُتباهية، وأوروك المقدسة، وأريدو القديمة، وسرعانما رضخت كلّ البلاد؛ بدءاً من آكاد وحتى الخليج الفارسي، لهذا الحاكم النشيط والشجاع. تقول النصوص العائدة لعصر حمورابي: "أنا حمورابي، الملك الذي لا يوجد له مثيل، إنليل الذي أهداني السلطة على ذوي الرؤوس السود، ومردوخ الذي أوصاني بحكمهم، أنا قمت بذلك... اعتنيت بهم وبحثت عن سعادتهم، وقضيت على الأعداء في الشمال والجنوب بسلاح عظيم وحكمة ، وأنهيت الخلافات، وحقّقتُ ازدهار البلاد، ووفرت الأمان للناس في كل مكان. الآلهة العظيمة دعتني، أنا الملك الراعي- السلطة لي- السلطة للقوانين، رحمتي وسلطتي سادت على مدينتي بسعة الصدر، اعتنيت وحكمت سومر وآكاد".

ولكن كان لبابل عدو آخر عظيم خارج البلاد؛ ملك عيلام الرهيب (دولة على أرض إيران الحالية)، فقد كان ريمسين يراقب نجاحات العاهل البابلي بقلق كبير، وكان يحشد قواه من أجل المعارك الحاسمة. وقد بدأ الصراع القاسي بين العظيمين- الدولتين القويتين في الشرق القديم في ذلك الوقت،

وانتهى بانتصار باهر لحمورابي. ويأتي ذكر ذلك في نصوصه المتعلقة بالانتصارات:

- حمورابي ملك، محارب عظيم
- هو ساحق أعدائه
- إنّه كالعاصفة في وقت المعركة
- لقد ألحق الذلّ والهوان ببلاد عدّوه
- وقضى على القوة المعادية
- لقد اجتاز كل العقبات
- والجبال التي يستحيلُ عبورها،
- مثل دمية طينية.

إلى جانب انتصاراته الباهرة، دخل حمورابي التاريخ كأعظم مشَرع في العصر القديم، فقد أعدّ وكتب بنود قوانينه بنفسه؛ القوانين التي تنظم المسائل الأساسية في حياة المجتمع البابلي، ولكي يقنع مواطنيه بقدسية قوانينه، أمر الملك بوضع تذكار من الحجر الأسود، منقوش عليه صورة حمورابي، وهو يصلّي أمام الإله شماش، الجالس على العرش. كان شماش هو إله الشمس عند البابلين، وهو في الوقت نفسه إلهٌ حقيقي وحاكم عادل، وتقدم الآلهة حزمةً من القوانيين للملك (حمورابي) لكي يعلنها لمواطنيه، وتحت المشهد المذكور، تم حفر كتابة بمناسبة هذا الحدث الاستثنائي، وجاء فيها:

"أنا الملك، الذي برز بين الحكام، المجد لحكمتي وفرادتي بأمور شماش، القاضي العظيم للسماء والأرض، يجب أن تسود العدالة على الأرض، بوصية سيدي مردوخ، يجب أن تبقى ذكراي مصونةً إلى الأبد، ويجب على كل الموجودين في البلاد أن يلتزموا بكلمة الحق التي كتبتها، يجب ألا يتغير

قانون الأرض الذي منحته، القرار الذي أتخذته هو يجب ألاّ يتمّ الاعتداء على ذكراي".

ومن سخرية القدر، أنّ الذين خلفوا حمورابي في السلطة، تعرضوا لهزيمة قاسية ونكراء، على يد الحكام العيلاميين، فقد تم احتلال بابل وتعرضت للنهب والسرقة، ولكي يعرض المنتصرون نصرهم الكامل على بابل، ويعطوه قيمةً خاصة، أخذوا معهم تذكار الأسد الثقيل إلى مدينة سوزي عاصمة عيلام؛ المكان الذي وجده علماء الآثار الفرنسيون في وقتنا الحاضر.

آشور وبابل:

بدأ الصراع الطويل بين بابل وآشور؛ القوة المتنامية بشكل سريع منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وقد كانت الحروب والصدامات الدائمة بين هاتين الدولتين، الموضوع الرئيس للنصوص المدونة على الرقم الطينية المحفوظة في أرشيف قصور ملوك آشور وبابل في تلك الحقبة، وكان البابليون يدخلون في اتحادات وتحالفات مؤقتة مع جميع أعداء آشور من قبائل وشعوب الشرق الأوسط، محاولين الانتصار على عددهم العظيم، مرة من خلال القوة، ومرة آخرى من خلال التحايل عليهم ، ولكن دون جدوى، فقد كان جيش التحالف يُمنى بالهزيمة، في كل مرة على يد أبناء آشور، في أرض المعركة.

ولكن حتى القرن السابع قبل الميلاد، لم تكن بابل، فعلياً، تحت سيطرة آشور، وكانت تعاني الأمرّين نتيجة ذلك، فقد تغيّرت الأوضاع بعد مضي عشرات السنين، وتعاظمت قوة وخطر القبائل الخلدية شبه البربرية، القادمة من السواحل الغربية للخليج الفارسي، التابعة للأراضي البابلية، ما دفع بابل إلى طلب المساعدة من أعداء الأمس- الآشوريين.

تم الاتحاد وحقق الجانبان مصالحهما، وأصبح ملوك الآشوريين ينتصرون بكل سهولة على الخلديين، وفي بابل نصّبوا والياً موالياً لهم، وجرت العادة أن يقوموا بتنصيب الإبن البكر للملك الآشوري، لكي لا يشعر البابليون المتكبرون بالإهانة؛ أي أنه كان شخصية مرموقةً ومؤثّرة.

ولكن كل ذلك ذهب أدراج الرياح في فترة حكم الملك سنحريب، الذي لم يكن يحب بابل، فقد عين على بابل، مكان ابنه وولي عهده، رجلاً آخر من آشور، يُدعى بيليبني (قال عنه سنحريب نفسه: "آخر كلب في قصري")، الذي أنزل أشد العقوبات بسكان المدينة، وقام بملاحقتهم، وقد حمل الناس السلاح هذه المرة، ودعوا جيوش الخلديين والعيلاميين لمؤازرتهم، ثمّ دخلوا في صراع منقطع النظير مع آشور.

وأخيراً، في عام ٦٨٩ق.م استشاط سنحريب غضباً، فاحتل بابل المتمردة، ودمرها دماراً رهيباً. وفي أحد نصوصه التي تتناول نصره على بابل، نجدهُ يتباهى، أمام الأجيال القادمة، بالقسوة التي قضى بها على بابل؛ إذ يقول فيها: "امتلأت ساحة المدينة الواسعة بجثثهم، وأجليتُ شوزوبو الملك البابلي مع عائلته والمقربين إليه، أحياء إلى بلادي، و قد قسّمتُ ثروة هذه المدينة وكلّ ممتلكاتها من فضة وذهب وأحجار كريمة بين شعبي... الآلهة التي كانت تعيش في المدينة حُطمت بيد جنودي، ودمرت المدينة وبيوتها ومعابد الآلهة عن بكرة أبيها، وكذلك أبراج المعابد المبنية من اللبن والطين. دمّرتُ كل ما كان موجوداً هنا، ورميته في قناة أرخاتو، وفي منتصف المدينة حفرت القنوات وملأتها بالمياه، وكان دماري كان أكثر رهبة من الطوفان. وكي لا يتذكر أحد في قادم الأيام، أين كان مكان هذه المدينة ومعابدها وآلهتها قمتُ بتدميرها بشكل كامل بالمياه، وحولتها إلي مستنقع". ولكي يمحى موقع ومكان بابل العظيم، أمر الملك الآشوري بإغراق بقايا

المدينة المتفحمة بمياه الفرات، هذا الأمر الرهيب والقاسي تم تنفيذه على الفور.

على مدى عشر سنوات، في مكان المدينة المزدهرة المكتظة بالسكان، كانت المياه، التي جعلها طمي النهر بنيّةً، تغمر آثار ومعالم الحياة السابقة، وتماثيل الآلهة الرئيسية لبابل، ومن ضمنها مردوخ الذي أخذه المنتصرون إلى آشور. ولكن سنحريب لم يحتفل طويلاً، فبعد عدة سنوات، أصبح ضحية مؤامرة في قصره، حيث سُلّط عليه قتلة مأجورون. كان ابنه اسرحدون (٦٨٠-٦٦٩ق.م) يشعر بالخجل من أعمال والده، فقرر أن يعيد بناء بابل بشكل كامل، و يعيد الحياة المزدهرة إليها على ضفاف الفرات الذي تم تجفيفه، وقد باشر العَبيد وجنود الملك الآشوري بناء المعابد السابقة والقصور والأسوار الدفاعية العالية، اعتماداً على المخططات، وعبّدوا الطرق والشوارع باللبن والأحجار، وخلال عدة سنوات نهضت بابل من العدم، وعاد إليها بقايا السكان الذين نفذوا بجلودهم من عقاب سنحريب، وأرسلوا إليها الناس من المناطق الآشورية الأخرى، وعاد الجسم المتضرر إلى الحياة بكل قوة وحيوية، ودخل الصراع السياسي والعلاقات التجارية والاقتصادية مع الدول العظمى للشرق القديم من جديد، ولم تمض بضعة عقودٍ حتى راود بابل، التي اغتنت بسرعة، الحنين إلى استقلالها عن نينوى (عاصمة آشور في ذلك الوقت)، وفي سنوات حكم آشور بانيبعل، قررت بابل أن تجرب حظّها مرة أخرى.

قاد الثورة شخص اسمه شماش- شوم- أوكين، وهو ابن اسرحدون ابن إحدى بنات الأرستقراطيين البابليين، والذي كان الملك الآشوري قد عيّنه في ذلك الوقت حاكماً على بابل. تصرف الثوار بشكل مخطط وبحيوية، ولم يعتمدوا على قوتهم الذاتية، لدحر القوات الآشورية الرهيبة؛ بل دعوا الجيش

العيلامي لمؤازرتهم، ولكن لم ينفعهم ذلك أيضاً، فقد هزمَ آشور بانيبعل العيلاميين والبابليين.

تحصن البابليون خلف أسوار مدينتهم القوية، متأملين أن ينجوا من تأثير العاهل الآشوري، ودام الحصار طويلاً، ولكن احتياطاتهم من المؤن والطعام نفدت، حيث حلّت المجاعة في بابل التي يبلغ عدد سكانها الآلاف، لدرجة حدوث حالات أكل لحم البشر، وشدَّد المحاصرون قبضتهم على المدينة بكل حزمٍ إلى أن سقطت المدينة، وكان الحكم على الثائرين سريعاً وقاسياً.

أُحرِقَ شماش- شوم- أوكين حياً، وطال القتل والإعدامات طبقة البابليين النبلاء والمواطنين العاديين على حدٍّ سواء، وأمّا من تبقّى من سكان بابل، فقد أصبحوا يرزحون تحت ثقل الضرائب والأتاوات الكبيرة، وسُلبت منهم حقوقهم وحريتهم. لم ينعم الآشوريون بالنصر طويلاً، فأيام نينوى باتت معدودة، فقد أخذ الملك الخلدي نبوبلاسر التاج البابلي، دون أيّ صراع يُذكر، وأسس السلالة البابلية الحديثة، ووجد لنفسه حليفاً قوياً لمواجهة الآشوريين؛ إنها الجحافل الميدية، ففي عام ٦١٢ق.م هاجمت الجيوش المتحدة والمتحالفة نينوى واحتلتها، وأنهت سيادة الأشوريين على الشرق الأوسط، ومع دمار عاصمة الآشوريين، غابت آشور إلى الأبد من أفق التاريخ العالمي.

- بكاء وعويل آشور مسموع في كل أرجاء العالم
- في معبد فال سقط معبودهم
- والشعب الذي لم يحارب بالسيف
- اضمحل وذاب، مثل الثلج أمام لمعان نور الخالق

بهذه الشاعرية، وصف الشاعر الإنكليزي العظيم جورج غوردن بايرون، النهاية الدراماتيكية لإحدى أعظم دول الشرق القديم.

* النهوض الأخير لبابل:

في سنوات حكم ابن نابوبلاسر، نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ -٥٦٣ق.م) كانت بابل في أوج ازدهارها، وضمت المملكة البابلية الحديثة، عدا عن بلاد الرافدين، كل مساحة سوريا الحالية، وفينيقيا وفلسطين، وكانت غنائم الحروب في كل هذه المساحة الشاسعة تأتي إلى العاصمة (بابل)، وكذلك الضرائب والأوتاوات المختلفة، وتوسعت المدينة بشكل ملحوظ وتطورت فيها جميع المهن والحرف، وكذلك التجارة.

بذل نبوبلاسر ونبوخذ نصر الثاني جهوداً جبارة، كما خصصوا موارد مالية كبيرة، من أجل إعادة بناء وترتيب عاصمتهم، بعد الدمار الذي تعرّضت له في عصر سنحريب وآشور بنيبعل، فأعادوا بناء الجدران وتنظيف قنوات الري وتعميقها، وتم بناء مجموعات المعابد والقصور من جديد.

كتب نبوخذ نصر الثاني بنفسه كيف أقيمت التحصينات الجبارة حول المدينة: "لكي لا يستطيع المهاجمون الاقتراب من إمغوربيل، أسوار بابل، قمتُ بما لم يقم به أي ملك آخر، فعلى بعد أربعة آلاف ذراع شرقي بابل، ولكي لا يستطيع الأعداء الاقتراب، بُنِيَ سورٌ دفاعي ضخم، وحُفِرَ خندق، وتمّ دعمهُ بواسطة الإسفلت واللبن، وعلى حافة الخندق بني جدار عظيم كأنه جبل، وفتحت فيه بوابات واسعة... لكي لا يستطيع الأعداء، الذين يحاولون إلحاق الضرر بنا، والوصول إلى أسوار بابل؛ طوقتها بالمياه، حتى يخال المرء أنّ البحر يحيط بها". تبلغ المساحة المحصنة حول المدينة حوالي ثمانية عشر كيلومتراً، وهي محاطة بأسوارٍ عالية ضخمة، مبنية من اللبن الطيني، يعلوها ٢٥٠ برجاً محصناً، ولها ثمانية بوابات ملبّسة بصفائح معدنية، وكل بوابة تحمل اسم أحد آلهة بابل الأساسيين، أدات- بيل

(مردوخ)، كيش، نينين، شماش، زمامي، وكانت بوابة عشتار المذكورة سابقاً، أكثرها فخامة وجمالاً.

يقسم نهر الفرات مدينة بابل إلى قسمين غير متساويين: القسم الأوّل يقع على الضفة اليسرى، ويضم المدينة القديمة الأكثر سكاناً، مع المجموعات المعمارية الرئيسية، أما الضفة اليمنى فكانت تضم الحقول الزراعية والبيوت الفقيرة بشوارعها الموحلة. ويصل بين ضفتي النهر جسور متينة وواسعة، مبنية من الخشب والحجارة، وفي المنتصف وضعت أعمدة من الخشب، كانت ترفع في الليل من مكانها لكي تستطيع السفن الكبيرة العبور، حتى تلك السفن ذات الأشرعة العالية جدّاً.

كان وصف بابل في كتابات المعاصرين لنبوخذ نصر الثاني دقيقاً جداً وشاملاً، بحيث بإمكانك أن تتصور، بسهولةٍ، المدينة القديمة في عصر ازدهارها بكل تفاصيلها، ويساعدنا كذلك كتاب إيفلين كلينغل براندت المذكور آنفاً، إذ تقول إيفلين: "بعد الأسوارالخارجية مباشرة، يشاهد القادم إلى المدينة بناية عالية وسط السهول، تقع على القاعدة المشيّدة من اللبن، بعلو ثمانية عشر متراً؛ إنه المقر الصيفي للملك".

اختار حاكم بابل موقعاً ممتازاً لقضاء فصل الصيف الحار قرب النهر، طلباً لجوٍّ بارد، حيث تفرد أشجار النخيل ظلالها على ضفة النهر، ما يضفي جوّاً لطيفاً على المكان. كان المكان بعيداً عن ضجيج المدينة وصخبها، وكانت المساحة الواسعة أمام الجدران المحيطة بالمدينة غير مسكونة تقريباً، وكانت تقطعها القنوات والطرق وحسب.

إن الذي يسير مع ضفاف النهر، يبطئ خطواته بشكل لا إرادي، كي يستمتع بالنظر إلى طريق المواكب الذي يظهر عالياً؛ وكي يتمتّع بمشاهدة الأسوار المسننة العالية على جانبي الطريق، تلك الأسوار الزرقاء التي عليها نقوش الحيوانات، والتي تمتد حتى بوابة المدينة، كما أنّ السائر سيتقدّم

بحذرٍ إلى هذا المكان المخصص لاحتفالات السنة الجديدة، ومسير الآلهة مع جموع الناس المرافقة لهم، وقد سمى نبوخذ نصر هذا الطريق بـ "أنبور- شابو: أي العدو لن يحقق النصر"، وزينه بشكل خاص وباعتناء. وهذا مفهوم، لإنه هنا في البداية، في كل سنة، كانت تقام احتفالات ضخمة، وكان لهذه الاحتفالات مكانة خاصة لدى سكان بابل. في يوم محدد، تسير تماثيل جميع الآلهة وربات المدينة، في مسيرة احتفالية، وكانت تحمل عبر هذا الطريق في غرفةٍ خاصة- اسمها "غرفة الأقدار"، وكانت الآلهة تنتظر قدوم الإله الرئيسي للبانثيون البابلي مع زوجته سريانيتوم، وكانوا يجلبونهما من المعبد الرئيسي في المدينة "إساغيل" في اليوم الثامن.

قبل الإرسال كان يتمّ تقديم ضحية رمزية، إذ كانوا يُحرقون، في صحن مملوء بالفحم المشتعل، النعجةً التي كانت ترمز إلى الوحش الدنيوي كينغو، وكان ذلك مصحوباً بإنشاد الكهنة أناشيدَ تمجد انتصار مردوخ على كينغ، ومن ثمّ يضعون تمثالي مردوخ وزوجته على حمالة ذهبية، ويسيرون بهما عبر طريق الموكب إلى غرفة الأقدار، وكان النشيدُ يرافق المسيرة:

- قم، اخرج، بيل، الملك ينتظرك!

- قومي، اخرجي، عزيزتنا ببليتا (يقصد سربانيتوم- ف .غ) الملك ينتظرك!

- تخرج بيل في بابل، فتركع البلاد أمامها

- تخرج سربانيتوم، فتزدهر النباتات العطرة

- حول عشتار البابلية، تصدح الموسيقا عالياً..

على عتبة غرفة القدر كان الملك يستقبل مردوخ بنفسه، وبحضور مردوخ، الذي بيده أقدار البشر، كان يتنبأ بمصير البلاد والشعب لسنة جديدة. وللأسف فإنّنا لا نعرف تفاصيل هذه اللحظة الدراماتيكية، لكن يبدو أنّ الكهنة الذين تلقّوا التنبؤات، في وقتٍ سابقٍ، من مردوخ، يتلون هذه

التنبؤات على الملك باسم مردوخ. وفي اليوم الحادي عشر، كان يتم إعادة تمثال مردوخ وسربانتيوم إلى معبد أساغيل، في مشهدٍ احتفاليّ.

على يسار طريق الموكب، كان يوجد ما يسمى بالقصر الجنوبي- المقر الرئيسي للملك نبوخذ نصر الثاني، وهو عبارة عن مجموعة ضخمة من الأبنية والعمارات، تحيط بخمسة فسحات داخلية، ويقع المدخل الرئيسي لقصر الأعراق في الجهة الشرقية لطريق الموكب، ولأجل الوصول إلى الفسحة الكبيرة الاولى، كان لا بدّ من اجتياز بوابة محمية، محاطة من الشمال والجنوب بأبنية كثيرة. هنا كانت الأبنية الخدمية لعدد كبير من الموظفين، وكان بعض الغرف في الجزء الجنوبي من القصر عبارة عن ورشات لتقطيع الأحجار على ما يبدو، وكانت الجِرار الجميلة المصنوعة من المرمر تستخدم بكثرة في القصر.

لكي تصل إلى الفسحة الثانية الوسطى، كان يجب اجتياز بوابة خاصة تقع على جانبها مستشاريات مختلفة، وهنا تصل معلومات من جميع أنحاء البلاد إلى الموظفين الكبار، ومن هنا كان يتمّ التحكم بالموارد المالية، والضرائب الواردة، ولا سيّما في الغرفة الكبيرة في الجزء الجنوبي، ويبدو أن الفسحة الوسطى كانت مقراً للموظفين الرئيسين، ومكان سُكناهم أيضاً.

في الفسحة الرئيسية الكبيرة، التي كان الوصول إليها يتم عبر البوابة الكبيرة الخاصة بالتشريفات، كانت توجد بناية عظيمة يعيش فيها الملك؛ كانت قاعة العرش في الجزء الجنوبي، وكانت أبعادها (٥٢*١٧م)، وكان لها ثلاثة مداخل من جهة الفسحة (الحوش)، ومقابل الفسحة الوسطى، في الجدران الخلفية للقاعة، كانت توجد منطقة مرتفعة، وكان الوصول إليها يتم بواسطة درج على الأغلب، وكانت عبارة عن مقر أو موضع عرش نبوخذ نصر، فهنا كان يجلس الملك أثناء المراسم الاحتفالية والأعياد الدينية.. وعند استقبال السفراء، واستلام الهدايا والعطايا منهم..

وفيما يتعلق بزينة القصور وغناها، يخبرنا نبوخذ نصر الثاني عنها قائلاً: "في بابل؛ المدينة التي اخترتها، والتي أحبها، بنيتُ قصراً، بيتاً أذهل الناس، ومتنت أوصال البلاد. القصر المذهل أصبح مقرّاً لمملكتي.... أمرت بقطع أشجار الصنوبرالضخمة، من أجل بناء سقفها، وجعلتُ الأبواب من خشب أشجار الصنوبر الملبّس بالمعدن، والعتبات ومقابض البوابات من البرونز، وجمعت بداخله الفضة والذهب والأحجار الكريمة، كما جمعت فيه كل ماهو رائع وعظيم، وكل الخيرات والممتلكات، والزينة الفخمة، وجعلته مستودعاً عظيماً للخزائن الملكية". لكن، لم يكن غنى القصر هو أهم ما فيه، وإنّما معجزته الخضراء؛ الحدائق المعلقة ذائعة الصيت. عندما اكتشف علماء الآثار، في الزاوية الشمالية الشرقية، من مجموعة القصور، بناية غريبة مؤلفة من أربع عشرة غرفة متصلة ببعضها، ومحاطة بجدران ذات عرضٍ غريب، التبس الأمرُ عليهم حينها؛ شيءٌ واحدٌ فقط كان واضحاً: إنّ هذه الإنشاءات المتينة والجدران الضخمة المدعومة، مخصصة من أجل أن تتحمل ثقلاً عظيماً جداً. بعدها وجدوا بئراً غريبةً ذات تصميمٍ بالغ التعقيد؛ إذ بالإمكان دفع المياه بشكل دائم إلى الأعلى. بفضل هاتين الحقيقتين على وجه التحديد، بالإضافة إلى الوصف غير الواضح والدقيق للكتّاب الإغريق، تمكّنا، في الوقت الراهن، من تحديد ذلك المكان الذي كان حدائق معلقة في يوم من الأيام.

حسب المعلومات التي توصلنا إليها، فإن نبوخذ نصر الثاني أمر ببناء هذه الحدائق من أجل زوجته المحبوبة أمائيتيس-الملكة الميدية، التي انتابها الحزن من المناخ الحار والقاحل لبلاد الرافدين، مقارنة مع مناخ بلادها الشمالي، حيثُ تمنحُ الجبال العالية والغابات الكثيفة، المسافر البرودة والجو اللطيف.

"كانت الحدائق، التي عدت من عجائب الدنيا السبع، تقع على برج مؤلف من أربعة طوابق، وبداخل كل طابق كانت توجد قناطر قوية من اللبن، مرتكزة على دعائم عالية ومتينة جداً، وكان البلاتفورم أي (المصطبات) عبارة عن صخور ضخمة جداً، وفوقها كانت توجد طبقة من القصب مغطاة بطبقة من الإسفلت، بعد ذلك يوجد صفان من اللبن مثبتان ببعضهما بوساطة الجبس، وفوق اللبن طبقة أو شريحة من الرصاص لمنع تسرّب الماء إلى الطوابق السفلى للحديقة، وفوق كل هذا كانت توضع طبقة سميكة من التربة الخصبة الصالحة لنمو جميع أنواع الأشجار.

كانت طوابق الحديقة فوق بعضها البعض بشكل متدرج، و يصل بين كل طابق وآخر درج عريض من البلاط الحجري المصقول، بلونٍ أبيض وزهري، وبأمر من الملك تم جلب النباتات والأشجار التي تحبها الملكة، وتذكرها بموطنها البعيد؛ كانت أشجار النخيل العظيمة والرائعة ترتفع فوق الأسوار الدفاعية للقصر، ولأجل سقاية هذه الحدائق الواقعة على هذه الجبال المصطنعة، كان مئات العبيد يديرون عجلة ضخمة طوال النهار؛ لرفع المياه إلى الأعلى بواسطة دلاءٍ مصنوعةٍ من الجلد.

كانت الحدائق باتجاه الشمال الغربي، وحينما كان الهواء البارد يهب ، كان عطرها وظلالها وبرودتها يُشعر سكان بابل بأنهم أمام معجزة غريبة ". هكذا وصفها نيخروت أ .أ، وشيشوفا ي .أ في كتابهما "عجائب الدنيا السبع للعالم القديم"، الذي اعتمدا فيه على كتابات المؤلفين الإغريق، ويجب هنا أن نضيف أنّ هذه الحدائق لا تمت بأي صلة لسميراميس الملكة التي عاشت قبل نبوخذ نصر بفترة طويلة.

يقع القصر الرئيسي أو القديم لملوك بابل في نهاية طريق الموكب، وكان يتميز بصفتين: أولاً التحصينات الضخمة، وثانياً احتوائه على مجموعة متحفية من اللقى النادرة من الفترات القديمة، وعلى الأغلب كانت هذه أقدم

تجميع للّقى الأثرية في العالم، وبذلك يصبح الملك البابلي نبوخذ نصرالثاني عالم الآثار الأول على كوكبنا.

تقول إيفلين كلينغل براندت: "لم تظهر هذه المجموعة (أي القطع النادرة -المترجم) هنا، بسبب اهتمام الملك بالفن، وإنّما لإظهار الفخامة والقوة، فقد كان الملك يتباهى بأن هذه القطع الثمينة والنادرة من مختلف بلدان آسيا الأمامية، أصبحت غنائم لبابل... أقدم القطع التي وجدت هنا في القصر، تعود إلى نحو ألفي سنة قبل نبوخذ نصر، وهي تعود إلى الملك السومري شولغي. وكان من ضمن المجموعة تمثالان من حجر الديوريت لحكام ماري، وقد دمرهما حمورابي في زمانه".

وهنا يجب التذكير، بشكل خاص، بأحد أهم معابد المدينة (إساغيل) ،المخصص للإله مردوخ؛ جاء وصف هذا المعبد في تاريخ هيردوت، الذي زار بابل في القرن الخامس قبل الميلاد؛ إذ يقول: "يوجد في الجزء المخصص لمجموعة المعابد في بابل.. معبد آخر يوجد فيه تمثال ضخم لزيوس مصنوع من الذهب (أي مردوخ-المؤلف)، وبجانبه طاولة من الذهب، ومنضدة صغيرة لأجل وضع القدم عليها. التاج أيضاً مصنوعٌ من الذهب، وبحسب الكلدانيين، فقد استخدم لصناعة هذه الأشياء ٨٠٠ تالينتوم من الذهب". (تالينتوم=٢٥-٣٧كغ، وحدة قياس وزن يونانية- المترجم).

قرب هذا المعبد الفخم المبني من اللبن، والذي يبدو شامخاً كجبل، كان يرتفع برج مدرج- زقورة ايتميناناكي؛ هذا الهرم المؤلف من سبعة طوابق أو شرائح اكتسب، بفضل العهد القديم، شهرة كبيرة، وأطلق عليها "زقورة بابل"؛ هكذا كانت تبدو هذه المعجزة الإنجيلية في نظر شخص من القرن الأول قبل الميلاد. في وسط هذا الجزء المخصص للمعابد المقدسة، يعلو برج هائل يبلغ طوله وعرضه واحد ستاديا (وحدة قياس يونانية تساوي ما يعادل ١٢٠ خطوة- المترجم)، على هذا البرج يوجد برج ثانٍ، وفوقه أيضاً

برجٌ آخر... وهو بشكل عام يتألف من ثمانية طوابق (في الواقع البرج يتألف من سبع طوابق-المؤلف)؛ برج فوق برج آخر.

يؤدي الدرج الخارجي إلى الأعلى ويلتفّ حول هذه الأبراج، وفي البرج الأخير يوجد مخدع رائع جداً ومرتّب، وبقربه طاولة من الذهب، لا توجد هنا أي معالم للألوهية أو ما يوحي بها، وأيضاً لا يبيت هنا أي شخص ليلاً سوى امرأة، وبحسب الكلدانيين، يختارها الإله مردوخ- /المؤلف/ لنفسه من بين جميع الجميلات المحليات".

كانت بيوت السكن تحيط بالمعابد والقصور، وكانت المدينة الضخمة تضجّ بالحياة. في بابل، وخلافاً للكثير من مدن الشرق القديم، كان المسافر يستطيع التجوال بكل سهولة. الشوارع طويلة ومستقيمة تقطع جميع المدينة، وتقسمها إلى أحياء مستطيلة. و كانت الشريحة الفقيرة من سكان المدينة تقطن بيوتاً بسيطة من الطين والقصب.

أما متوسطو الحال والتجار والأغنياء والحرفيون، فكانوا يعيشون في بيوت ثابتة مبنية من القرميد، مؤلفة من طابقين أو ثلاثة طوابق، وتصل أحياناً إلى أربعة طوابق. كانت بابل تعج بالبشر منذ الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من الليل، وكان عدد كبير من القوافل التجارية تدخل إلى المدينة وأخرى تخرج. وكانت الزوارق والبواخر تتوجه إلى أرصفة مينائها، وقرقعة المطارق تُسمعُ من محلات الحرفيين، و تعلو أصوات الباعة من داخل محالّهم، تدعو الزبائن إلى الشراء. في الليل فقط كان يحلّ الهدوء والسكينة، وكانت بوابات المدينة المعدنية تقفل بإحكام، ويأوي الناس إلى بيوتهم، وينتظرون هبوب النسمات التي تجلب معها البرودة من الفرات. في السماء كان السواد المخملي يشع بعددٍ ضخمٍ من النجوم في الحجرة الجنوبية، وحدها أصوات الحرّاس اليقظين ونباح الكلاب كانت تخترق، بين حينٍ وآخر، النوم المرهف للمدينة العظيمة.

*غروب بابل:

لكن في حقيقة الأمر، يبدو أن كل هذا الهدوء والثراء والازدهار لم يكن دائماً، فبعد وفاة نبوخذ نصر الثاني العجوز، بدأت أحداث دراماتيكية؛ إذ كان الملك الفارسي قير (كير/ قوروش) يطمع في بابل الثرية منذ زمن، في الوقت الذي بدأت فيه الصراعات الداخلية على السلطة بين مجموعات من الطبقة النبيلة، حيث اضطرّ الملك نابونيد للهرب من عاصمته مع جزء من جيشه، تاركاً زمام السلطة لابنه بالتبني (فلتسار). وفي عام ٥٣٩ق.م دخل قوروش مع جيش كبير إلى أراضي بابل، بعد أن انتصر بسهولةٍ في معركة حاسمة عند مدينة أوبيس، على الجيش الذي جمعه نابونيد على عجل، من المرتزقة من مختلف شرائح المجتمع، ولكن مدينة بابل كانت تمتلك تحصينات متينة وضخمة، وعدداً كبيراً من قطعات الجيش.

قرر فلتسار الاختباء خلف الأسوار العالية للعاصمة، ولكن لم يُكتب النجاح لهذه الأمنيات، ففي إحدى الليالي، غيّر قوروش مجرى الفرات من خلال حفر قناة خاصة، وعلى حين غرة، هاجم المدينة النائمة عبر مجرى النهر الجاف، وفي هذا الوقت كان الملك وأصحابه والمقربون منه في القصر، يتسامرون في حفلةٍ كبيرة باذخة، فقد كان فلتسار، الذي لم يكن يفكر في أي شيء من هذا القبيل، يتسامر مع ضيوفه الكثر، حينها هجم الفرس، ودخلوا المدينة المحصنة، وقضوا على مقاومة الجيش البابلي بسرعة. يصف جورج غوردن بايرن، هذه الأحداث الدراماتيكية لسقوط بابل، ضمن أبياتٍ شعرية، وذلك اعتماداً على نصوص العهد القديم:

مخموراً ومفعماً بالنشوة

يجلس الملك على العرش؛

العرش المهيب

يلمع ويضيء.
فجأة، وكما لم يحدث من قبل، ظهر الخوف على وجه الملك،
ولاحت الكآبة في عينيه
وهو يحدّق إلى الحائط.
يصمت صوت القيثارة
والخطب المرحة
والحفل غير المكتمل يرى (الرعب في العيون)
اليد النارية
بسبابتها العملاقة
على الجدار أمام الملك
نقش عبارة....
ماني، فيكل، فارس
هذه العبارة على الجدار
يعلنون
إرادة الله من السماء
ماني يعني ملك
انتهى حكمك
المدينة في يد الفرس
الخط الأوسط يعني:
فارس- ثالث- يقول:
سوف تُقتل الآن!

الأنهار- اختفت... مندهشة

الملك لا يصدق الحلم

لكن الغرفة محاصرة

و... إنه ميت على درعه!

(جورج غوردن بايرون)

مع سقوط بابل، انتهى عصر مهم من التاريخ، فقدت البلاد استقلالها بشكل كامل، واستولى عليها الغرباء؛ بعد الفرس جاء اليونانيون وبعدهم البارثيون، وأصبح نهر الفرات، في منطقة بابل، الحدود بين الشرق والغرب لفترةٍ من الزمن، حيث كان فرسان البارثيين يحققون انتصارات خاطفة على الجيش الروماني المدرب والمأجور من وقت لآخر. وفي عام ١١٥م احتل الامبراطور ترايان مدينة بابل فترةً من الزمن، وفي عام ١٩٩م أعاد ابنه سيبتيموس سيفيروس نجاحاته. وتجدر الإشارة إلى أنّه حتى ذلك الحين، كانت المدينة تترك في نفوس الزائرين انطباعاً بالقوة، ولكن أيامها كانت معدودة. فقد بدأ نجم بابل يأفل مع مرور الزمن، و بدأت تفقد أهميتها الاقتصادية والسياسية، واستمر احتضارها لعدة قرون، إلى أن انتهت أخيراً في القرن السابع الميلادي، في عصر الغزو العربي للبلاد.

انتهت رحلتنا الخيالية في بابل. أقف من جديد على الأحجار المحطمة لطريق المواكب. ليس من السهل أن نصدق بأن عمر هذا الطريق يبلغ نحو ٢٥٠٠ سنة. من الصعب أن نتخيل أحداثاً جرت قبل مائة أو مئتي عام، فما بالنا بها قبل آلاف السنين؟!

وعلى الرغم من ذلك، فإنّ قبل ألف سنة مضت، كانت تمشي، على هذه الأحجار، مواكب طقوسية باذخة جداً، وتسير العربات الذهبية لملوك بابل المنتصرين، وكانت الخوذ والرماح المعدنية للمحاربين البابليين تلمع تحت الشمس، ولكن هنا أيضاً سار المحتلون الكاشيون، والعيلاميون، والحثيون،

والآشوريون، والجيوش الفارسية، الذين أخذوا المواطنين أسرى معهم، وأخذوا غنائم عظيمة، وعلى الأغلب، فقد سار على هذا الطريق، الموكب الذي حمل التابوت المعدني الذي ضم جثمان الإسكندر المقدوني العظيم، الذي توفي في بابل سنة ٣٢٣ق.م.

" تغمرني سعادة كبيرة وأنا أنظر إلى عملي، لأنّ ما صنعته يداي سيبقى ماثلاً أمام الناس عبر الزمان"؛ هكذا كتب الملك البابلي نابو بلاصر على إحدى الرقيمات المخصصة للبناء. وأنا رضخت لهذا النداء مرة أخرى، ونظرت إلى الأطلال القليلة الباقية، التي بقيت في كلّ الأزمان على أرض بابل، وهرعتُ للالتحاق برفاقي.

الفصل الثامن

(المثلث الآشوري):

آشور،نمرود،نينوى

بلغتُ نهايتك، أيها المجد

وها أنا ذا أقف وحيداً، مفعماً بالعظمة؛

أنا قائد ملوك الأرض ملك - أسرحدون

ق . يا. بروسوف .

شعب آشور وطبيعتها:

في الأعمال العلمية الرصينة، وكذلك في الكتب الخاصة بتاريخ العراق، والموجهة للقارئ العادي، غالباً ما تسمى منطقة الموصل ثاني أكبر مدن العراق- المثلث الآشوري- وهذا صحيح. فعلى مرّ الزمان، كانت هذه المنطقة مركز الإمبراطورية الآشورية القوية، وهنا تعاقبت، بشكل متتالٍ، ثلاث عواصم للآشوريين؛ آشور، ونمرود، ونينوى.

إذا انطلقنا من مدينة الموصل، لوجدنا على الفور، على أطرافها وعلى ضفاف نهر دجلة، بقايا تحصينات مدينة نينوى القديمة، و على بعد ٣٠كم جنوبها، على طريق أربيل، تقع أطلال قلعة نمرود، وأخيراً بعد نحو ١٠٠كم إلى الجنوب الشرقي، قرب البلدة المعاصرة، تقع قلعة شرقاط. حتى

الآن يمكننا مشاهدة آثار وبقايا التحصينات العظيمة، الواقعة في منطقة صخرية عالية من مدينة آشور الرهيبة- العاصمة الأولى- ومعبودة الأشوريين. إن مشاهدة المدن الثلاث هذه، تمهد لنا التعرف على المراحل المهمة الثلاث في تاريخ شمال بلاد الرافدين؛ أي آشور .

في عام ٣٠٠٠ق.م على وجه التقريب، قدمت قبائل بدوية سامية إلى شمال بلاد الرافدين، وكانوا يسمون أنفسهم أبناء آشور؛ إلههم وحاميهم، ومن هنا جاءت تسمية كل الشعب- آشوريون (من آشور)، وبعد تحوّلهم خلال فترة قصيرة إلى حياة الاستقرار، أسسوا دولة صغيرة مركزها آشور، حيث كانت مقر ملكهم ومعبد إلههم القبلي، ولردحٍ من الزمن، لم يكن لهذا الإله شأنٌ بأيّة كارثةٍ أو ظاهرةٍ طبيعية، فقد كان في البداية راعي الصيد- المهنة المحببة لدى الآشوريين، وكانوا يرسمونه غالباً ومعه القوس والسهم. فيما بعد، ومع تعاظم دور الحرب والاحتلال، أصبح آشور إله الحرب، وفي بعض الأحيان- لا سيما في الفترات المتأخرة- كانوا يسمونه في الأناشيد إله الشمس، ولكن هذا ليس إلا تشبيهاً خارجياً بالإله البابلي مردوخ، ومع ذلك، وكما كان سائداً في القديم، كان حكام آشور ينسبون انتصاراتهم إلى رئيس البانثيون المحلي للإله آشور.

لم تكن حالة البدو، الذين استوطنوا المناطق المرتفعة من ضفاف نهر دجلة، مستقرة حتى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، فقد كانوا يخضعون دائماً لسلطة منافسيهم الأكثر قوة في الجنوب؛ سرغون الأكادي، ونارام سين، وحمورابي، وللحثيين المهاجمين من الغرب، ولكن ضربات القدر هذه، التي لم تتوقف على مدى قرون من الغزوات والحروب، كانت كفيلة بأن تصقل هؤلاء الرعاة، القساة بطبيعتهم، والصيادين والمزارعين في آشور، وتجعل منهم، في نهاية المطاف، أمهر وأحسن المقاتلين في الشرق القديم، كما لعبت الطبيعة المحلية دوراً لا يُستهانُ به، في تكوين شخصيتهم.

يقول سيتن لويد: "إلى الأعلى من مدينة تكريت، في السهول المحيطة بنهر دجلة ورافديه الشرقيين؛ الزاب الكبير والصغير، تهطل كميات كافية من الأمطار في فصل الشتاء ، للحصول على مواسم جيدة من القمح، دون اللجوء إلى الريّ، وفي الربيع يتجاوز طول الأعشاب والأزهار ركبة المرء، وتنمو الكرمة وأنواع كثيرة من الأشجار المثمرة بشكلٍ بعليّ، ويشكل السنديان والصفصاف والكثير من الأنواع الأخرى غابات كثيفة، وفي الوقت نفسه تتوفر أنواع كثيرة من أحجار البناء، وفي هذا الجزء من البلاد، تكون الأطعمة طبيعية في غالبها، على عكس جنوب البلاد؛ نظراً لأن ممارسة الزراعة لا تحتاج إلى تقنيات متطورة وجهد كبير، وترعى قطعان الغنم والماعز في سفوح الجبال، حيث الأعشاب الوفيرة، وهي نادراً ما تحتاج إلى مراعي في مناطق أخرى".

قديماً، كانت تكثر الحيوانات البرية، مثل الخنزير البري، والأيل، وغيرها من الحيوانات، في مرتفعات وسفوح الجبال الآشورية، ولم تستطع هجمات الأسود أن تقلص أعدادها، وفي بعض الأحيان كانت الأسود تهاجم الحيوانات الداجنة أيضاً.

ولهذا فقد كان الراعي الآشوري يقضي أغلب أوقاته برفقة قطعان الغنم والماعز بعيداً عن دياره، وكان يتعيّن عليه أن يكون صياداً ماهراً، وشخصاً قوي البنية، ومتمرساً لا يهاب الأخطار، ولكي يحافظ على قطيعه، كان يستطيع أن يدخل في صراع مع الأسد، ويقتل الخنزير البري والثور الوحشي، ويصيب بالسهم النسر الغافل، كمان كان بإمكانه صيد الأسماك الكبيرة من النهر، وكان ذلك عملاً عادياً جداً لدى كل آشوري. وهكذا نلاحظ كيف أنّ هذا الشعب صار يمتلك الصفات الضرورية اللازمة لخوض الحروب، مثل الإقدام والمعرفة، واجتياز المصاعب، والمهارة، والشجاعة، والقوة، الاحتراف في خوض الحرب، والتعامل مع السلاح.

لم يكن النبي الإنجيلي إيسايا يبالغ قطّ، في وصف جحافل الجيوش الآشورية، عندما وصفها، بشيء من الرعب والإعجاب المُضمر، قائلاً: "دعا يهوه الشعب من أطراف الأرض على عجل، وهو يتحرك بسرعة، فلا يوجد بينهم متعبٌ، ولا اتكالي، ولا يوجد بينهم من ينام، لا تُحلُّ أربطة ظهورهم، ولا تنقطع أربطة صنادلهم. سهامهم حادة، وأقواسهم مشدودة، وحوافر أحصنتهم مثل الصوان، وعجلات عرباتهم مثل العاصفة، وصراخهم مثل زئير اللبوة، وهم ينقضّون مثل الأسود الفتية على الضحية ويأخذونها، ولا أحد يستطيع النجاة منهم".

كان النهوض الأول لآشور في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، في سنوات حكم الملوك هدد نيراري الأول وتوكلتي نينورتا، وكانت آشور المركز الرئيسي ونقطة انطلاق عدوانها في هذه الفترة، وكانت تقع على الضفة الغربية لضفاف دجلة، على مقربةٍ من الحدود الشمالية لسهول بلاد الرافدين.

آشور – عاصمة الآشوريين الأولى:

على نهر دجلة، وعلى مسافة تبعد ١٠٠ كم عن الموصل باتجاه الأسفل، تقع قلعة شرقاط المهجورة؛ هنا توجد أحد أكثر المواقع الأثرية إغراءً لعلماء الآثار؛ إنها أطلال مدينة آشور، العاصمة القديمة للدولة الآشورية، وهذا المكان ليس مشهوراً بدوره المهم في تاريخ بلاد الرافدين وحسب، بل هنا عملياً كانت المدرسة الأولى لعلم الآثار الرافدي، فعلى الحواف الحادة والعالية لنهر دجلة، ولمدة أحد عشر عاماً؛ منذ ١٩٠٣م وحتى ١٩١٤م، أجرت البعثة الألمانية، برئاسة والتر آندري، أعمال التنقيب ، والتي عملت بشكل منهجي ومدروس، لأول مرة في تاريخ التنقيبات في بلاد الرافدين، وهي التي حددت مرحلة جديدة في تطور علم الآثار، والتي تمّ إثباتها بعد

التنقيبات، إذ كانت تقتصر على البحث عن الكنوز والخزائن قبل ذلك، كالتنقيبات التي قام بها كل من بوتا، وليارد، والرسام، وسارزيك، في القرن القبل الماضي.

كان آندري يرى بأن اللقى والقطع الأثرية والتحف، التي تكتشف أثناء التنقيبات بين أنقاض المدن والمباني القديمة، يجب أن توضع في قاعات المتاحف المكيفة، لكي يستمتع بها الزوار. وليس هذا هو الأهمّ هنا، فالأمر الأهمّ هو مراقبة مجد وتطور الحضارة بشكلٍ مباشرعلى الأرض، وكان آندري يدرك بأن أي حركة عشوائية أو غير منتبهة بالرفش، قد تؤدي إلى تخريب أي شيء مهم، ولهذا يجب القيام بأعمال التنقيب بانتباه وحذر شديدين.

تعلم آندري قراءة الآثار على الأرض، ولا يستطيع القيام بذلك إلا المختص، وكانت نتائج هذا العمل الشاق مثمرة لدرجة أن جميع البعثات العاملة في العراق تتبع هذه القوانين حتى يومنا هذا.

في الحقيقة لم يأت النجاح مباشرة، ومن دون تكلفة، وقبل كل شيء كانت الظروف الطبيعية، التي تخيف الإنسان الأوروبي أكثر (تجمع هائل للذباب في النهار والبعوض في الليل)، كانت تعكر صفو الحياة في هذه المنطقة القاحلة. يقول والتر آندري شاكياً: "من يريد العيش والعمل هنا يجب عليه أن يتسلح، على الفور، بالصبر وحب العمل"، ويضيف: "المرض، والعطش، والتعرق، ولسعات البعوض، والحمى، وأكثر من كلّ شيء الملاريا، والتهابات العيون، وكل هذه الأوبئة تجلبها الصحراء، ولا يستطيع علماء الآثار الهروب منها، فهنا في الصحراء، ثمة عزلة قاتلة، وعليهم القيام بواجبهم الأساسي، فقط عندما يتعوّدون على رتابة الصحراء، حيث لا يوجد لا نباتات ولا أشجار، حينها تفهم بشكل حقيقي ماذا يعني الفردوس على الأرض، ففي الصحراء يعرفون قيمة الخَضار، ويعرفون أيضاً الرياح

الحقيقية، وهبوب الرياح العاتية على الأراضي القاسية الموحلة، التي تحمل معها من الصحراء، غيوماً من الرمال الناعمة الحمراء؛ هذه الرياح الحارة والجافة والمشبعة بالغبار، تتسلل تحت الملابس، وبين الشعر والعيون وفي الأنف والفم، هي لا تجلب معها الأمراض وحسب؛ بل تجلب أيضاً العطش الأزلي"، ولكن الاكتشافات اليومية واستخراج اللقى والتحف من تحت سويات الموقع، كانت تُدخل الفرح إلى قلوب الباحثين.

اكتشف آندري جدران القصور المطلية باللون الأحمر الداكن، والمغطاة ببلاط من اليباستر، والتي توجد في زواياها خطوط بيض وسود متساوية، وعلى جدران غرف القصور، كانت توجد لوحات عليها رسومٌ لمخلوقات مجنحة برؤوس النسور وأخرى برؤوس البشر.

وبعدها اكتشفوا مجموعة من الغرف تحت الأرض، كانت سقوفها على شكل قبب؛ إنها مدافن ملوك الآشوريين، ولكنها كانت فارغة كلها؛ تمكنوا من جمع من مدفنٍ واحدٍ وحسب، من بين هذه المدافن؛ بقايا تابوت حجري، مصنوع من قطعة حجرية واحدة ضخمة، يبلغ طولها نحو أربعة أمتار وعرضها متران، ويبلغ وزن هذه الكتلة الضخمة، حوالي ثمانية عشر طناً، ومع ذلك، فقد استطاع أحدهم كسر هذا الصندوق العملاق!

وحسب رأي العلماء، فإنّهم صبوا النفط على التابوت، واشعلوا فيه النار، حتى وصل إلى درجة عالية من الحرارة والسخونة، ومن ثم صبوا عليه الماء، ونتيجة هذه العملية الذكية، التي جرت أمام الأعين تم فتح هذا التابوت، وبعد أن تم جمع قطع التابوت وترميمه، وجدوا قطعة كُتِب عليها: "قصر آشور نصربال، ملك الكون، ملك آشور، ابن هدد نيراري". ويبدو أنه قد تم نهب المدفن عند سقوط الدولة الآشورية في سنوات ٦١٤-٦١٢ق.م من قبل جحافل الميديين. لقد فجّر الناهبون التابوت الحجري، وأحرقوا

عظام الملك، أو رموها في نهر دجلة، وأخذوا المجوهرات التي كانت موجودة في المدفن.

في آشور، كما في بابل، كان لديهم معبدهم المدرج (زقورة)، وطريق المواكب، الذي كانت الجموع الخارجة من المعابد في عيد رأس السنة، تسير فيه حاملةً تماثيل الآلهة، وكانت تعيدها إلى أماكنها بعد بضعة أيام.

كان من أهم معابد المدينة، معبد الإله آشور والربة عشتار، وكان تمثال الإله آشور يقف على الضفة الصخرية العالية لنهردجلة؛ ما كان يؤمّن له حماية طبيعية، ولكنه منذ ذلك الزمن البعيد، أُحيط بجدران من اللبن بعلو ١٥م وبعرض حوالي ستة أمتار، وكانت أساسات الجدران مبنية على صخور ضخمة، وعلى الجدران من الخارج، وفي كل عشرين مترٍ، يوجد برج.

تبين أن العاصمة الأولى للآشوريين كانت مخدمة بشكل جيد، حيث كانت توجد شبكة مياه للشرب، وكذلك الصرف الصحي، وكانت توجد أحواض للاستحمام في كثير من البيوت.

وحسب انتصارات الملوك المحليين في المعارك، كانت الغنائم تأتي من البلدان المجاورة إلى المدينة، ما أدّى بدوره إلى تطوّر الصناعة ونموّ التجارة، وكان كل ملك يحاول أن يخلّد اسمه، من خلال بناء معابد رائعة ضخمة في أماكن محصنة، ذات شوارع مخدمة، وهكذا استمرت الحال حتى القرن التاسع قبل الميلاد.

نمرود – مدينة الثيران المجنحة:

وأخيراً، يُفضي بنا الشارع الإسفلتي إلى خارج الأحياء السكنية الضيقة؛ إلى أطراف الموصل، قرب تحصينات نينوى القديمة، وعلى الفور نتوجه جنوباً، بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر دجلة، ومن حولنا سهول مرتفعة

خصبة، وقرى طينية كثيرة، وقطعان غنم، وحقول قمح ذهبية، بدأت سنابله بالنضوج. شمس العراق التي لا ترحم، تبدأ بالارتفاع بكسل في السماء، ناشرةً نورها الساطع، حيث يخيم الهدوء على كل مكان. يصعب تصديق أنّه قبل ثلاثة آلاف سنة، كانت هذه البلاد قلب أمبراطورية محاربة عظيمة، وصلت من شواطئ البحر المتوسط إلى جبال عيلام، ومن أرمينيا إلى الخليج الفارسي.

كان سكانها مزارعين ورعاة، صقلهم صراعهم مع الطبيعة، وكانوا النواة الأساسية لجيش متوسط القوام، لكنه مدرب ومسلح بشكل جيد. وكان تحت إمرة الملوك المحليين، أشبه بعاصفة مدمرة هبت على كل الشرق الأوسط. نحنُ في الطريق نحو الجنوب، إلى نمرود التي تبعد أطلالها عن الموصل حوالي ٣٠كم، والتي تقع على المنحدرات العالية للضفة اليسرى لنهر دجلة؛ إنها إحدى العواصم الثلاث للدولة الآشورية.

في القرن التاسع قبل الميلاد، قرر الحاكم النشيط آشور نصربال الثاني نقل عاصمته من آشور القديمة إلى قرية صغيرة (كلاخ)، تقع عند التقاء نهر الزاب الكبير بنهر دجلة، وخلال عدّة أشهر، بنى آلافُ العمال العبيد، في مكان القرية المهجورة مدينة ضخمة مسوّرةً بأسوارٍ طينية عالية (مجموع طولها حوالي ٨كم)، وعددٍ كبيرٍ من الأبراج المسننة التي تبدو وكأنّها نابتةٌ من تحت الأرض. هنا القصور الرائعة والمعابد والزقورات، والدكاكين، ومهاجع الجيش، والمستودعات وورشات الحرفيين.

كان القصر الملكي الرائع، والزقورة، والمعابد الرئيسية، كان جميعهم يقع في منطقة مرتفعة نسبياً بشكل طبيعي واصطناعي في الزاوية الشمالية الغربية لجدران المدينة، وكانت تبدو وكأنها قلعة داخل قلعة. كان قصر آشور نصربال رائعاً حقاً؛ كان مصنوعاً، من الداخل، من أنواع من خشب الأشجار النادرة والمعدن والذهب والعاج، وكانت جدرانها مزينة برسومات

وقطع أحجار أفقية، عليها رسومات طبيعية وكتابات، وبفضل إحدى هذه الكتابات العائدة لسنة ٨٧٩ق .م عرفنا أنّ حفلة استمرت عدة أيام، أقيمت بمناسبة افتتاح القصر الجديد، شارك فيها ٦٩٥٧٤ شخصاً من "الناس المحظوظين من كل البلدان مع سكان كلاخ بفخر واعتزاز، لقد قدّمتُ لهم، أنا الملك الآشوري، الطعام والشراب وأكرمتهم عشرة أيام على التوالي، وبعد ذلك أرسلتهم إلى بلدانهم في سلام وسرور".

في ذلك الوقت أيضاً تم فتح قناة خاصة، باتي- خي- غالي (مجرى النعيم) أو (مجرى الخيرات)، من نهر الزاب الكبير إلى المدينة بشكلٍ مباشر، لكي يتم تحصينها أكثر، وكذلك لري السهول المحيطة. الإله الراعي والحامي لكلاخ- نمرود أصبح الإله المحارب نينورتا- وقام البناؤون، على عجل، ببناء معبد فخم له. كان السكان في بلاد الرافدين يبنون جدران القصور والمعابد من اللبن الطيني (نادراً ما كان من الآجر)، وكانوا يستخدمون الحجر في وضع أساسات البناء وتلبيس الجدران من الداخل وصناعة تماثيل الملوك والآلهة، وهكذا بالضبط، أتم آشور نصر بال الثاني العمل في نمرود، فقد جلب الأحجار من الجبال، وعلى الرغم من أنّ الحجارة كانت متوفرة عند ضفاف النهر، إلّا أنّ جميعها استخدمت في صناعة التماثيل وتزيين القصور ومداخلها.

حول هذا المجمّع من القصور والمعابد المسورة بالأسوار الطينية العالية والأبواب الحديدية، كانت تنتشر بكثرة منازل المواطنين، وتم تحويل كلاخ من قرية صغيرة إلى عاصمة مزدهرة، جذبت الناس من كل الأطياف الى المدينة التي اشتهرت بأسواقها، وكان التجار الغرباء والمحليون يتاجرون بسلعٍ متنوعة، ويشترون غنائم الحرب الآشورية.

تابع ابن ملك آشور نصربال الثاني، شلمانصر الثالث، تحصين وتزيين العاصمة، وبنى قصره الخاص على مقربةٍ من من القصر القديم، واستخدم

في بنائه جزءاً من مواد البناء والزخرفة المخصصة لقصر والده. وفي القرن الثامن- السابع ق.م تفقد نمرود دورها وأهميتها، لتنتقل عاصمة الدولة إلى نينوى التي تلقت الضربة القاضية على يد الميديين والبابليين عام ٦١٢ ق.م، هي وجميع مراكز الآشوريين الأساسية، وقد تم نهبها وحرقها بشكل كامل، وتحولت إلى أكوام من القمامة، وبقايا من لِبنٍ وتراب، وهكذا لم تعد الحياة إلى نمرود ثانية.

إن التلال الرمادية التي ليس لها شكل محدد، والتي تنمو عليها نباتات قليلة، تخبّئ تحتها بقايا مدينة كانت في يوم من الأيام عاصمة قديمة عظيمة. وبقيت الحال على ما هي عليه حتى القرن التاسع عشر. ففي الأعوام ١٨٤٥-١٨٥١م استطاع الرحالة والدبلوماسي الإنكليزي هنري ليارد أن يرى في هذه التلال نمرود ومجدها الغابر، وتابع الحفر حتى صادف جزءاً من القصر الرائع لآشور نصربال الثاني، ويُعتبر ليارد هو من عرّف الجمهور الأوربي المنبهر على خزائن الحضارة الآشورية القديمة، وكذلك استطاع أن يقدم اكتشافه المبهر إلى جمهور واسع من القراء، من خلال وصفٍ دقيق، وأسلوبٍ أدبي رائع، وفيما يلي جزء من وصفه لإحدى لحظات التنقيب: "في صباح أحد الأيام، شوهد بعض العمال العرب، يتجهون إلينا من موقع التنقيب، وهم يصرخون في اضطراب: "يا بيك استعجل، لا إله إلا الله ،محمد رسول الله ! لقد عثرنا على نمرود، نمرود بعينها، رأيناها بأم أعيننا". توجه الإنكليزي كالريح إلى الحفريات، وخلال لحظات وجد أمامه رأساً كبيراً من حجر الالباستر على جسم أسدٍ مجنح. يقول ليارد: "كان التمثال سليماً بشكل مدهش، وكانت ملامح الوجه هادئة، وتعبّر عن العظمة في الوقت نفسه، كانت الملامح مرسومة بحرية كاملةٍ وفهمٍ لقوانين الفن، ما يجعل تصديق عودته إلى تلك الحقبة البعيدة، أمراً صعباً".

وفي وقت لاحق، استطاع العلماء أن يؤكدوا بأن هذا التمثال هو أحد تماثيل الآلهة الآشورية الأربعة؛ مردوخ على شكل ثور مجنح، ونبو على شكل إنسان مجنح، ونرجال على شكل أسد مجنح، ونينورتا على شكل الإنسان النسر.

قضى ليارد ساعات طويلة من الدهشة والحيرة، وهو يتمعّن ويدرس التماثيل المصنوعة على هيئة حيوانات مفترسة، أثناء استخراجها من تحت الأرض. "ساعات كاملة كنت أتمعن في هذه الرموز المبهمة، وأفكر بعمقٍ في معانيها وتاريخها؛ ماهو أنبل شيء يختاره شعب من الشعوب لوضعه في معابد آلهتهم؟ ما هو الشيء الأكثر سمواً وتقديراً ليتم رسمه واستلهامه من الطبيعة؟ لقد حاول البشر أن يجدوا أجوبة على أسئلتهم عن الحكمة، والقوة، ووجود الخالق الأعلى في كلّ الأماكن".

ما الذي يمكن أن يمثّل هذا الذكاء وهذه المعرفة أكثر من الرأس البشري؟ ماذا يمكن أن يمثل القوة أكثر من جسم الأسد ويمثل الوصول إلى كل مكان أكثر من جناح الطيور؟ هذه التماثيل التي لها رأس إنسان وجسم أسد، لم تكن ثمرة صدفة عادية لخيال البشر، فهيئتهم الخارجية كانت توحي بما يجب أن يرمز لها؛ ألا وهي العبادة.

هذه الآلهة ترسخت في وعي الأجيال التي عاشت قبلها ثلاثة آلاف سنة، وحافظوا عليها من خلال تلك الممرات التي تربط الثقافات ببعضها، وقدم لهم الملوك والكهنة والمحاربون القرابين قبل أن تنتشر حكمة الشرق في اليونان، حيث أغنت الأساطير التي اعتمدت على الرموز والرسومات التي كانت معروفة من قبل الآشوريين منذ زمن بعيد.

قبل تأسيس المدينة الخالدة، كانت هذه الآلهة مدفونة في الأرض خمسة وعشرين قرناً، وكانت مختفية عن أنظار الناس، ولم يساور الشك أحداً في وجودها، وها هي ذي تظهر بكل عظمتها.

لكن كيف تغيَّر كل شيء حولهم؟ المعابد الرائعة والمدينة الثرية تحولت إلى أطلال، حيث من الصعب تحديد معالمها تحت الأكوام الترابية المنتشرة، التي لا شكل محدد لها. في هذه المساحات الواسعة التي كانت هذه التماثيل منصوبةً فيها في يوم من الأيام، تبدو الخطوط التي تركها المحراث كأنّها أمواجٌ من السراب.

ما تزال الأوابد والمنشآت الباقية في مصر، شهوداً بُكماً على قوّة وعظمة حكامها، ولكنها كانت ماثلة أمام عين الإنسان لمئات السنين، أما التي صادفتها هنا، والتي ظهرت نتيجة التنقيبات، فكأنها ظهرت لتقول وتؤكد كلمات الرسول: "كانت آشور، مثل شجر الأرز اللبناني، كثيفة الأوراق ومتفرعة الأغصان وشاهقة الارتفاع".

ولكن الرومانسية تبقى رومانسية، فلا يمكننا اعتبار طريقة عمل ليارد طريقةً علمية، من حيث القيام بالحفر واستخراج العشرات من التماثيل الحجرية من بين الأطلال والقصور، واستعجاله في تحميلها على الزوارق، وإرسالها إلى البصرة عبر نهر دجلة، ومن هناك إلى إنكلترا عبر السفن. هجرت التنقيبات نمرود، ومرة أخرى خيّم الصمت والنسيان على المدينة القديمة، ومن ثم ظهر المنقّبون مرة آخرى بعد ١٠٠ سنة تقريباً.

بدأت البعثة الإنكليزية برئاسة م . ملوان أعمال البحث الأثري في مركز المدينة القديمة في عام ١٩٤٩م ، وتم التنقيب الكامل عن قصر آشور نصربال الثاني، ووضع مخططه بكل دقة، وتبين أن القصر احتل مساحة ٢,٤ هكتار من الأرض، وللقصر ثلاثة أقسام: المباني الإدارية (عدد من الأبنية حول الفسحة الداخلية)، والجزء المخصص للمراسم، الذي يضمّ قاعة فخمة وغرفة العرش، وأخيراً جناح للسكن الذي يضم مقر إقامة الملكة والحريم، والمستودع وبيت الخلاء.

من بين اللقى الأثرية التي اعتبرها ملوان أكثر ندرة، مجموعة الصفائح المحززة والمذهبة المصنوعة من العاج، التي رُصّعَ بها الأثاث والأعمدة وجدران القصر الملكي. وكذلك نقّب الإنكليز عن جزءٍ من قصر الملك شلمانصر الثالث، حيث اكتشفوا بقايا مستودعات وأسلحة.

وفي وقتنا الراهن، تجري أعمال التنقيب والترميم في المدينة القديمة على قدم وساق، من قبل الآثاريين العراقيين، حيث تم ترميم جزء من قصر آشور نصربال الثاني، وتم اكتشاف الكثير من اللوحات الجدارية، والكتابات، وتماثيل الثيران المجنحة، والأسود المجنحة، وغرف الاستحمام ذات الشبكات المعقدة بهدف تأمين المياه.

إذا رغب أحدٌ ما بزيارة نمرود القديمة فإنه لن يرى الكثير من الأشياء، باستثناء الأساسات الدائرية العالية للزقورة عند الدخول إلى المدينة، وجزءاً صغيراً من الجدران الطينية، وأكواماً متناثرة من التراب، وبقايا البناء الذي جعلته أشعة الشمس اللاهبة أصفر اللون، ولعلّ الشيء الوحيد الذي يمنح المرء انطباعاً جميلاً، هو الجزء المرمّم من قصر آشور نصر بال الثاني.

وكما كانت هي الحال عليه في الماضي، فإنّ الضبع المجنّح (لاماسو)، وتماثيل الثيران، والأسود الحجرية المجنحة الضخمة ذات الأحجام الهائلة والمخيفة؛ كلّها ما تزال تحرسُ البوابة الرئيسية والممر الداخلي للمقرّ الملكي؛ إنها ضخمة لدرجة أنّ شخصاً متوسط القامة، عليه رفع يده عالياً حتى يستطيع ملامسة جذع هذه التماثيل، والغريب فيها هو أنها ليست بأربع قوائم ، بل بخمس قوائم، فقد صممها نحاتو ذلك العصر، بحيث تبدو للناظر إليها من أيّة جهةٍ أنّها ذات أربع قوائم. يقول م .ف نيكولسكي: "إذا نظرت إليه من الجانب، ترى هذا المخلوق يسير، وإذا نظرت إليه من الأمام تراه واقفاً".

رمِّمت الغرف المبنية من اللبن، لتغدو كما كانت عليه في السابق، ونظراً لبرودة الجوّ داخلها، فإنّنا لا نشعر بدرجات الحرارة العالية حينما نخرج منها. داخل القصر ثمة الكثير من الأشياء التي يمكن الاستمتاع بمشاهدتها، فتحت أشعة الشمس التي تدخل من بعض الثقوب الموجودة في السقف المبني من الألواح المعدنية، تشعر فجأةً أنّ الحياة عادت إلى تلك الملامح القاسية لتماثيل الملك والآلهة القديمة، وتلمع تلك الرسومات مثل قوس قزح، وترى الكثير من الرسومات على الأحجار؛ شعرٌ ولحىً ووجوهٌ وأيدٍ، ملوّنة بلونٍ أسودٍ ووردي.

المحيط هادئ وخالٍ، وما يمكن سماعه هو وقع أقدام بعض الزوّار وحركتهم وحسب، بالإضافة إلى خشخشة بعض النباتات اليابسة، عند هبوب الريّاح التي تكسر الهدوء، الذي خيم على المدينة الميتة منذ قرون.

نينوى؛ غروب الامبراطورية العظيمة:

في الصباح الباكر المشمس، يهب نسيم عليل من الشمال، من جهة الجبال البعيدة، أقف فوق أعلى تل كنجيك (قنجيك) وأنظر إلى اللوحة الرائعة الممتدة أمامي. الهواء في هذا الصباح الباكر نقي مثل الزجاج، وهذا ما يجعل الرؤية ممتازة. لست واقفاً على هضبة أو تلة طبيعية، وإنما أقف في الساحة العليا لقلعة العاصمة الآشورية السابقة لنينوى، وإذا التفتُّ إلى الخلف لرأيتَ البساتين والأراضي الزراعية، وشريطاً فضياً؛ هو نهر دجلة، وخلفه بيوت متناثرة بشكل عشوائي؛ أنها ضواحي مدينة الموصل، وفي أسفل التحصينات العالية لنينوى، يُشاهد شريط نهر صغير؛ إنه نهر خوسر، وفوق الضفة الطينية التي تجري فيها مياه بنية اللون، يظهر، بشكلٍ مباشرٍ، جسر بيتونيٌّ صلب، وفي شرق وجنوب شرقي النهر مباشرة، تقع أحياء المدينة المتنامية بشكل سريع، وإلى الأمام يساراً نرى حدود التحصينات

القديمة التي تحيط بنينوى، وتعزلها عن المنطقة المحيطة، وفي المنطقة الداخلية لهذه التحصينات؛ أي على مساحة المدينة القديمة لايوجد شيء سوى الأراضي الزراعية التي تغطي تلك التلال والأطلال بطبقة خضراء على شكل قبعات، وكذلك توجد هناك بيوت البعثة العراقية المقيمة بشكل دائم في نينوى، وتقوم بأعمال الترميم والصيانة، وقد تم ترميم الكثير من الأبراج بشكل رائع، وهذه الأبراج المرممة ترتفع برؤوسها فوق التحصينات الترابية المحيطة بالمدينة. كما رمم المرممون العراقيون من الجهة الجنوبية، الجهة الخارجية من الجدار الحجري، الذي كان يحيط بالعاصمة الآشورية، مثل الحلقة.

شاحناتٌ كبيرة قلّابة تفرغ قطع الأحجار الكبيرة على الأرض، بينما تقوم مجموعتان من شباب أقوياء ذوي شوارب، بقطع تلك الصخور الكبيرة ليصنعوا منها مربعاتٍ متساوية الأبعاد، و يقوم عمال آخرون بوضع تلك الاحجار المربعة في أساسات الجدران القديمة، التي اكتشفت حديثاً، نتيجة حفريات علماء الآثار، وقد بنيت الجدران بحسب الرسومات الآشورية على ارتفاع (٣-٤)م، وبشكل مستمرّ يحرص البناؤون على متابعة استقامة الجدران، من خلال استخدام مربعات صغيرة على شكل برج صغير.

لقد تم بناء عدة كيلومترات من التحصينات الحجرية، ولكن الجدران الداخلية لنينوى تترك لدى المشاهد انطباعاً أقوى، فهي مبنية من اللبن الطيني الذي بقيت منه أكوامٌ ضخمة إلى يومنا هذا، أما الجدران الجديدة فهي تبدو وكأنها للزينة (ديكور) لا أكثر. يبلغ مجموع طول جدار نينوى القديم حوالي ١٢كم، وتوجد في هذه الجدران خمسة عشر برجاً، وعادة ما تكون عند مداخل المدينة، وتم تسمية هذه البوابات بأسماء آلهة الآشوريين، مثل بوابة ماشكي- نرجال وآدو.

أمامي الآن، الأجزاء المكتشفة لعدد من أطلال قصور حكام نينوى، وفي الجنوب الغربي قصر سنحريب، والقصر الشرقي لسنحريب، وقصر آشور بنيبال، وقصر آشور نصربال... الخ.

على بعد ما يقارب كيلو مترٍ واحدٍ ونصف، باتجاه الجنوب الشرقي من القلعة، ثمة تل آخر عالٍ، تحيط به الأبنية الحديثة من كل اتجاه. هذا ضريح النبي يونس، المكان المقدس عند المسلمين وكذلك المسيحين، وهنا حسب المعلومات القديمة كان ضريح الرسول الإنجيلي يوحنا، وكنيسة مسيحية صغيرة بجانب الضريح. بنى المسلمون، فيما بعد، على هذه التلة مسجداً، إكراماً للنبي يوحنا (الذي يسميه المسلمون النبي يونس)، وبسبب قبته ومنارته، فالطريق مغلق أمام أعمال التنقيب في هذا التل.

وحسب المعلومات التي تم الحصول عليها بمشقة كبيرة في القرن التاسع عشر الميلادي، فإنّ قسماً من الخزينة والمجوهرات مدفونٌ بين أطلال قصر أسرحدون وسنحريب وملوك آشوريين آخرين.

حتى بدون تلك الترميمات التي تعطي انطباعاً قوياً لأي زائر إليها، فإنّ نينوى القديمة هي مدينة مميزة بآثارها الواضحة وتفاصيلها الداخلية (قلعة تل قونجيق، قلعة تل النبي يونس)، حيث تنتشر، بشكلٍ كثيف، كسر وأجزاء الأواني الفخارية والتماثيل على سطح التحصينات والحفر في جميع أنحاء الموقع.

ولا يحتاج تخيّل مدينة نينوى عندما كانت في أوج ازدهارها إلى مجهودٍ كبير؛ عندما كان ملوك الآشوريين ينفقون كلّ الغنائم التي اغتنموها من حروبهم في البلدان البعيدة، على تزيين وتطوير عاصمتهم الجديدة.

ورد ذكر نينوى في النصوص الطينية القديمة، منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد على شكل رمز (نينا-أ) أو (نينو-أ)، والتي تعني "القرية المحاطة بالأسماك"، فقد كان يسود الاعتقاد بأن الإله والراعي نينا كان إله صيد

السمك، وثمة اعتقادٌ بأنّ الكلمة الآشورية نون تعني السمك، وأنّ تسمية المدينة آتيةٌ منها. و يؤكد الكثير من العلماء أنّ قصة العهد القديم عن يوحنا (يوانا) في أحشاء الحوت، ما هي إلّا انعكاس للمعتقد الديني المتعلق بعبادة الإله نينا.

أيّاً كانت حقيقة تسمية المدينة، فإنّ ثمة شيء واضح وجلي، وهو أن هذا الإله كان موجوداً منذ المراحل المبكرة من حضارة بلاد الرافدين.

إنّ السبر الكبير الذي حفره ماكس مالوان عام ١٩٢٩م لمعرفة التسلسل الطبقي للسويات الأثرية للموقع، من الأعلى وحتى الأرض البكر، يُبيّن بأن الموقع الذي تم الاستيطان فيه يعود إلى فترات تتراوح بين الألف السادس (حسونة) ونهاية الألف الأول قبل الميلاد، أما فيما يتعلق بالمصادر الكتابية المتعلقة بنينوى، فإنّنا نرى بأن الملك البابلي المشرع حمورابي يأتي على ذكر معبد الإلهة عشتار، الذي انتشرت حوله منازل المدينة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ولكن عندما كانت آشور ونمرود عاصمتي الأمبراطورية الآشورية، تابعت نينوى الحياة في هدوء كبلدة صغيرة وفقيرة. وتعود فترة الازدهار الحقيقي لنينوى إلى فترة حكم سنحريب (٧٠٥-٦٨١ق.م) الذي اتخذ من المدينة مقرّاً دائماً له، وأعاد بناء المدينة وفق مخطّطٍ جديد، قبل كلّ شيء، وزيّنها بقصورٍ ومعابد جميلة، وحدائق متنوعة الأشجار والأزهار.

يقول سنحريب في أحد نصوصه:"نينوى قلعة نبيلة، وهي المدينة الأثيرة للربة عشتار. آباء الملوك الذين كانوا يحكمون آشور منذ القدم، وحكموا برعاية إنليل، كانوا يستلمون، عاماً تلو الآخر، الجزى والضرائب من الأمراء في كلّ أصقاع الأرض، ولم يفكر أحدهم بأنّ هذا القصر قد ضاق عليه... ولم يفكروا بتحسين منظر وهيئة المدينة من خلال إنشاء شوارع جديدة، وتوسيع الساحات، وشق القنوات، وزرع الحدائق والبساتين". إن الأبنية الضخمة الكثيرة التي بناها سنحريب في نينوى، هي علامةٌ على قوّة

شخصيته، فهو من أصدر الأوامر بإزالة بابل العظيمة عن وجه الأرض دون أي تردد، وها هو الآن يؤسس العاصمة الجديدة بكلّ صبرٍ واعتناء، ويحاول إظهارها بمظهرٍ عظيمٍ، يليقُ بالامبراطورية الآشورية العظيمة".

كانت المدينة محاطة بحلقتين من الأسوار؛ الخارجي مبني من الحجر، والداخلي من اللبن الطيني، وكان عرض السور المبني من اللبن يصل إلى عشرة أمتار، ويصل ارتفاعه إلى أربعة وعشرين متراً. وقد قالوا عنها بكل فخر: "هي التي تبثُّ الرعب والخوف في قلوب الأعداء". وحول الجدران حفروا قناة بعرض ٤٢م، حيثُ كانت تُملأ بالمياه من نهر خوسر. الشوارع الضيقة التي كانت سابقاً لا تتسع لحماريين محملين بالأمتعة، تمت تسويتها وتوسيعها، وتم رصفها بالحجارة، أما الشارع الرئيسي في المدينة فكان معبّداً بالإسفلت، ومزيناً بتماثيل الآلهة- الشارع الملكي- كان عرضه ٢٦م. (الشارع الملكي في نينوى أعرض من أوتستراد نيفا في ليتغراد- المؤلف).

قام الآشوريون بتحصين ضفاف نهر دجلة من خلال بناء سدود وتحصينات، لحماية المدينة الجديدة من الفيضانات الهائجة في الربيع، كما قام سنحريب بإنشاء الحدائق والبساتين على جانبي سور المدينة، وبسبب نفوره من مياه نهري دجلة وخوسر العكرة، وجد سنحريب في سفوح الجبال عدداً من الينابيع الصافية مثل الزجاج، ولكي يوصل مياه هذه الينابيع إلى المدينة، أمر الملك بإنشاء قناةٍ ضخمة من الحجر، يزيدُ طولها عن ثمانين كيلو متراً، حيثُ مدّها عبر الوديان والمنحدرات العميقة، وأوصل من خلالها المياه النظيفة إلى المدينة، لكن بلا أدنى شكّ، لقد أولى سنحريب، على غرار أسلافه في نمرود، بناء القصر الملكي اهتماماً أكبر، كما أمر بإزالة أطلال جميع القصور السابقة، لتشييد مجمّع قصورٍ رائعة تليقُ بعظمته ومجده. يقول سنحريب: " في يوم من الأشهر السعيدة، أنشأتُ، انطلاقاً من رغبةٍ

عميقةٍ في قلبي، قصراً من حجر الأليباستر والسنديان السوري... لقد شيدت وأنهيت بناء هذا القصر من الأساسات إلى السقف بنفسي".

يقع القصر على مساحة تقدر بحوالي ثلاث هكتارات، عدا عن غرف الخدم، وكان القصر يضمُّ أيضاً ثمانين غرفة، وقاعة استقبال. ويحرس مدخل القصر الملكي سبعة وعشرون زوجاً من الحيوانات المجنحة المخيفة، وكانت جدران مباني القصر مزينة بعدد هائل من القطع الحجرية، والمناظر الطبيعية، والكتابات. ورسم الحرفيون القدماء على الرخام الموصلي الرصاصي اللون الأحداث الهامة في حياة ملوك الآشوريين، والحملات العسكرية المظفرة على البلدان المجاورة، وصيد الأسود، والحفلات، ومقابلة الآلهة، وعملية نقل تمثال الثور المجنح الضخم المصنوع من حجارة الجبال إلى نينوى... الخ.

يقول غ . راولنسون: "إنّ الشيء المدهش والرائع في خصائص النقش والزخرفة في عصر سنحريب هو الواقعية اللامعة، فالجبال، والأحجار، والأشجار، والطرق، والأنهار، والبحيرات، مرسومةٌ بتفاصيل دقيقة في كل مكان؛ لقد رُسم الشكل الحقيقي للأماكن والحيوانات والطبيعة، كما أنّهم يحددون أنواع وأصناف الشجر، هذا بالإضافة إلى رسم الحدائق، والأفق، وتجدُ البحيرات والأشجار الصغيرة مرسومة بكل تفاصيلها، كما تجدُ الحيوانات البرية مثل الأيّل، والغزال، والخنزير البري، والطيور التي تطير من شجرة إلى أخرى، أو تمكثُ في أعشاشها مع فراخها، وتشاهدُ سمكاً يسبح في المياه، وصيادين يمارسون الصيد، وقرويين يروون حقولهم؛ كل لوحة مرسومة تبدو وكأنها صورةٌ فوتوغرافية تظهر فيها كلّ التفاصيل".

إن المواد التي زُيّنت بها الغرف الداخلية للقصر الملكي هي: الذهب، والفضة، والنحاس، والأباسترا، والعاج، والسنديان، والبلوط، والصفصاف. اللوحات مرسومة ومؤطرة باللون الأزرق والسماوي، والسقف ملون باللون

الأبيض الناشف، والستائر والشراشف معلقة بواسطة تعليقات من الفضة. وتحيطُ بالقصر الملكي الجميل، الذي تقع فوقه المساحة العليا للقلعة (تل قنجيق الحالية) حديقة ظليلة، من الأشجار المتنوعة والورود الجميلة، التي جُلبت من جميع الأصقاع الواقعة تحت سيطرة الآشوريين. بيوت المواطنين مبنية من الطين واللبن، وهي لا تتجاوز الطابقين، وكان أصحاب البيوت يهتمون، بشكل خاص، بحوض الحمام المقبب ذي القاع المطلي بالإسفلت، وبدلاً من الحفر الفنية كانت توجد قناة لتصريف المياه نحو قناة كبيرة تحت جسر.

كانت سطوح المنازل عادة، عبارة عن تزّاس أو مصطبة مدكوكة من التربة، ولتفادي قيظ الصيف، كان السكان يلجؤون إلى أقبية المنازل التي كانت ترش جدرانها بالمياه.

بقيت نينوى عاصمة آشور للملوك الذين جاؤوا بعد سنحريب، وازدهرت بشكل خاص في سنوات حكم حفيده آشور بانيبعل (٦٦٨-٦٢٦ق.م) الذي أعاد بناء الأسوار الدفاعية للمدينة، وحصّنها كما شيّد مجموعة جديدة من القصور في المنطقة المحصنة العالية قرب قصر جده. دخل آشور بانيبعل تاريخ بلاد الرافدين كشخصية متناقضة ومعقدة جداً، واشتهر، قبل كل شيء، في ساحات معاركه وحروبه الكثيرة، وقد وسع حدود إمبراطوريته حتى البحر المتوسط، وأرمينيا، والخليج الفارسي، وعندما انتفضت بابل المتمردة من جديد، فتحها آشوربانيبعل بعد حصار طويل، وقضى على سكانها بقسوة شديدة.

يقول آشور بانيبعل في إحدى نصوصه حول قضائه على بابل: "لم ينج مني أحد، لم أرحم أحداً، وقع الجميع بين يدي؛ الرجال الذين تآمروا ضدي وضد سيدي الإله آشور، قطعت لسانهم، ومن ثمّ قمتُ بقتلهم ...".

ربما هكذا كانت أخلاق تلك الفترة البعيدة، ولو كان آشور بانيبعل قد وقع في يد المنتفضين البابليين، لما نال جزاءً أقلّ مما نالوه على يديه، لكن على الرغم مما ذُكر أعلاه، فإنّنا نشتمّ رائحة شخصية سادية. ومن جهة آخرى، وبشهادة جميع معاصريه، فإن حاكم نينوى كان يعد الأكثر علماً وثقافة في ذلك الزمن، فقد كان يجيد ثلاث لغات، من ضمنها اللغة السومرية القديمة، وكان مطّلعاً على علم الفلك، كما أنّه درس الهندسة والتاريخ.

"أنا آشور بانيبعل، بلغتُ حكمة نابو، وفن جميع الكتبة، أتقنت جميع المهارات والمعارف التي يمتلكها الحرفيّون، وتعلمت القنص بالقوس، وركوب الخيل والعربة، والإمساك بالعنان... تعلمت مهنة الحكيم أدد، وتوصلت إلى اكتشاف سر فن الكتابة، ودرست عن بناء السماء والأرض، وأمعنتُ التفكير فيه، كنت أحضر اجتماعات الكتبة، والرسل الملكيين، وقد فسرت الظواهر الطبيعية مع العلماء الكهنة، وكنت أجري عمليات القسمة والضرب المعقدة والصعبة، وفي الوقت نفسه تعلمت ما ينبغي على السادة تعلّمه، وسرت في طريقي الملكي".

ويبدو أنه كان يمتلك موهبة شعرية أيضاً؛ إذ يؤكّد الباحثون أنّ القصيدة الرائعة عن القدر الحزين والموت الذي لا مفرّ منه، أنّها تعود لآشور بانيبعل الذي جعلت الحياة منه حكيماً:

- الرب والبشر، الأحياء والأموات، أحسنتُ إليهم

- لماذا المرض، الحزن، المصائب في البلاد؟ لماذا الحرب والانقسام داخل البيت؟

- الضبابية والحقد هي ما آراه دائماً لدى الناس

- المزاج العكر ومرض الجسد ينالان من هيئتي

- بين الآهات والزفرات أقضي أيامي

- في يوم إله مدينتي (آشور) في يوم الاحتفال، أنا حزين
- يجب أن ينال مني الموت وينتهي الأمر.

ولكن أكبر أمجاده هي تلك المكتبة التي أمر بتأسيسها من الرقيمات الطينية، والتي كانت مفتاح ثقافة آشور وبابل. و استخدم آشور بانيبعل سلطته المطلقة في إمبراطوريته، فقد أمر بنسخ كلّ النصوص القديمة وحفظها في أرشيف نينوى؛ بدءاً من السلالات السومرية الأولى (الألف الثالث قبل الميلاد)، لكن كيف فعل ذلك في الواقع؟ سأوضح لكم جانباً واحداً فقط:

عندما أرسل (آشور بانيبعل) موظفه شادافو إلى بابل أعطاه أوامر صارمة: "في اليوم الذي تستلم فيه هذه الرسالة، خذ معك شومو، وأخيه بل أتيرا، والفنانين من برسيبي الذين تعرفهم جيداً، واجمع كل الرقيمات المحفوظة في بيوتهم، والرقيمات الثمينة في معبد إزيدا...، والنسخ غير الموجودة في الدولة الآشورية، وآتني بها".

وهنا، لا نستغرب، إذا ما علمنا أنّ آلاف الرقم الطينية (الكتب الطينية) المشوية، والتي غدت قاسيةً الحجر، قد جُمعت بعد فترة وجيزة على رفوف المستودعات الملكية. وفي النتيجة تمكن آشور بانيبعل من تأسيس مكتبة فريدة في ذلك العصر القديم، وكانت تضم جميع علوم ومعارف تلك الأزمنة، والتعاليم دينية، والأناشيد، ونصوصاً طبية وفلسفية، وفلكية، ومسائل في الرياضيات، بالإضافة إلى الأوامر الملكية والمخطوطات، وجدول الضرائب، والأتاوات، كما كانت تضمُّ أعمالاً أدبية صِرفة، وقصصاً أسطورية وأغاني، ومن بينها الملحمة الآشورية المشهورة عن جلجامش؛ كل هذا الإرث الثقافي الذي لا يقدر بثمن بالنسبة للشرق، وقع في يد العلماء، بعد قيام ليارد بأعمال التنقيب في قصورملوك الآشوريين في تل قنجيق (كنجيك).

تعكس مياه دجلة الواسعة، الجدران الصفراء المهيبة لنينوى الخالدة كالجبال، والتي يعلوها الحصن الملكي، الذي كان ملك الجهات الأربع للعالم يُصدر منه أوامره الرهيبة إلى جميع أطراف دولته المترامية الأطراف، وكالسابق، كان يخضع لعظمة آشور كل الجيران البعيدين والقريبين منها.

كان آشور بانيبعل يحتجز أسراه من الملوك المتمردين في الأقفاص الحديدية عند البوابة الشرقية، خلف قصر سنحريب، وفي الصباح كان الأسرى يساقون إلى أسواق المدينة للبيع، حتى المساء؛ كان الأزواج يفترقون عن زوجاتهم إلى الأبد، و كذلك الآباء والأمهات عن أبنائهم.

وكان يبدو أن الأمور ستستمر على هذا النحو إلى الأبد، لكن أيام نينوى كانت معدودة. ففي عام ٦١٢ق .م تقدمت جحافل الجيوش الميدية مع البابليين إلى أسوار المدينة. واستطاع الملك الميدي كياكسار، قائد الجيشين المتحالفين، أن يخترق التحصينات الرهيبة للعاصمة الآشورية، بسرعة مذهلة، وتقدم المهاجمون نحو السور، وهدموا الأسوار الخارجية والداخلية بالآليات المخصصة لذلك، وتحت تأثير هذه الغنيمة العظمية، دخلت هذه القوات المدينة وبدأت القتل والنهب، أما الحاكم الآخير شني شاريشكون، فقد أضرم النار في قصره، وألقى بنفسه في لهيبها، كي لا يقع في يد المنتصرين.

يصف أحد الشهود على سقوط نينوى (يبدو أنه أحد الأسرى الآشوريين)، اللحظات الأخيرة من حياة المدينة العظيمة: "يا لحزنك أيتها المدينة الدامية! الجريمة والنهب، الفرسان ينهبونها، السيف يلمع... القتلى كثر، أكوامٌ من الجثث!.. نينوى مدمرة! من يأسف عليها؟ كل من يسمع عن مصيرك سوف يفرح؛ فما من أحدٍ سلم من شرورك".

كان حقد المنتصرين على المدينة عظيماً، ما جعلهم يدمرونها عن بِكرة أبيها. وهكذا لم يعد لنينوى وجود، ولم تنبعث من جديد حتى الآن. بعد

مرورسنوات كثيرة، عندما عاد من بقي من سكانها إلى أنقاضها المدمرة، التي غدت رماداً، لم يسكنوا هناك، بل بنوا مدينة جديدة في الجهة الأخرى من النهر، مقابل المدينة القديمة، وسموها ميسبل أو الموصل.

وهكذا تحققت نبؤة أحد رسل اليهود في ذلك الوقت؛ حيث تنبأ بدمار مدينة نينوى وقتل سكانها، بسبب غضب الرب، وهو الذي "سوف يمد يده إلى الشمال ويدمر آشور، ويجعل نينوى مهجورة وجافة، كأنها صحراء، وسوف تكون القطعان والطيور في مركزها وتحت أعمدتها، وستُسمعُ أصواتها من النوافذ، وستقبعُ العزلة والوحدة على عتبات البيوت... هذه المدينة السعيدة التي عاشت دون معاناة، أثبتت وجودها، هذه المدينة التي لا مثيل لها، سوف تصبح صحراء وملجأ للحيوانات! كل من مرّ بها سوف يلوح لها بيده ".

سقطت آشور، واختلط الآشوريون بالقبائل والشعوب الأخرى، واختفت لغتهم. في وقتنا الراهن، يوجد شعب صغير يسمونهم آيسوريين، يتكلمون بلغة آرامية محرفة جداً، ولا يتجاوز عددهم ٢٠٠ ألف شخص؛ بينهم ٢٢ ألف، وهم يعيشون في مناطق الاتحاد السوفيتي.

الفصل التاسع

الحضر- أبو هول الصحراء:

الانطباعات الأولى

ظهرت أمامنا، على نحوٍ مفاجئ، أشكال وهيئات الأبراج شبه المهدمة. للوهلة الأولى، بدت لنا كأنها سراب، فالسراب هنا في كل مكان، حيث ترى بحيرات وأنهار، وفي بعض الأحيان ترى بحراً كاملاً بمياهه الشفافة اللامعة، وهكذا تظهر هذه الأشياء وتختفي في جو الجزيرة الملتهب بفعل حرارة الشمس.

الطريق الممل والرتيب عبر الصحراء، لا يشعرنا بشيء سوى العطش والظمأ، ولكن هاهي الأبراج تقترب وتكاد تغطي نصف الأفق أمامنا، وأصبح واضحاً بأنّ الأمر ليس خدعةً من الطبيعة، بل إننا نقتربُ من وجهتنا المنشودة؛ إنها الحضر العجيبة؛ بنيت وسط السهول الجبلية الجافة، وكان تزيينُ بنائها متعلّقاً بمزاج المستبد الشرقي أو وفقاً لرؤية استراتيجية.

في مركز المدينة، نشاهدُ أساسات جدران المدينة الرهيبة بشكل واضح، ومن المفترض أن تكون المنطقة المقدسة، كما جرت العادة؛ فيها بقايا قصر عظيم، وقوس لبوابة ضخمة جداً، ويوجد بجوارها معبد الآلهة المحببة في الحضر، وأعمدة الفترة الإغريقية التي ترفع رؤوسها، حتى تبدو وكأنها قد

أفاقت للتوّ من نومها الأزلي تحت أشعة الشمس اللاهبة، وكأنّ لسان حالها يقول: ليس للزمن من سلطةٍ علينا.

لم يؤثّر في المدينة مضيُّ سبعة عشر قرناً، وذلك بفضل الرخام الموصلي وتربة حضر القاسية، فنحنُ نرى زخرفة ونحت فنانين قدامى بكلّ تفاصيلها، دون أن تتأثّر قيد أنملة، ونشاهدُ في قاعة القصر الكبيرة تمثال نسر السهول؛ النسر مضمومُ الجناحين، هو رمز المدينة الرسمي، ورمز العظمة والقوة، وكذلك تماثيل لرؤوس مخلوقات أسطورية تنظرُ ساهمةً إلى أفق الجزيرة؛ هل هي لبشر على هيئة آلهة ؟ أم للآلهة البشرية لسكان الأوليمب؟

رُسمت نباتاتٌ بريّةٌ وثمارٌ، كما صُنعت تماثيلٌ أحصنةٍ وأغنامٌ وثيران، بشكلٍ رائعٍ، حول الأقواس والمقنطرات الرومانية، لكن الحياة هجرت هذا المكان منذ زمن بعيد؛ أمامنا فقط شبح مدينة ميتة بلا سكان، وأطلال تجمدت منذ الصرخة الأخيرة، وغدت الأفاعي والزواحف والعقارب سكانها الوحيدين. على العكس من "أور" التي خبا نورها تدريجياً، ولم تعُد إلى الظهور، تُبرزُ الطبيعة، هنا في حضر، أطباعها القاسية.

لم تتهدم هذه الأسقف العالية بفعل رياح الخماسين، ولم تتحطم الأعمدة الرخامية إلى أجزاء صغيرة بسبب صاعقة برق مفاجئة. في جميع أجزاء المدينة نشاهدُ آثار الدمار الواضحة، فقد أُخِذت المدينة عنوة نتيجة حربٍ ما أغرقتها بدماء سكانها، وخنقتها بالنيران. لم يكتف المنتصرون بنهب ما في القصور الملكية ومستودعاتها والمعابد، وبيوت الأغنياء من التجار؛ لقد نُبِشت القبور القديمة وتم نهبها، كما خُرّبت جميع الشوارع والأزقة بشكل ممنهج. ولهذا، ليس من الغرابة أنّ البعثات الأثرية، التي قامت بأعمال التنقيب في حضر، على الرغم من بحثها الدقيق، لم تعثر على أيّة عملة ذهبية، أو أيّة مصنوعات فضية، مع العلم أنّ المدينة كانت غنيةً جداً.

تأسست المدينة في القرن الثاني- الأول قبل الميلاد على يد أسلاف العرب، وبنيت في مكان استراتيجي، وكانت تقريباً صلة الوصل التجارية الوحيدة بين شرق البحر المتوسط (سوريا ولبنان) وميزوبوتاميا، حيث كانت تصل إليها بعض أنواع البضائع الفريدة من أسواق الهند البعيدة.

عاشت وعملت شعوب وأديان مختلفة خلف جدران الحضر الحجرية جنباً إلى جنب؛ الإغريق أحفاد محاربي الإسكندر المقدوني، والإيرانيون، والبارثيون، والعرب والخلديين، ففي شوارع المدينة كانت تُسمع لغات ولهجات مختلفة، وكانت تقام الصلوات، وتُعبد الآلهة السومرية، والأكادية (نرجال)، واليونانية (غرميس وأثينا)، والآرامية (الربة أنارات) في معابدها الكثيرة، وكان إله الحضر، إله الشمس (شماش) فوق كل هذه الآلهة.

هنا في أعماق آسيا، بين المرتفعات القاحلة، تأسست مدينة شاملة (عالمية)، اجتمع على أرضها تأثير الثقافة الإغريقية والرومانية والغربية مع ثقافة الشرق الغنية ذات الأصول العريقة الممتدة إلى آلاف السنين، ويؤكد العالم المشهور ر. كيبلينغ بأن الغرب والشرق توحدا في الحضر بشكل متين عبر القرون، وتصادفك ثمار تفاعل هذه الحضارات الإستثنائية في كل خطوة.

قصر الحاكم هو ذو خصائص بارثية بامتياز؛ قاعتان طويلتان (الإيوان) مفتوحتان على الفسحة، وفي الوقت ذاته نجد أنّ البوابة هي عبارة عن قوس روماني، وإلى جوار الجدران الصماء للمعابد الشرقية، نشاهد أعمدة المعابد الهلنستية.

يحتفظ المتحف العراقي في بغداد بتمثال هرقل المكتشف في مدينة الحضر المصنوع من الرخام الأبيض الناصع، لكن الشيء الغريب هو أنّ لحية وشارب هرقل رسما على الطريقة البارثية، والعيون ملونة باللون الأسود، وفقاً لقواعد الفن السومري أو الآشوري. ومن جهة أخرى، فهي،

بحسب مزاج الحرفي القديم، منحوتة الإله الخلدي-الآشوري، بل وعليها ملابس قائد روماني بكل تفاصيله.

هنا سوف تبنى المدينة:

الحضر هو اسم ذو جذورٍ آرامية، ورد ذكره في الكتابات المكتشفة في المدينة نفسها، وكذلك في أعمال المؤرخين الرومان والعرب القدماء، كما كُتِبَ على العملة المحلية (الحضر مدينة الإله شماش)، ويبدو أنّ أسلاف العرب القادمين من الحجاز، حوالي القرن الثاني قبل الميلاد هم من أسسوا المدينة.

كشفت الكتابة التي اكتشفت في عام ١٩٦١م أنّ اسم حاكم الحضر هو "سانتروكة ملك العرب"، واسم والده هو ناصر الكاهن العظيم. وكما هي الحال في جميع المدن الواقعة شرق البحر المتوسط، كانت الحضر ورقة بيد اللاعبين الكبيرين في ذلك الوقت؛ الباراثيين والروم. لكن السؤال هو لماذا تم بناء الحضر بعيداً عن الأنهار والتجمعات السكانية الآخرى؟

لا شكّ أنّ مؤسسي المدينة اختاروا المكان لأسباب عسكرية وتجارية واقتصادية، لكن الدافع الأساسي للبنائين القدماء وراء بنائها هو وجود الماء على بعد أربعة كيلو مترات من المدينة، حيث يقع وادي الثرثار، كما أنّ عدداً من الآبار الطبيعية، والبحيرات ذات المياه العذبة، كان موجوداً في محيط المدينة نفسها، عدا عن أنّ سكّان المدينة كانوا يخزّنون مياه الأمطار في أحواض وصهاريج اصطناعية خاصة.

لم يبخل الباراثيون، الذين بُنيت مدينة الحضر تحت إشرافهم وحمايتهم، بشيء لجعلها مدينة محصنة؛ حيث بنوا الأسوار والأبراج حولها، وكانت المدينة، ذات المخطط الدائري، محاطة بجداريين، الجدار أو السور الخارجي بقطر ثمانية كيلو مترات، أما السور الداخلي فكان بطول ستة كيلو

مترات، وكانت المسافة بين الجدارين خمسمائة متر، عدا عن ذلك، فقد كانت المدينة محاطة بخندق عميق، وكانت توجد أربع بوابات في السور الداخلي، وكل باب يقع في أحد الاتجاهات (شرقي، غربي، شمالي، جنوبي).

في الحرب التي دامت مئة عام بين ملوك البارثيين والروم، لعبت الحضر دوراً رئيسياً، كونها كانت قاعدة الفرسان البارثيين في الهجوم على سوريا، وكانت أيضاً ملاذاً آمناً ضد هجمات الأعداء، وعلى مدار القرن الأول قبل الميلاد حاولت فيالق الأباطرة الروم أخذ مدينة الحضر مرتين ولكنها فشلت، وهذا ليس برهاناً على قوة الأسوار الحجرية للمدينة وشجاعة المدافعين عنها وحسب، وإنما هو برهانٌ على استخدام الحضرين أنواعاً من الأسلحة الحديثة ضد الأعداء، أيضاً. ويذكر الكتاب القدماء منها على سبيل المثال: النار الحضرية- السائل الحامي في الأواني الفخارية، والأداة الذكية التي كانت ترمي عدداً كبيراً من السهام في دفعة واحدة.

لقد أدى البارثيون العظماء الدور الكبير، وقدموا الدعم الدائم لهذه المدينة، وكان البارثيون يسيطرون على الجزء الأكبر من الشرق الأوسط. وحول هذا الأمر يقول الكاتب الإغريقي المشهور سترابون: " كانوا يملكون مساحة واسعة من الأرض وعدداً كبيراً من الشعوب، حيث أنهم استطاعوا منافسة ومقارعة الروم، من حيث حجم أملاكهم".

كل المؤرخين القدماء المشهوريين، على مشارف عصر الميلاد، كانوا مقسّمين بين دولتين عظيمتين هما: البارثية والرومانية، وكانت الساحة الرئيسية للأعمال العسكرية والمعارك بين الفرسان البارثيين والمشاة الرومانيين هي شمال غرب ميزوبوتاميا، ولا سيّما الجزيرة، وكان الصراع بينهم كرّاً وفرّاً، وفي عام ٥٣ قبل الميلاد، حطم البارثيون الجيش الروماني بقيادة مارك كراس، الذي انتصر يوماً ما على البطل سبارتاكوس، وفي هذه المعركة قتل القنصل نفسه، ونتيجة لذلك هاجم الرومان الأراضي البارثية

في ميزوبوتاميا عدة مرات، وتوغلوا فيها عميقاً، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتمركزوا فيها طويلاً.

كانت إحدى محاولات هجوم الروم الحازمة على الأراضي البارثية بقيادة الإمبراطور ترويان، وقد حقق الرومان في البداية انتصارات جيدة وتوغلوا عميقاً في بلاد الرافدين، ولكن مدينة الحضر، كانت حجرعثرة في طريق انتصارهم النهائي مرة أخرى، وبدون احتلالها لا يمكن الحديث عن الانتهاء المظفر لحملتهم العسكرية، ولكن رغم المحاولات اليائسة لجنود الروم المدربين، ومشاركة الإمبراطور العجوز شخصياً في الحملة، لم يستطيعوا فتح مدينة الحضر، وكان الهجوم الفاشل على القلعة يعني فشل الحملة بأكملها، لذا لم يبقَ لدى الإمبراطور ترويان سوى أن يأمر جميع قواته بالتراجع والخروج من بلاد النهرين.

تغير الوضع في القرن الثالث الميلادي، ففي الأفق الضبابي للشرق القديم، لمع نجم ساطع جديد؛ إنهم الساسانيون، ففي عام ٢٢٦م دمر أردشير الساساني جيوش أرتبان الخامس؛ آخر ملوك البارثيين، ودخل مدينة طيسفون منتصراً، وفي هذه اللحظات الدراماتيكية بدّل ملك الحضر سياسته التقليدية ووقف إلى جانب الروم، فدخلت قوات الروم المأجورة إلى مدينة الحضر، وحقق الحلفاءُ الجدد، نصراً ساحقاً على الإيرانيين القدماء، في معركة بقرب شهرزور، وقُتل على أرض المعركة عم الملك الساساني شابور الأول.

وعندما سمع شابور بالنبأ، قرر معاقبة المدينة العاصية، وظهر على الفور، الجيش الفارسي الضخم على أبواب الحضر. في الحقيقة كان لدى الناس أملٌ بأنّهم في مأمنٍ وراء الأسوار الحجرية لمدينتهم، لكنّ هذا الأمل تبدّد، بحسب الرواية، فقد سرّبت "النضيرة" ابنة الملك الحضري جميع أسرار التحصينات الدفاعية إلى الأعداء ، وتمكّن الفرس من احتلال المدينة

بسرعة، وبعد خروج جحافل الساسانيين منها، لم تعد الحياة أبداً إلى الأطلال التي التهمتها النيران. في عام ٣٦٣م مرّ المؤرخ الروماني أميان مرتسلين بالقرب من مدينة الحضر، وذكر أنه لم يشاهد سوى قطع الأحجار المتناثرة أثناء مروره.

أصبحت قصة الأميرة الخائنة، ابنة ملك الحضر عبرة؛ حيث يقول المؤرخ المسلم القزويني، الذي عاش بعد سقوط الحضر بقرون عديدة، في وصف تلك الأحداث الدراماتيكية: "صعدت النضيرة ابنة الملك إلى السطح، وشاهدت شابور، فوقعت في حبه، وأرسلت إليه رسولاً ليقول له على لسانها مالذي ستحصل عليه فيما لو أخبرته طريقة أخذ المدينة، فجاوبها شابور: آخذك لنفسي وتكونين فوق جميع النساء".

عندها أفشت النصيرة سرّ أسوار مدينة الحضر لشابور، الذي عمل بما أخبرته النصيرة، فانهارت الأسوار ودخل شابور المدينة، حيث قتل عشرة آلاف شخصاً، ومن بينهم الملك الضيزن".

ثمة عبرةٌ في خاتمة هذه القصة، فقد تزوج شابور من الخائنة، وأقام حفل زفافٍ ضخمٍ وباذخٍ، ولكن في صباح اليوم التالي، أمر بأن يأخذوا زوجته إلى أعلى بناية في المدينة، حيثُ قال للنصيرة "لقد قلت لك بأنني سوف تكونين فوق جميع النساء، وكما ترين؛ ها أنذا أفي بوعدي"، وصفق بيديه مشيراً للحراس بأن يقتلوا النصيرة.

علماء الآثار في الحضر:

بدأت أعمال التنقيب عام ١٩٥١م من قبل المديرية العامة للآثار في العراق، مع وضع خطة طويلة المدى، لأعمال البحث الأثري والترميم. في الحقيقة، لقد زار علماء آثار ألمان الموقع عدّة مراتٍ، قبيل الحرب العالمية الأولى، وفي مقدمّتهم والتر أندري، والتقطوا صوراً للموقع، ووصفوا الآثار

الظاهرة على سطح الأرض، كما وضعوا مخططاً عاماً للمدينة القديمة. ومن جهتهم اكتشف علماء الآثار العراقيون أثني عشر معبداً صغيراً، وكانت هذه المعابد تحتوي على عدد كبير من التماثيل الحجرية، وأدوات طقوسية وكتابات. كانت الكتابة الآرامية هي الكتابة المستخدمة في الحضر بشكل أساسي، وكانت توجد كتابات لاتينية أيضاً. ففي المعبد رقم (١) على سبيل المثال، كان يوجد تمثال لإله الشمس اسمه كوانتو بيتروني كوينتيان-القاضي العسكري الأول للجيش البارثي، وهذا الجيش تم تشكيله من قبل سبتيميوس سيفروس عام ١٩٧ميلادي، ومن بين اللقى الأثرية المهمة، تماثيل الآلهة المحلية والعربية، كذلك آشور بيل، وأتارات، ونرجال، وألات، وابولون، وبوسيديونا، وإيروس، وهرميس. وقد نُحت آشور بيل على هيئة رجل ملتح بالبزة العسكرية الرومانية.

في المعبد رقم (٦) اكتشف تمثال لإله حامٍ باسم بادا، وهو مجسّم منحوت بشكل بارز لثلاث نساء جالسات على ظهر أسد، وفي المنتصف يوجد شخص آخر يرجّح أنّها الإلهة العربية اللات (بملامح الإلهة الإغريقية أثينا)، وتمثال سوماي (آنية الأميرة دوشغاري)، والأميرة ذاتها، ابنة الملك الحضري سنتروكا الثاني، و تمثال كاهن يُدعى مراتيب وآخرون... الخ.

كذلك تم اكتشاف أجسام من البرونز؛ رأس رجل روماني مسن، ورأس إله الخمر والمرح الإغريقي (دينيس) وعليه إكليل من ورق العنب. والنموذج الرائع للنحت البارثي الكلاسيكي في القرن الثاني الميلادي هو رأس الحاكم المحلي ملك الحضر سنتروكا الثاني، المصنوع من الرخام الموصلي الرصاصي اللون، ذي الذقن المحلوقة بشكل جيد، وخصلات الشعر الجميلة التي تحيط بوجه الملك الوسيم.

يقول أ. غ. غيراسيموف: "إن رسومات الصور الخاصة بالملوك والطبقة النبيلة في الحضر، بقبعاتهم ذات الرؤوس الحادة والمصنوعة من الوبر،

والبناطيل الواسعة، لها ميزة خاصة، وهي اليد اليمنى المرفوعة إلى الكتف، كعلامة للسلام والمباركة، أما اليد اليسرى فهي إما أن تكون على مقبض السيف أو ممسكة بالصولجان- علامة السلطة الملكية".

تقع المنطقة المقدسة (تيمينوس) في مركز المدينة، وفيها جميع معابد الآلهة المهمة (شماش، إله الشمس، ألات، وشاهرو)، والقصر الملكي. وتظهر التأثيرات الغربية في هندسة هذه المعابد، إلا أن الصفة الأساسية للمهندسين الحضريين هي الحرية في استخدام علامات الزينة الإغريقية والرومانية والبارثية، حيث يعود أصلها وطريقة بناؤها إلى الفترات البابلية والآشورية، وأدى ذلك بدوره إلى ابتكار طراز جديد، خاص بالحضر وحدها، ولكن أغلب بيوت السكن في المدينة، مبنية من اللبن الطيني.

تقع البيوت على شوارع مستقيمة، تبدأ من المنطقة المقدسة، على شكل خيوط أشعة الشمس. وكل بيت، تقريباً، كان يحتوي بئراً خاصة أو حوضاً اصطناعياً لتخزين المياه، باستثناء بيوت السكن والأبنية الإدارية والطقوسية، كما اكتشف علماء الآثار في مدينة الحضر، مضماراً لسباق الخيول، ومسرحاً، وكذلك أبراجاً لدفن الموتى؛ وهي عبارة عن أضرحة من الحجر يدفن فيها موتى العوائل المرموقة في المدينة، وكان لكل عائلة من هذه العوائل، برجاً خاصاً بها.

اكتشف علماء الآثار مجموعة مذهلة من تماثيل تعود إلى الفترة الإغريقية، وذلك أثناء التنقيب في معبد الإله مارانا، العائد إلى الفترة الهيلينستية، والذي يُعتبر المعبد الأقدم في المدينة، وهو نسخة عن المعبد الروماني العائد إلى القرن الثاني الميلادي، المبني على غرار النسخة الإغريقية الأصلية لمدرسة ليسيبا (نحات القصر في زمن حكم الإسكندر المقدوني). لقد زرت الحضر عدة مرات، وكانت الزيارات لفترات قصيرة (لساعات) أثناء مرورنا بالمدينة، ولكن الزيارة الأخيرة عام ١٩٧٩م إلى

أطلال المدينة القديمة ترسخت في ذاكرتي؛ كان الوقت شهر أيار، وكانت السهول المحيطة بالحضر خضراء، ومن بين الأعشاب النادرة، كانت توجد شقائق النعمان الحمراء برؤوسها المرفوعة، وتجد بيوت الشعر السوداء للبدو، حيث رائحة دخان المواقد ونباح الكلاب وأصوات أقدام قطعان الغنم. كل هذا المشهد كان يمنحُ المرء شعوراً لا ينسى، وفي كل مرة كانت الزيارة تبدو وكأنها مفاجئة وغير عادية، وتترك في القلب تأثيراً قوياً. وبالمناسبة، لست الوحيد الذي تحدث عن هذا التأثير القوي.

يقول العالم الإنكليزي المشهور سيتن لويد: "الأطلال الجامدة لهذه المدينة باقية، وهي مرتفعة اليوم أيضاً بعظمتها في الصحراء القاحلة، وهي واحدة من الأطلال الحجرية الباقية في العراق حتى الآن".

قد تكون الأمور المذكورة، هي سبب هذا التأثير للحضر على أي زائر إليها، فبدلاً من المواقع المعتادة في بلاد الرافدين القديمة مثل التلال، والحفر، وكل أنواع القمامة، نجد فجأةً أمامنا، في هذه الصحراء الخالية من السكان، صفوف الأعمدة والمعابد الإغريقية وأقواس القصور والأسوار بأبراجها.

تقول فاتا مورغن: "مدينة الأشباح، مدينة الأحلام، مدينة الأساطير، عندما تتجول في الدهاليز الحجرية، تشعر أنك وحيد بشكل مطلق في مدينة مهجورة، مدينة ميتة، مدينة غرقت في نوم عميق لمدة سبعة عشر قرناً مضى"، وقد حصل معي الشيء نفسه هذه المرة أيضاً.

مالت الشمس إلى المغيب، ولكن الحرارة لم تنخفض، وعندما توقفت السيارتان في حديقة بيت البعثة العراقية المريح، توجه زملائي إلى الظلال، أما أنا فقد قررت التوجه إلى أطلال المدينة كونها المرة الأخيرة، ولأنّ المساء سيحل بعد قليل، وغداً سأكون في الطريق إلى البيت، الى موسكو! مقاوماً التعب والحر، دخلت بين الجدران العريضة للقصر، حيث الهدوء،

وأطلال المدينة النائمة منذ قرون عديدة، أعمالك اليومية والتفكير فيها انتهت. أنت وحيد مع التاريخ، أتت لحظة الحقيقة، ففي داخلي اسمع صوت القرون الماضية، أنت تشعر بمشاركتك المباشرة مع الأزل. وفجأة وفي أوج حديثي مع الحضر القديمة اسمع، على بعد خطوات مني، خلف إحدى الزوايا، ، صوت امرأتين منبهرتين ترددان دون كلل نفس الكلمات (آه جميل!)، (آه رائع!)، نظرت وأنا مستاءٌ من مخبئي في القصر، وشاهدت امرأتين انكليزيتين عجوزين، لكن قويتين؛ شعرهما ممشط، وعلى وجهيهما مساحيق التجميل، دون أن يكونا متعرّقين. يبدو أن حرارة شمس العراق لا تؤثر فيهما، التقطت الامرأتان، دون توقف، الصور بكاميرتيهما الصغيرتين، وهما تتلفظان بعلامات الإعجاب والانبهار.

نعم، إنهم سياح حقيقيون، لا توجد هنا أية وسائل للراحة، ولا أي مناظر طبيعية جميلة، ولكن رغم ذلك ،السواح يأتون إلى العراق من جميع أنحاء العالم، ومن يأتون إلى العراق، لا يستطيعون أن يحرموا أنفسهم من زيارة المدينة الحجرية الرائعة، والموقع الأثري الوحيد في بلاد الرافدين، الذي لم يحافظ على هيئته وحسب، بل على سر جاذبيته أيضاً.

بدل الخاتمة

بغداد:

البحث عن مدينة الخلفاء

لا يمكن الانتهاء من الحديث عن العراق- بلاد الحضارات الأولى- دون التطرق إلى بغداد؛ لكن من جهة أخرى فإنّ الكتاب يتطرق بشكل رئيسي إلى المواقع الأثرية القديمة في بلاد الرافدين، وفي العاصمة العراقية، تقريباً لاتوجد مواقع أثرية، ومسألة وجود آثار واقعية في بغداد المعاصرة حتى الآن هي محل نقاش ساخن بين الصحفيين والعلماء؛ بعضهم يرى معالم العاصمة الأسطورية القديمة للخلفاء في معظم شوارع بغداد المعاصرة، وآخرون يؤكدون عدم صلة بغداد المعاصرة بعصر هارون الرشيد، ومن غرائب الأمور، يبدو أن كلا الطرفين على حقّ بشكلٍ من الأشكال. لنسمع أولاً براهين المتفائلين منهم؛ يقول الصحفي يو. غلوخوف: "في شوارع بغداد يعيش أبطال القصص والأساطير العربية، متحولين إلى أشكال برونزية وحجرية، يذكرك خرير مياه نوافير الجرار بتاريخ علي بابا والأربعين حرامي، وعلى ضفاف نهر دجلة تحت ظلال النخيل، بالإمكان مشاهدة شهرزاد الجميلة والملك شهريار؛ صنعتهما أيادي النحات العراقي الموهوب، أضف إلى ذلك أزقة وزوايا بغداد القديمة ومساجدها وأسواقها؛ كل هذا يذكرك بأنك في مدينة ألف ليلة وليلة".

يوافقه الصحفي الأمريكي ويليم إيليس، قائلاً: "ولكن يمكنك الآن أن ترى آثار تلك المدينة التي كانت في يوم من الأيام أغنى مدينة في العالم، ففي تلك الأزقة الضيقة والدهاليز، توجد الأسواق القديمة، حيث تعلو أصوات المطارق التي ترسم الزخارف على البرونز، ويباع فيها الكحل والزعفران... طالت الحداثة السوق القديم مثلما طالت المدرسة المستنصرية التي يعود بناؤها إلى القرن الثالث عشر، والتي كانت مشهورة في فترة الخلفاء العباسيين، وهناك شواهد أخرى تثبت أنّ هذه المدينة هي بغداد، وليست مدينة آخرى حديثة.

وفي المقابل، فإنّ أصحاب الفرضية الأخرى يقدّمون براهينهم حول العاصمة العراقية، بنفس التأكيد والإصرار، وفي مقدمتهم الضابط والرحالة والدبلوماسي الروسي ي. تشيريكوف، الذي زار العراق عام ١٨٤٩م وكتب: "بغداد محاطة بسور عالٍ؛ أجزاؤه الشرقية متهدمة بشكل كامل بسبب الفيضان الذي ضرب المدينة عام ١٨٣١م، ولا يوجد فيها أية أبنية أو مساجد جميلة، ولا أية منارة تثير الإعجاب، كلها ثقيلة وغير عالية وآنية، وهي خاليةٌ من لمسات الجمال. الحمامات سيئة وغير نظيفة... السوق قديم، والدكاكين فقيرة، وبضائعها مغبرة وغير نظيفة".

وهكذا نرى بأن عين الرحالة الروسي، في منتصف القرن التاسع عشر، لم تستطع أن تشاهد أية عمارة جميلة أو أي بناء يعلق بذاكرته في أزقة بغداد الضيقة، فما بالك بالمدينة الحالية التي طالتها يد التحديث والترميم؟!

هل يثيرُ الاستغرابَ، حديث بعض الصحفيين المتشائمين الذين زاروا بغداد في سبعينات وثمانينات القرن الماضي، عندما بدأت النهضة العمرانية في بغداد اليوم؟ يقول الكاتب ك.غيفاندوف و٠سكالكين عام ١٩٧٦م: "لم يبقَ إلا القليل من أيام هارون الرشيد".

لكن عاصمة العراق تدهشك بحجم التطور والتحديث، ففي هذه المدينة القديمة توجد نسبة غير عادية من الأبنية الحديثة، ودور السكن، والجسور، والفنادق والأبنية الإدارية، والكثير منها مثيرٌ للانتباه، كما هي الحال مع العمارة الحديثة المستوفية لوسائل الراحة، ذات الطابع المحلي في البناء.

يعيش حوالي ثلاثة ملايين من العراقيين- ربع سكان العراق تقريباً- في العاصمة، حيث تنمو بغداد وتتوسع على حساب الصحراء، والتغيّرالحاصل في المشهد الخارجي للمدينة، يعكس حجم التغيرات في البلاد.

هذا بالضبط ما يعتقده أيضاً فلاديمير إيوردانسكي، الذي زار العراق عام ١٩٨٤م، ففي أوج الحرب العراقية الإيرانية كتب: "أسس أبو جعفر المنصور بغداد عام ٧٦٢م، وقد شارك مئة ألف عامل في بناء المدينة والسور الخارجي. وقد بقي القليل من تلك الآثار، من ذلك الزمن البعيد. عندما أتيت لأول مرة إلى عاصمة العراق، قبل خمسة عشرعاماً ، فإن المدينة المغبرة والمترامية الأطراف، قليلاً ما تذكرك بتاريخ وعظمة المركز الديني والسياسي للعالم الإسلامي في يوم من الأيام".

وهكذا، منْ يكون على صواب، المتفائلون أم المتشائمون؟ وهل توجد في بغداد المعاصرة أبنية تاريخية تعكس أسطح صفحات تاريخ العراق في القرون الوسطى- عصر الخلافة العباسية (القرن٨-١٣)؟ في الحقيقةً عليّ الاعتراف بأني لا أعتبر نفسي مختصاً في الشرق، ولا خبيراً في العمارة الإسلامية في القرون الوسطى، حتى أنّ رحلاتي المعرفية إلى العاصمة العراقية كانت معدودة، وكنا نزور البلاد لبضعة أيام فقط في كل مرة، ومع ذلك، تغيرت وجهة نظري، وانضممتُ إلى فريق المتفائلين بشكل نهائي، وكان ذلك نتيجة حادثة واحدة.

في عام ١٩٨٥م، مع عودة بعثتنا إلى بغداد، تعرفنا إلى أناس طيبين من مواطنينا الروس، الذين كانوا يعملون في ممثليتنا التجارية هناك، وفي أحد

الأيام تطرقنا إلى الحديث عن معالم بغداد، وقد تحدثنا عن وجهتي النظر، آنفتي الذكر، بخصوص بغداد، عندها تدخل في نقاشنا، خبيرنا في أمور الشرق أوليغ بلشكوف كحكم، وكان ما يزال ثمة متسعٌ من الوقت لسفرنا إلى الوطن، حيث اقترح علينا أن يأخذ من يريد منا في رحلة، في أقرب يوم عطلة، إلى مواقع العصور الوسطى في بغداد، وقبلنا الاقتراح ببهجة.

أمنت الممثلية التجارية لنا آليات النقل بكل رحابة صدر؛ سيارتا ليموزين مريحتان، ومعنا صاحب المعرفة الواسعة الدكتور بلشكوف. كانت هذه الرحلة القصيرة، التي تزيدُ مدتها قليلاً عن نصف يومٍ، بالنسبة لنا جميعاً اكتشافاً حقيقياً؛ ففي السابق، كنتُ أنسى على الفور الأبنية العائدة إلى القرون الوسطى، والتي كنتُ أشاهدها أثناء سيري في شوارع بغداد، ولكن الآن وبعد هذه الرحلة ومعرفة هذه الأبنية، أصبح لدي انطباع آخر عن هذه المجموعة من الأبنية، بحيث أصبحت لوحة متكاملة.

كلا، بغداد (ألف ليلة وليلة) لم تمت، وخيال الخلفاء الذين أحبوا السلطة ما يزال يتجوّل في شوارع بغداد وساحاتها، فتاريخ بغداد مرتبط بشكل مباشر بتاريخ الغزو الإسلامي لبلاد الرافدين، والذي جعلها من ضمن الأجزاء المهمة للعالم الإسلامي، ولكن قبل سيطرة العرب على العراق بزمنٍ طويل؛ أي في الألف الأول قبل الميلاد، اخترقت مجموعات عربية تنحدرُ من شبه الجزيرة العربية، أجزاءها الجنوبية والجنوبية الغربية، كما أنّ دولة عربية صغيرة (المملكة اللخمية) ظهرت على الفرات الأدنى، في الفترة الممتدة ما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين، وجرى التعريب العام الواسع النطاق للمنطقة بعد الغزو الإسلامي، عندما استوطن عدد كبير من العرب البدو في بلاد الرافدين، ثم بدأت فترة الخلافة الإسلامية، التي كان مركزها دمشق في بداية الأمر، ولكن في عام ٧٥٠م تغيّر الوضع بشكل جذري؛ حيث حلّت السلالة العباسية محلّ السلالة الأموية التي كانت

تحكم العالم الإسلامي من دمشق، وأصبح العراق مركزاً لحكمها، وتم البدء بالبحث عن موقع لبناء عاصمة جديدة لخلافتهم، وخلال وقت قصير، وجدوا المكان المناسب، في منطقة المجرى الأوسط لنهر دجلة، عند اقترابه الشديد من نهر الفرات.

في عام ٧٦٢م أسس الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور عاصمة الخلافة الجديدة، وسماها دار السلام، ولكن الناس العاديين البسطاء كانوا يفضّلون تسميتها بغداد- نسبةً إلى القرية القديمة المجاورة لها- وتم بناء المدينة الجديدة وبقي اسمها هكذا إلى يومنا هذا.

يجب القول بأن اختيار موقع العاصمة كان موفقاً، فالمنطقة هي ذات أراضٍ خصبة جداً، وتقع عند تقاطع الطرق التجارية الأهم في العصور الوسطى في أوراسيا (أوربا وآسيا)، لأن المنصور كان قد تنبّه لهذه المسألة، ولهذا بنى مدينته هناك.

ووفقاً لقول المؤرخ العربي، الطبري، فقد أوضح الخليفة سبب اختياره للمكان بما يلي: "هذا المكان رائع كموقع عسكري، عدا عن وجود نهر دجلة الذي سوف يربطنا مع البلدان البعيدة حتى الصين، وهو يعطينا كل ما يعطيه البحر، وكذلك البضائع من بلاد الرافدين، وأرمينيا، والمناطق المجاورة، وأيضاً هنا الفرات، الذي سوف يجلب لنا كل ما تنتجه سوريا... والأراضي التابعة لها".

تقع المدينة الجديدة على الضفة اليمنى لنهر دجلة، ولها شكل دائري بقطر ٢٦٣٨م، يحميها من الخارج سور من اللبن الطيني بعلو ١٨مترا وخندق عميق، وعلى مسافة ٣٠ متراً من السور الأول يوجد سور آخر أقل ضخامة، وهو مبنيٌّ من المادة نفسها (أي اللبن الطيني) وفيه أربع بوابات.

في مركز المدينة، وفي وسط باحةٍ واسعة، كان يقع قصر الخليفة ومنازل أولاده، والمسجد الرئيسي، والأبنية الإدارية المهمة، وبحسب

المعاصرين لذلك الوقت، وشهود العيان آنذاك؛ عندما كانت القوافل تقترب، كنت ترى من بعيد القبة الخضراء لمقر الخليفة، والتي كان ارتفاعها ثلاثة وأربعين متراً، وفي أعلاها شكل على هيئة فارس وفي يده رمحٌ متحركٌ، ووفقاً لما يقال فإنّ هذا الشكل يتوجه إلى الجهة التي يأتي منها الخطر أو الهجوم على المدينة.

جلبوا إلى القصر البوابات الذهبية، وإطارات الأبواب المذهبة من واسط إلى بغداد، وقد أرسلت كل من دمشق والكوفة والمدن الأخرى في الخلافة بواباتها كهدايا. وقد تم بناء المدينة خلال أربع سنوات، وكلفت خزينة المنصور تسعة ملايين دينار (أو تسعة وثلاثين طناً من الذهب)، وأصبحت بغداد خلال وقت قصير مدينة غنية وجميلة.

بلغت بغداد أوج ازدهارها إبّان خلافة هارون الرشيد حفيد المنصو، والبطل الرئيسي لقصص ألف ليلة وليلة. كتب كتاّب القصر كل التفاصيل عن الأبهة والعظمة وغنى الخليفة في بغداد، و ذكروا أنّ قصر الخليفة يحتوي على اثنين وعشرين ألف سجادة، وثمانٍ وثلاثين ألف ستارة، ولعلّ ما كان يثير دهشة زوّار الخليفة، هو قاعة الشجرة، التي كانت تحتوي حوض ماء وأشجاراً من الفضة والذهب الخالص، وكانت توجد على أغصانها طيور آلية، بإمكانها أن تغرّد وتتحرك بواسطة تقنية خاصة. وعن البذخ والغنى، الذي عاش فيه العباسيون، يقول المستشرقان الروسيان، كوفتنوفيش و س. خجاش: "يقولون على سبيل المثال- بأن زبيدة زوجة هارون الرشيد هي أول من أحدثت موضة انتعال الحذاء المرصع بالأحجار الكريمة، وكانت تأكل فقط في الأواني المصنوعة من الذهب والفضة، و أنّ حفل زفاف الخليفة المأمون (ابن هارون الرشيد) بقي حادثة لا تنسى في ذاكرة عدة أجيال، فقد كان على العروسين الجالسين على سجاد منسوجٍ من ذهب مرصّعٍ باللآلئ، أن يرميا من الصحن آلاف القطع الكبيرة من اللؤلؤ،

كما كانا يرميان كرات من المسك بين الضيوف، الذين كانوا من الحاشية المقربة، وفي كل كرة من هذه الكرات ورقة مكتوب فيها نوع الهدية؛ جارية أو قطعة أرض... وما إلى هنالك".

يجب القول بأن هارون الرشيد الذي تمّ تصويره في قصص (ألف ليلة وليلة) كملك يتصفُ بالحكمة والرأفة والكرم، لم يكن كذلك، بل كان حاكماً قاسياً ومستبداً شرقياً في حقيقة الأمر، وكان يضع بدون تردّدٍ، رأس أقرب المقرّبين إليه تحت المقصلة بمجرد الشك في أمره، وتكفي الإشارةُ إلى حادثة قتل وزيره بوران، الذي خدم الخليفة بأمانةٍ وصدق، طوال سبعة عشر عاماً، عدا عن أنّ بوران كان والد زوجة ابنه المأمون، وفي سنوات حكم المأمون (توفي ٨٣٣م)، الذي رعى العلم والمعرفة والفنون بكل مقاييسها، اجتمع في عاصمة الخلافة كبارُ العلماء، والشعراء، والأطباء، والفنانين، والمغنين من جميع أنحاء العالم الإسلامي.

يقول و. كوفتنوفيش و س. خجاش: "بعد مضي ٧٥ عاماً على بناء بغداد، كان الذين يتقنون القراءة باللغة العربية في العالم الإسلامي قد تعرفوا إلى كتب أرسطو الفلسفية، وأغلب كتب الطب لغالين، وكتب علماء فارس والهند، وخلال فترة قصيرة، تعرفت شعوب بلدان الخلافة إلى معارف وعلوم الإغريق، التي كانت حصيلة قرون عديدة لديهم (أي الإغريق)، وأضافوا إليها من ثقافتهم الغنية جداً، والتي أدت دوراً كبيراً، لا يمكن إنكاره في النهضة الأوربية، كما أنّ الكثير من أفكار وحكم الإغريق القديمة وصلتنا من خلال ترجماتها العربية فقط".

في القرن الثامن- التاسع الميلادي، عندما كانت أوربا في حالة سبات وبربرية، افتتحت بغداد الصيدلية الأولى، وأنشأت مصانع الورق لأجل الكتب، كما افتتح(بيت الحكمة) إبّان خلافة المأمون. بعد موت المأمون بدأت الخلافات تدبُّ بين الحكام العباسيين، وأصبح الخلفاء ضحية المؤامرات في

القصر الملكي، حيث كان الخلفاء يُقتلون بالسم أو الخناجر، وحمل الشعب البائس، الذي لم يعد يتحمل الضرائب والاستبداد، أكثر من مرة السلاح في وجه الطبقة الحاكمة. واشتدّ المزاج المتطرف في الخلافة، حيث انفصلت مصر، والمغرب، والجزائر، وتونس، وإيران عن الدولة العباسية المترامية الأطراف، في نهاية القرن العاشر.

بعد مضيّ قرنين من الزمن، احتل الأتراك السلاجقة بغداد ودمروها عام ١٠٥٥م، وفي عام ١٢٥٨م، أقتحمت جيوش المغول والتتار، بقيادة هولاكو، بغداد ودمروها: لقد تم حرق كل شيء يمكن حرقه، واصطبغت مياه نهر دجلة، على امتداد عدّة كيلو مترات، باللون الأبيض، نتيجة إلقاء الأوراق والكتب والمكتبات التي نهبت في النهر، وتمّ إعدام آخر خلفاء العباسيين، المستعصم، بأمرٍ من هولاكو خان.

تعرضت المدينة في نهاية القرن الرابع عشر لهجوم آخر، ودمرت بشكل كامل على يد تيمورلنك القاسي، وبعد ذلك تعرضت بغداد لعدد كبير من الهجمات من قبل القوى الغنية؛ الأتراك العثمانيين، والفرس الجيران الأقوياء.

كانت مدينة الخليفة المنصور تقع على الجهة الغربية لنهر دجلة بحسب ما يذكر المؤرخون، أما على الجهة الشرقية ظهر، في وقت متأخر، تجمع سكاني من الحرفيين والتجار (منطقة الرصافة). ولكن الزمن، وفيضانات نهر دجلة، وهجمات الأعداء المدمرة تسببوا في زوال بغداد القديمة (مدينة السلام) عن وجه الأرض، حتى أننا لا نعرف أين كانت حدودها القديمة. لكن على الضفة الشرقية لنهر دجلة في الحي القديم (الرصافة) نجت الكثير من الأبنية المعمارية التي تعود إلى فترات متأخرة من العصر العباسي (القرن الحادي عشر والثالث عشر الميلادي)، ومن الأبنية القديمة التي بقيت إلى يومنا هذا، الباب الوسطاني الذي بناه الخليفة المسترشد عام ١١١٩م.

تقع البوابة في القسم الشرقي من المدينة، خلف منطقة الشيخ عمر، و كانت تعد، ذات يوم جزءاً، مهماً من التحصينات الضخمة للمدينة، التي اضمحلت بشكل كامل.

في وقتنا الراهن، بقي فقط جسر قوي مبني من الآجر، وعن هذا الجسر يقول و. كفتنوفيش وس. خجاش: "يبدأ من البرج الدفاعي عبر خندق عريض حتى يصل إلى البرج الباقي إلى يومنا هذا في الجهة الأخرى من الخندق، ويؤدي إلى هذا البرج طريق واسع ومائل قليلاً؛ يرتفع البرج بتدرج ليبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار. الطريق مرصوفةٌ بآجرٍ مربّعٍ رقيق، وعلى جانبي مدخل البرج رسوماتٌ بارزة للأسود، وعلى قاعدة البرج كتابة عربية غير واضحة. إن الشكل البسيط، وعدم وجود أي نقوش أو رسومات، يعطي هذا الشاهد التاريخي من الأبنية العربية العائدة إلى العصور الوسطى منظراً قاسياً وبائساً".

في الجزء الشمالي الشرقي من بغداد، وبعيداً عن مركز المدينة، يقع مسجد الإمام أبو حنيفة (الأعظمية)، الذي أعيد بناؤه عدة مرات، لذا فهو لا يعطي ذلك الانطباع التاريخي، ولكن يوجد فيه قبر الإمام أبو حنيفة، الذي عاصر المنصور وشارك بشكل فعال في بناء بغداد.

وفي بغداد قبر الشيخ معروف الكرخي المعاصر لهارون الرشيد، ويقع قبر الشيخ في مقبرة قديمة تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة، داخل مسجد تم بناؤه عام ١٢١٥م، ولكن منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا، أجري الكثير من الترميم للمسجد، و طرأت عليه تغييرات كثيرة. والآن، نجده عبارة عن بناءٍ غير عالٍ بقبتين؛ واحدة كبيرة وأخرى صغيرة، ولكن وقوفك أمام جثمان شخص معاصر للخليفة المشهور (من ألف ليلة وليلة)، بالإضافة إلى المشهد المحيط بك من شواهد القبور المصنوعة من الحجر الأسود، والتي عليها كتاباتٌ عربية؛ كلّ ذلك يمنحك شعوراً عجيباً.

على الضفة الشرقية لنهر دجلة، ثمة مجموعة من الأبنية، تقع وسط أبنيةٍ حديثة في مركز المدينة، وتسمّى القصر العباسي، وقد تم بناؤه في بداية القرن الثالث عشر الميلادي. وعلى أيّة حال، بإمكاننا تسمية هذا البناء بالقصر، مجازاً، لأنّ ماهيّة البناء غير معروفة بشكلٍ دقيق، وثمّة اعتقادٌ بأن هذا البناء استخدم في العصور الوسطى كمؤسسة تعليمية، وما يهمّنا في الأمر، هو أنّ البناء حافظ على كل خصائص عمارة العصر العباسي المتأخر.

في السوق الحديثة لمدينة بغداد، توجد تحفة أخرى عائدة إلى الفترة العباسية، وهي "مدرسة المستنصرية" التي تم بناؤها في النصف الأول من القرن الثالث عشر من قبل الخليفة السادس والثلاثون (المستنصر). لقد أولى هذا الحاكم العلم والمعرفة اهتماماً كبيراً، ورعى الفنون، ووفقاً لشهاداتٍ من معاصريه، فقد أنفق المستنصر مبلغ ٧٠٠ ألف دينار ذهبي على هذه المجالات، ويعتبر الباحثون العرب المعاصرون المستنصرية الجامعة الأولى في العالم، فعدا عن العلوم الإسلامية كان يدرس فيها فقه اللغة، والفلسفة، والقواعد، والهندسة، والجبر، والطب، وكان عدد الطلاب يبلغ ١٥٠ طالباً في المدرسة المستنصرية ، وكانت مستودعاتها تحتفظ بنحو ثمانية آلاف مخطوط (كتاب)؛ حتى أنّ المغول، تجنّبوا تخريب هذه المؤسسة التعليمية المشهورة، أثناء اجتياحهم لبغداد عام ١٢٥٨م، وسقطت مدرسة المستنصرية بعد أن دمرها تيمورلنك في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، حيث تدمّرت بشكلٍ كاملٍ، وتمّ إقفالها.

البناء الذي نشاهده الآن على الضفة المغبرّة لنهر دجلة، هو نتيجة عدد كبير من عمليات الترميم التي جرت للمدرسة، حيثُ أجريت أوّل عملية ترميم لها في عهد السلطان العثماني عبد العزيز عام ١٨٢٥م ، بينما جرى ترميمها بشكلٍ نهائي عام ١٩٦٢م، وكان هذا الترميم هو الأفضل من بين

الترميمات التي أجريت للمدرسة، وجاء ذلك بمناسبة مرور ١٢٠٠ عام على بناء مدينة بغداد.

إن قبر زمرد خاتون، زوجة الخليفة الناصر، يعود إلى القرن الثالث عشر، وهو يقع في المقبرة القديمة الواقعة على الضفة الغربية لنهر دجلة، بالقرب من سكة القطار التي تصل بين بغداد والبصرة، ولعلّ الغريب في الأمر هو أنّ الروايات الشعبية حتى الآن تسميه ضريح السيدة زبيدة، زوجة الخليفة هارون الرشيد، التي توفيت قبل أربعة قرون قبل زمرد خاتون: "من بين القبور المتواضعة المتشابهة إلى حدٍّ كبير، ضريح زمرد خاتون ذو الحجم والشكل المميزين، فالقبر مبني من الآجر، وله ثمانية زوايا، وهو مقسم إلى قسمين؛ السفلي منه مزين بنقوش غير محفورة بعمق، وقد استخدم المعماري الذي أنشأه، اللبن من مختلف القياسات، ووضعه في زوايا مختلفة، وزين جدران الضريح، ولا سيّما في القسم العلوي منه، بأشكال هندسية، وتشبه طريقة بناء هذه الجدران في أماكن عديدة، طريقة التزيين بالصبّ(ثيركوتا)، وتوجد فوق القبر قبّة متطاولة الشكل، تحتوي ثقوباً تدخل منها أشعة الشمس لتنير داخل الضريح.

بهذه الكلمات المأخوذة من كتاب و. كوفتنوفيش وس. خجاش أريد أن أنهي حديثي عن الأوابد والأبنية العائدة إلى العصر العباسي الباقية إلى يومنا هذا في بغداد. لكن حديثي عن رحلتي في بغداد القديمة يبقى ناقصاً، إذا لم أتطرق إلى مسجد الكاظمَين؛ المسجد الذهبي المشهور،الذي يقع في الضاحية الشمالية الغربية من بغداد.

يحيط بالمسجد من جميع الجهات أزقة وشوارع ضيقة متسخة، وصفوف المحلات التجارية والساحات غير النظيفة، وحقيقة يبدو المسجد، وسط هذا المشهد العام، وكأنه بناء أو قصر أسطوري بقببٍ ذهبية. ويعد مسجد الكاظمين من أقدس المساجد لدى المسلمين الشيعة، لأنه يضم رفات الإمامين

موسى وحفيده الإمام كاظم الجواد، و قد بني المسجد فوق القبرين، في القرن السادس عشر، ومنذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا، أجريت له عدّة عمليات ترميم، إلى أن اتخذ شكله الحالي، وأجري التغيير الكبير للمسجد عام ١٨١٣م، عندما تم طلاء القبتين بالذهب، كما طليت أجزاء من المنارة وسقف المدفنين بماء الذهب، وتمّ ترصيعها بالزجاج الملون وقطع المرايا، واستُبدل الباب الخشبي بآخر من فضّة، وفي عام ١٩٠٦م تم تغطية القبرين بغطاء من الفضة، على شكل صندوق مستطيل، ونظراً لأنّ الدخول إلى المسجد صعبٌ جدّاً على غير المسلمين، فقد اكتفينا بالنظر إليه من الخارج.

في ربيع ١٩٨٥م في عاصمة العراق، كانت الرياح قوية وعواصف الغبار سائدة، وفي هذه الأيام كان الغبار الأصفر يجول شوارع بغداد، ويصبح من السهل تخيل هيئة بغداد في فترة الخلفاء، والأبنية العظيمة من قصور، ومساجد، وحمامات، وأسواق، ومدارس، وجسور، ولكن بعدما تهدأ الرياح ويصبح الجو صافياً، يضمحل سراب القدم سريعاً ويظهر أمامنا، عوضاً عن طيف علي بابا وسندباد البحّار، المنظر العام لمدينة مترامية الأطراف، منتشرة على ضفتي نهر دجلة الغزير.

إنها بغداد الحديثة؛ حيث أنوار الفنادق الفخمة، والمطاعم، والأبنية السكنية، و الأوتوستترادات والأنفاق الرائعة، وعقد المواصلات التي تحيط بكامل المدينة. ويوجد فيها مطار دولي حديث، وعدد كبير من الأبنية الإدارية، والمصارف والمؤسسات. وبدل الجسورالستة القديمة، يوجد في بغداد اثنا عشر جسراً يوصل بين ضفتي نهر دجلة، ولكن آثار الماضي موجودة في كل مكان، وهي صلة الوصل بين الماضي والحاضر، وهكذا سوف تكون المدينة في المستقبل.

المدينة الخالدة تتقدم بكل قواها إلى الأمام نحو المستقبل، ولكن في عمق الليل، عندما تنطفئ الأنوار وتنام بغداد متعبة من اليوم المنصرم، تراودها

أحلامٌ سحرية عن الخلفاء، والوزراء الحكماء، والسمراوات الجميلات، والمحاربين الشجعان، والرحالة المذكورون في الأساطير الخالدة من ألف ليلة وليلة.

ملحق الصور

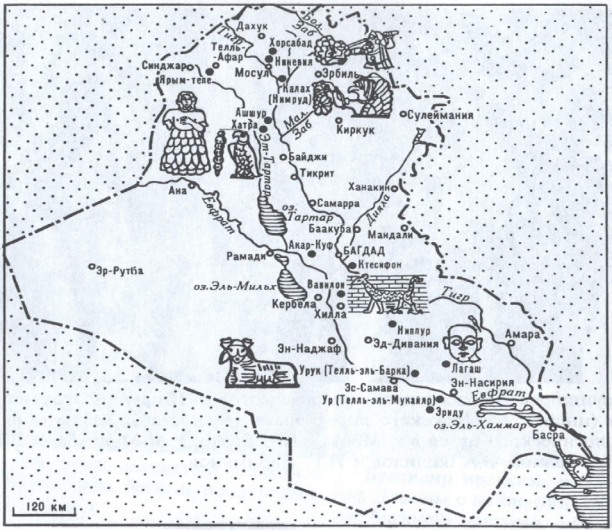

خريطة أثرية لبلاد الرافدين

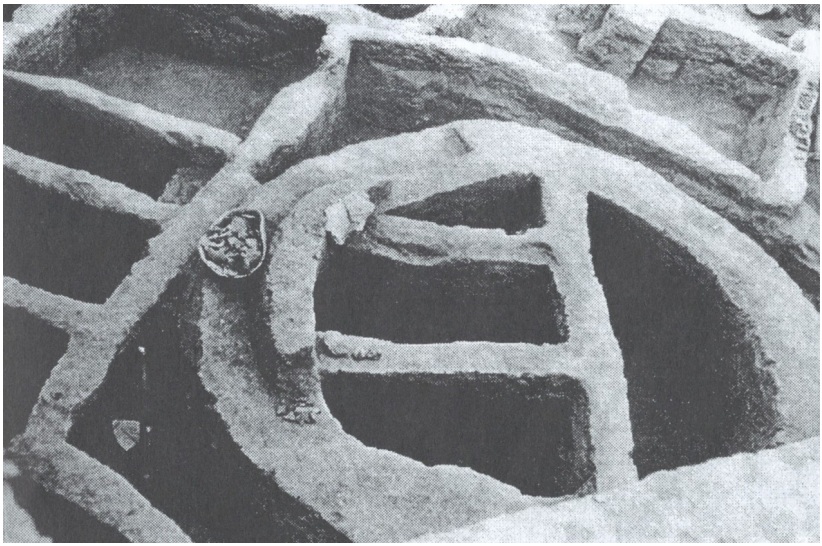

تولوس حلفي عائد لفترة الألف الخامس ق.م. موقع يارم تبه ٢

مجموعة من علماء الآثار الروس والعراقيين في نمرود، من اليسار إلى اليمين: ياسين (ممثل مديرية الآثار العراقية)، حازم (مدير المتحف الأثري في الموصل)، ن.و.بادر، ر.م.مونتشايف، آ.ف.كوزا، و.غ.بلشكوف، ف.آ.بشيلوف، ي.غ.ناريمانوف

ميشا (موسى يونوسوف – سائق البعثة)

المؤلف: فاليري غولاييف، يارم تبه

رئيس العمال العراقيين في موقع يارم تبه ٢
وفي يده ربة الخصب العظمى المكتشفة تواً

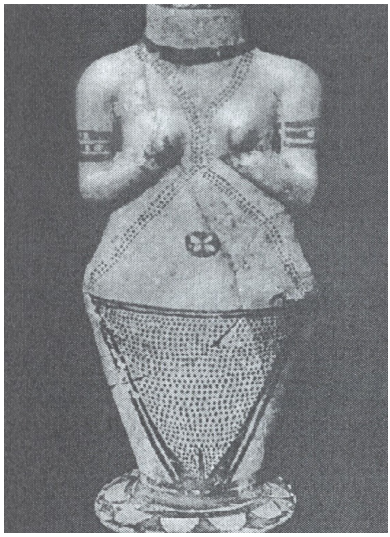

تمثال مزخرف لإلهة الخصب
الألف الخامس ق.م

عجوز إيزيدي في لباسه التقليدي (إلى اليسار)

جبل سنجار: بقايا برج دائري لحصن روماني

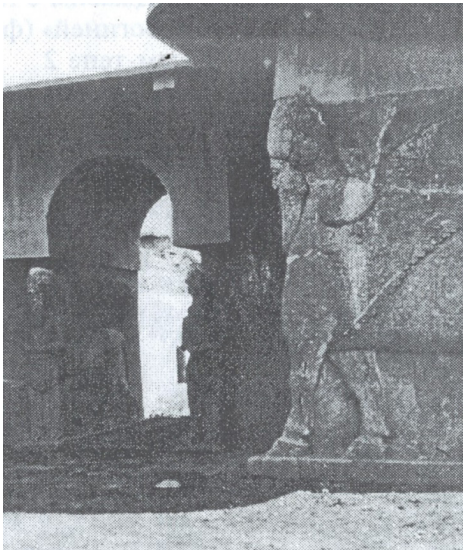

نمرود: مدخل إلى قصر آشور بانيبعل الثاني، القرن الثامن ق.م

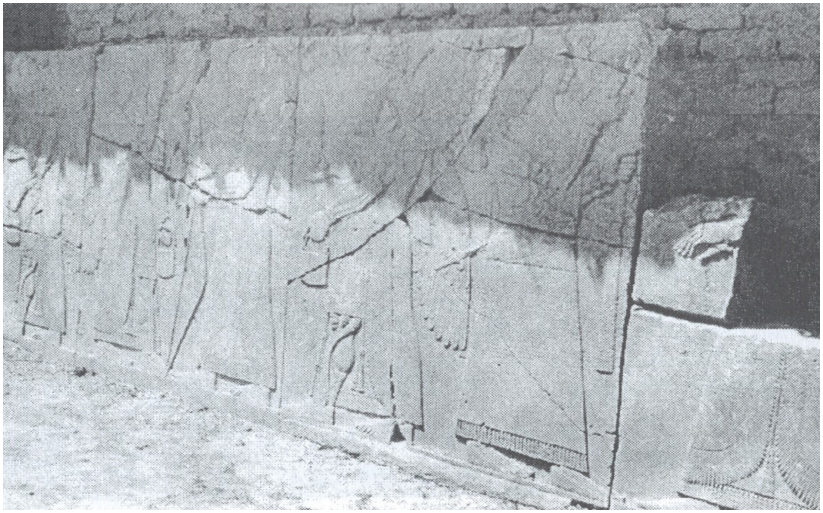

نمرود: جزء من جدران القصر مرسوم عليها مسيرة الآلهة، القرن الثامن ق.م

قوس بوابة القصر الملكي في حضر
القرن الأول ق.م – القرن الثالث الميلادي

نينوى: برج بوابة المدينة (بعد الترميم)
القرن السابع ق.م

حضر: منظر للساحة الرئيسية والمعبد الهيليني جوبيتر

إحدى المساجد الحديثة في مركز بغداد

حضر: تمثال لآلهة هيلينية
على جدران لمبنى حجري

الفهرس

المقدمة / ١١

الجزء الأول: العلماء الروس في العراق / ٢١

الفصل الأول ـ هكذا تبدأ البعثة / ٢٣

الفصل الثاني ـ علماء الآثار إلى العمل / ٤٨

الفصل الثالث ـ ياريم تبه ٢ البحث والاكتشاف / ٧٣

الفصل الرابع ـ على مشارف الحضارة ثورة العصر الحجري الحديث / ٩٥

الجزء الثاني: التجول في مدن بلاد الرافدين القديم / ١٢٩

الفصل الخامس ـ بيئة الحضارات الأولى / ١٣١

الفصل السادس ـ أور مدينة سومر الضائعة / ١٥٠

الفصل السابع ـ بابل بوابة الآله / ١٧٥

الفصل الثامن ـ الثلاثي الآشوري...آشور، نمرود، نينوى / ٢٠٤

الفصل التاسع ـ الحضر ـ أبو هول الصحراء / ٢٢٨

بدل الخاتمة / ٢٣٩

ملحق الصور / ٢٥٥

تراجم بعض الأسماء المذكورة في الكتاب

*ايرخ تسيرين :١٩٢٣_٢٠١٣ , مستشرق وصحافي ألماني، وباحث في مجال الآثار ولكنه غير مختص في الآثار–مؤلف كتاب التلال الأنجيلية

*ليونارد وولي : تشارلز ليونارد وولي : عالم آثار إنكليزي من مواليد لندن /١٨٨٠_١٩٦٠/ نقب في عدد من المواقع الأثرية /العراق ،مصر ،سورية، النوبة والأناضول/ .

*فلاديمير سانين :١٩٢٨_١٩٨٩ كاتب ورحالة سوفيتي .

* أوستين هنري لايارد :١٨١٧_١٨٩٤ رحالة ومستكشف وعالم آشوريات وسياسي بريطاني (سفير بريطانية في الأستانة) اشتهر باكتشافه لآثار /نمرود ونينوى/ .

*إدوارد كيرا : عالم آثار أمريكي، كان محاضراً في جامعة بنسلفانيا، ثم انتقل بعدها إلى جامعة شيكاغو، وهو من رواد علم الآثار الشرقية المعاصرة .

* س . كرامير :١٨٩٧_١٩٩٠ مستشرق ومحاضر في جامعة بنسلفانيا، منحدر من أصول يهودية، ولد في الأمبراطورية الروسية في مدينة جاشوكوف الحالية الواقعة في أوكرانيا .

*م . ف . نيكولسكي : ١٨٤٨_١٩١٧ مستشرق روسي مؤسس علم الاشوريات الروسية.

*ف . س .غولينتشيف : ١٨٥٦_١٩٤٧ عالم روسي مختص في علم الآثار المصرية، درس في جامعة القاهرة، وهو أول من اختص في علم الآثار المصرية من الروس.

* ب .أ . توراييف :١٨٦٨_١٩٢٠ محاضر في جامعة سانتبطرس بورغ؛ مؤرخ وعالم آثارمختص في الآثار المصرية .

* ف . ك . شيليكو: ١٨٩١_١٩٣٠ مستشرق، شاعر، ومترجم روسي

* ف .ف . سترو يف : ١٨٨٩_١٩٦٥ مستشرق روسي مختص في علم الآثار المصرية والآشورية ومؤسس المدرسة السوفيتية للمؤرخين في دراسة الشرق القديم .

* أ . ي .تيومينيف : ١٨٨٠_١٩٥٩ مؤرخ روسي مختص في تاريخ العالم القديم .

* ي.م .دياكونوف : ١٩١٤_١٩٩٩ مؤرخ روسي مختص بالشرق القديم.

* كسينوفونت : ٤٣٠ق٠م_٣٥٤ ق . م مؤرخ وفيلسوف, كاتب ومحارب إغريقي من أثينا.

سترابون : ٦٣ ق .م _٢٤ م مؤرخ وجغرافي يوناني .

* يول إميل بوتا : ١٨٠٢_١٨٧٠ عالم طبيعة وطبيب إيطالي عاش في فرنسا.

* ويلهلم كوينغ : عالم آثار ألماني ولد في شتونرت ١٩١٢_/عمر ١٠٦ سنوات / نقب في العراق, فوق الوركاء .

* أوليغ غيراسيموف : مستشرق روسي _ سوفيتي .

* غوردن تشايلد : ١٨٩٢_١٩٥٧ منظر وعالم آثاري إنكليزي _ نمساوي , صاحب مفردة الثورة النيوليتية /ثورة العصر الحجري الحديث / .

* روبرت بريدود: ١٩٠٧ _٢٠٠٣ عالم آثاري وعالم آثار وعالم إنسانيات أمريكي, نقب في سهل العمق في منطقة خاتي في تركيا ووقع جرمو الشهير.

* لامبيرغ كارلوفسكي : عالم آثار سوفيتي _ روسي .

* سيتن لويد : ١٩٠٢ –١٩٩٦ عالم آثاري إنكليزي, مدير مدرسة الآثار البريطانية في العراق ومدير مؤسسة الآثار البريطانية في أنقرة (١٩٤٨–١٩٦١) ونقب مع فؤاد سفر عالم الآثار العراقي في موقع تل حسونة .

Summary

This book is dedicated to the remote past of Iraq _ancient Mesopotamia, where , according to the modern historians , was a cradle of human culture and civilization.

From the years of 1969 to the 1980 , at the North – West of this arabic country ,in the Sinjar Vally , the Russian archaeologycal expedition of the Institute of Archaeology (Russian Acad – emy of Sciences) carried out the intensive explorations of some early sites 8-4 th mil-lenium B.C.Exactly these nameless early agriculturists and cattle-breeders, called by archaeologists with conditional names –hassunians ,halafians and ubeidians (through the names of the first excavated sites of these cultures –Hassuna ,Halaf , Ubeid) have liad the heavy stones to the foundation of the Sumerian civilization – the first one of our planet .

The first part of the book contains an information about the works of Russian archaeolo-gists in the Sinjar Vally –at Yarim-tepe (with sites of Hassunian and Halafian periods) , Tell-Soto (pre – Hassunian time, 7-6mil.B.C.), and Tell-Magzalia (8-7mil.B.C.) .

The autor shows not only some professional aspects of archaeological excavations in Mesopotamia, but speaks also about the pecularities of local life, tells of meetings with some colleagues from other expeditions – english, german , japan, iraquian :a special story is about the frantic nature of Mesopotamia.

The second part is dedicated to the first-hand account after the visits of some world-known ancient sites and monuments in Iraq :Ur, Babylon, Nimrud, Nineveh and Harta.

The final chapter is a tale of the relics of medieval Baghdad inside of a modern city . The book is written in a vivid and popular manner and will be interesting for the most wide audi-ence.

المؤلـــف:
فاليري ايفانوفيج غولايف _ تولد موسكو ١٩٣٨
حاصل على دكتوراه في الآثار من جامعة موسكو الحكومية ١٩٦٦
يعمل في معهد الآثار في أكاديمية العلوم الروسية في موسكو منذ ١٩٦٧ بصيغة باحث رئيسي - ونائب مدير المعهد ورئيس قسم.

المترجـــم:
سليمان عبد القادر إلياس - تولد قامشلو - قرية أرزانا ١٩٦٨
حاصل على دكتوراه في علم الآثار في معهد الآثار في أكاديمية العلوم الروسية في مدينة موسكو٢٠٠٣
خبير في المديرية العامة للآثار والمتاحف
رئيس البعثة السورية للتنقيب الآثري في تل شعير
رئيس مركز الفرات للدراسات

حقوق الطبع والنشر محفوظة لـ مركز الفرات للدراسات
الطبعة الأولى _ ٢٠٢٠
مطبعة شلير